الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
MINISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR
ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي – تبسة
كلية الآداب واللغات



Université echahid cheikh Larbi Tebessi – Tébessa
Faculté des lettres et des langues

قسم اللغة والأدب العربي

التّفكيرُ اللّغويُّ عند سيبويهِ من منظورِ اللّسانيّاتِ الحديثةِ " قراءةٌ في أعمالِ عبدِ الرّحمانِ الحاجّ صالح"

أطروحة معَدّة لنيل شهادة دكتوراه – ل. م. د– في اللّغة والأدب العربيّ

تخصص: لسانيّات عامّة

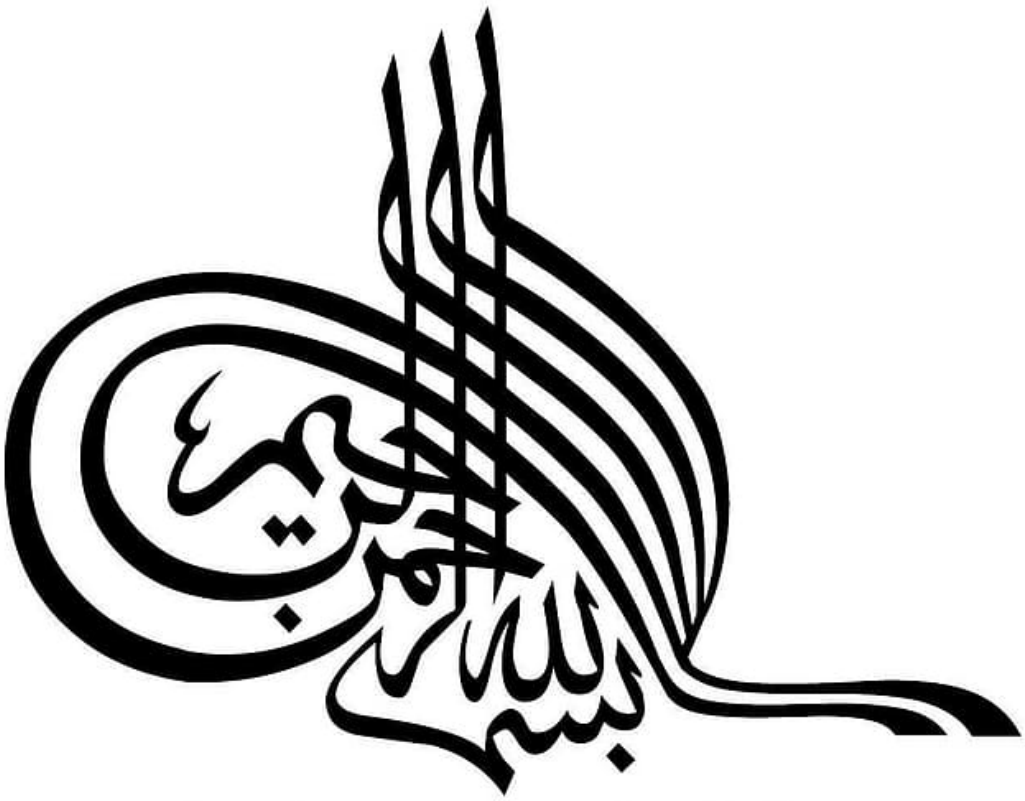
إعداد الطالب:
علي عبد المؤمن

إشراف الأستاذ:
قدّور سلّاط

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	المؤسسة الجامعية	الصفة
01	ربيعة برباق	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي– تبسة	رئيسا
02	قدّور سلّاط	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي– تبسة	مشرفا ومقررا
03	نوار عبيدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف	ممتحنا
04	رشيد عمران	أستاذ محاضر– أ	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي– تبسة	ممتحنا
05	علية بيبية	أستاذ التعليم العالي	جامعة لونيسي علي – البليدة	ممتحنا
06	سليم حمدان	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمة لخضر – الوادي	ممتحنا

السنة الجامعية: 2025/2024


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله واسع المنّ، عظيم الجود والإحسان، أهل الشّكر والامتنان، والصَّلاة والسَّلام الأتمَّان الأكملان على نبيّ الرّحمة البشير العدنان، ثمّ أمّا بعد:

فالشُّكرُ لبدورِ علم وهداية، بهم استنارت أنفس وعوالم، وبنوالهم أخصبَت تربة فتضوَّع نبتها ذائعا عبَقا، وأزهرت روضةٌ ففاح أريجها طيبا علِقا.

الشُّكر لوالدَيَّ الكريمين كما أمر ربّي جلَّ من قائل سبحانه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ آ 14 س لقمان.

وإنَّه ليقودني شرف الوفاء وواجب الاعتراف بجميل النّبيل لأتقدّم بالشّكر الجزيل إلى جميع أساتذتي الذين كان لهم أعظم الفضل في إتمام مساري الدراسي عامة، وأخص بالذكر منهم أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور محمد مباركي الذي بذل أنبل الجهود في تأطير هذا العمل ابتداء، وأستاذي الفاضل الأستاذ الدّكتور قَدّور سَلّاط رئيسَ المجلس العلميّ للّغة العربيّة بكليّة الآداب واللّغات؛ إذ كان السبب في إتمامه وإنجاحه بتوجيهاته القيمة، فزادهما الله رفعة وعلما، وبوّأهما مقام العالِمين العاملين، مكبرا لهما صبرهما وجهودهما.

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون مباركًا نافعًا للمسلمين، وأن لا يغلب فيه حظنا من الدنيا الفانية على حظنا من الآخرة الباقية، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول:" مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عزَّ وجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ".

مسانيد ابن ماجة وأحمد وابن داوود وغيرها.

الإهداء

إلى جميع شهدائنا الأبرار، وإلى مجاهدينا الأحرار، إلى غزَّةِ العزَّة نصرها الله أهدي ثمرَة هذا العمل، لجميل تضحياتهم، مع يسير زادنا، لقليل حيلتنا.

أهديه إلى والدَيَّ الحبيبين- حفظهما الله-، فلهما مني أصدق الحب وأعظم الإكبار.

إلى رفيقةِ دربي، أبقاها الإله الكريم لي سندا يشد عضدي ويقوي عزيمتي، أهديه أيضا.

وإلى سليلَي فؤادي، ولدَيَّ العزيزين:

ابني عبد الرحمان

وابنتي جَونة

أهديه فرِحا، تحدوني أشواق وآمال.

ولست أنسى لخل معروفا وإن تعثر قلمي فتجاوز ذكره، وليس يضيق الصدر بذكره، وإن ضاق في المقام بيانه.

إليهم جميعًا أهدي ثمَرة هذا الجهد البشري المتواضع.

مقــدمــة

مقدمة:

بلغ سيبويه من العلم باللغة العربية ومن حسن الصنعة النحوية فيها من خلال مؤلفه الإمام الذي سماه " الكتاب" مبلغا عظيما لم يتحقق لغيره من العلماء مع سعة علمهم وشموله، ولا ريب أن جميع ذلك مما يضفي على العالم وعلى علمه وفكره صفة العلمية واليقينية والموضوعية، وتلك أهم شروط التفكير اللغوي وكذا اللساني وأوجبُها، ونحن اليوم نستمد من كتاب سيبويهِ اللغةَ غضةً طريّةً فصيحةً، مثَّل لنا سيبويهُ بها البيئةَ العربيةَ الفصيحةَ حاضرةً في أزهى صورها في مؤلَّفه البديعِ، ولا يخفى على متبصِّر ما لهذا الموضوع من أهمية في حقل الدراسات اللغوية قديما وحديثا، فإن كتاب سيبويه على قدر من الأهمية والفضل في الدراسات اللسانية الحديثة عظيمٍ، وإن غالب النظريات اللسانية الغربية والعربية الحديثة لتُحاكي أو تماثل قضاياه.

فلقد كان من عظيم علم سيبويه وتوقد ذهنه ورجاحته ووزانته، أنه كان ينتقي من مجموع اللهجات العربية ويختار، ويُرجِّح من أقيسة أشياخه ومذاهبهم ويوازن، ليخرج لأهل هذه اللغة الحضارية الرسالية العالمية لغة عربية سماعية علمية مثالية تليق بهذا المقام، وهو في ذلك على نهج القرءان الكريم إذ فاضل ومايز بين ألسنة العرب فاصطفى أفضلها، وعلى نهج أساتذته في الترجيح والتوجيه والعمل اللغوي، وعلى نهج العرب قبل البعثة المحمدية في اصطفائهم وانتقائهم لأجاويد الكلام واللهجات، بيد أنه لا يَبتدع على نهج اللسانيات الحديثة ليخرج للناس لغة صناعية عالمية، ولكنه يُبدع في الانتقاء من مجمل تلك اللهجات العربية الفصيحة ليظهر للناس لغتهم العربية الأكمل والأنقى.

فكأني به يحفر في مجمل تلك المذاهب واللهجات ليخرج للناس كنزهم اللغوي القديم المخبوء في ثنايا تلك القبائل واللهجات كما وصفه هو، وقد عده لذلك الأفضل والأجود والأفصح.

ولعناية الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح البالغة والمتميِّزة بالتفكير اللغوي عند سيبويه آثرنا أن تكون أعماله اللسانية – وهي مجموعة كتب ومجموعة مقالات وطنية ودولية علميةٍ رصينة– مدوَّنةً لبحثنا، إذ نهدف من خلالها إلى بيان وإثبات مزية سيبويه وسبقه في تصور

العلامة اللساني الجزائري، وإلى بيان قيمة فكره اللغوي في اللسانيات الحديثة ومقامه منها بالنسبة إليه، كما نسعى أيضا إلى إحياء ما اندرس من تراثنا العربي من خلال هذا المؤلَّف الجليل، وإلى إعادة قراءته وفق ما أنتجه التفكير اللساني الحديث.

وقد جعلنا لهذا البحث عنوانا نرجو فيه إلمامًا بالمضمون بقدر ما نرجو للمضمون من الإحاطة بالعنوان، فكان عنوان بحثنا: التفكير اللغوي عند سيبويه من منظور اللسانيات الحديثة – قراءة في أعمال عبد الرحمان الحاج صالح–، وللسائل هنا أن يسأل بأي شيء اعتبرنا عمل سيبويه في كتابه تفكيرًا لغويًّا؟ وبأيّ شيء كذلك بوأناه مقامات العلماء اللسانيين فأطلقنا على عمله تفكيرا لغويًّا؟ فكان مما أجبنا به بالشاهد الحاضر وبالحجة الساطعة بأن التفكير اللغوي عند سيبويه كان تفكيرًا علميًّا مؤسَّسًا، وإنَّ ذلك المصطلح وإن بدا للبعض مصطلحا علميا يفوق قدر سيبويه فإنه قد أطلق منذ العصر الحديث على العديد من المؤسسين الغربيين لنظريات لسانية ماتت قبل أن تولد، ثمَّ إنَّ نفس هذه العبارة التي تألف منها هذا العنوان هي في الواقع مأخوذة من لفظ عبد الرحمان الحاج صالح نفسه، ولم يكن هذا السبب الأخير ليقطع بمفرده باصطلاحنا أو ليقضي بشيء لولا تظافر أسباب أخرى معه لا تقل عنه موضوعيَّة وعلمية، مع عظيم إكبارنا لكلام العلامة اللساني الكبير.

وقد انطلقنا في بحثنا من إشكال رئيس جامع هو: ما مقام التفكير اللغوي عند سيبويه من علم اللغة الحديث في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح؟ وبمعنى آخر هل خلَّف سيبويه من آثار واضحة في علم اللغة الحديث على ما جاء في أعمال عبد الرحمان الحاج صالح؟ وقد انبثقت عنه جملة من الأسئلة الفرعية منها سؤالنا: ما هي أسس التفكير اللغوي عند سيبويه التي تناولها عبد الرحمان الحاج صالح؟ وهل بالإمكان اعتبار جهود سيبويه تفكيرا لسانيا بالأساس؟ وهل يتقاطع فكره اللغوي مع اللسانيات الحديثة في المنهج والمادة وطرائق الدراسة؟

أمَّا عملنا في هذه الرسالة فكان قائما على استقراء وتتبع أفكار سيبويه الواردة في أعمال الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية بالدرجة الأولى، ثم على عقد الموازنة (المقارنة

العلمية) بين ذلك جميعا وبين اللسانيات الحديثة ما أمكنتنا منه أدوات المقاربة اللسانية العلمية وضوابطها، وهنا تتظافر أدوات المنهج المقارن وآلياته لتحقق هذه الغاية، فإذا كانت لسيبويه في نقول الحاج صالح عنه في كتبه من إشارات أو رؤى لسانية علمية جديرة بالذكر في باب الظواهر أو القضايا أو المناهج أو النظريات اللسانية الحديثة أكملنا طريقنا إلى أعمال اللسانيين المحدثين من العرب والغرب، لنضع ما عرضه الحاج صالح لسيبويه وصوَّره في ثوب اليقينية والموضوعية والعلمية في كفة العلم الأولى، واللسانياتِ الحديثةَ في الكفة الثانية، ووازنًا بينهما، ولما كان المنهج الوصفي عماد أغلب الدراسات اللسانية الحديثة وأساسها، جعلناه في هذا البحث أولى المناهج عناية وأكثرها حضورا وإعمالا؛ فلم نأل في ذلك جهدنا؛ لحاجتنا إليه في وصف الظواهر والقضايا اللغوية في الكتاب وفي اللسانيات الحديثة.

ولم يكن من الصواب بمكان أن نعرض أعمال المتقدمين سيبويه وغيره على اللسانيات الحديثة؛ إذ هي أحوج إلى ذلك، ثم إن لكلِّ زمن ظروفه الخاصة التي تميزه عن غيره من العصور، والتي يلزم من خلالها اختيار القراءة والمعيار المناسبين.

وكانت وراء اختيار هذا البحث تحديدا أسباب عدة، وهي:

أسباب ذاتية: تمثلت أساسا في الإعجاب بمنجز سيبويه، وفي الرغبة الملحة في قراءة التراث اللغوي العربي والتعرف على أسراره، من خلال زاوية أقرب وأشبه ما تكون بالبحث والقراءة في نظرة نقدية إيجابية لرائد من أعظم روَّاد التفكير اللساني الحديث عند العرب وهو العلامة اللساني الجزائري عبد الرحمان الحاج صالح؛ لنعلم إلى أي مدى قد وفّق هذا اللساني في أحكامه على سيبويه وكتابه بإزاء التصورات الحديثة، وبمعنى آخر أن قراءتنا لكتاب سيبويه من خلال قراءة الحاج صالح له؛ (أي للكتاب) كقراءة الباحثين لآراء النقاد حول أعمال أهل اللغة والأدب منذ القدم، وبالإضافة إلى أنَّ بيان وجهة نظر هذا العالم تقطع قول كل باحث وخطيب في كثير من المسائل والقضايا اللغوية؛ إذ هي أوفى وأغنى غناء من كل دراسة

وبحث عن سيبويه في العصرين الحديث والحاضر، فإن في اعتماد أعماله العلمية مدوَّنة لبحثنا إحياء له وبعثا لعلمه ونظراته العلمية الوازنة حول التفكير اللغوي عند سيبويه، فكان ذلك حقا واجب الإيفاء لأستاذنا الجزائري الألمعي الذي نذر حياته وكرَّسها لخدمة اللغة العربية، لا انتصارا للذاتية ولكنما إحقاقا لحق مهيض.

ولا ريب أن اعتماد أعماله العلمية وسيطًا لنا في قراءتنا لكتاب سيبويه مما يضفي صفة العلمية على أحكامنا وتصوراتنا حول كتاب سيبويه فيما نزعم، أو على الأقل فيما نسعى إليه، ولا يخفى أن هذه القراءة التي اتبعناها قريبة من دراسة أعمال شراح الكتب، ومن دراسة الآراء النقدية للنقاد حول أعمال الكتاب والشعراء والعلماء... إلخ.

أسباب موضوعية: من أبرزها بيان وجاهة هذا الموضوع ومدى أهميته على مرِّ الزمن، والسعي إلى إثبات علمية كتاب سيبويه بالاستناد إلى ما جاء في مدونة الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح، وإلى بيان فضله على علم اللغة الحديث، فلعل مكمن الجدة في بحثنا قائم في إثارة هذا الموضوع من جهة البحث في علاقته باللسانيات الحديثة، من خلال دراسة مخصصة للكتاب في رسالة مفردة لهذا الصدد فحسب، وقد كان الناس من قبل إنما يعرضون لذلك في الغالب الكثير مرورا في إطار بحثهم في التراث اللغوي العربي عموما، فيعرضون لسيبويه في جملة ما يعرضونه من جهود العلماء، ولو اتفق أن يدرسوها مخصصة لسيبويه وكتابه ففي مقال فحسب.

والحق أن الكتاب مؤلَّفٌ عربيّ علميٌّ جامع مانع صالح لكل زمان، لم تدرَك كل أسراره ولم تحل كل ألغازه؛ فقد حوى من ظواهر اللغة كل جليل ويسير، وليس في قواعد العربية قديم بالٍ، إلا ما اندرس منها فلم يصلنا لبعده عن زمن التأليف الأول، أو لأنه لم يقو في وجود ما هو أفصح منه.

وكان اختيارنا لأعمال عبد الرحمان الحاج صالح مدونة للبحث اختيارا علميا مؤسَّسًا فيما نزعم؛ من أجل أنها أوفى وأقربُ دراسةٍ لعلم سيبويهِ، لعناية صاحبها الواسعة بالتراث اللغوي

العربي عموما، وبفكر سيبويه اللغوي خصوصا كأكثر من عني به الحاج صالح في كتبه من بين جميع اللسانيين العرب والغرب فيما لا يخفى، وفيما أشار إليه الأستاذ اللساني نفسه في كثير من محطات مؤلفاته العلمية، وحين صرح بأن دراسته لقضايا اللغة في كتب التراث تستند في الكثير الغالب على علمي الخليل وسيبويه، وتقوم في هذا الخصوص تحديدا على المقابلة بين نص سيبويه وبين نص أستاذه الخليل.

وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن عناية الحاج صالح بعلم سيبويه كانت بقدر عنايته بعلم الخليل، لولا أنه ردَّ غالب نقول سيبويه عن الخليل إلى أصلها الأول؛ أي إلى الخليل من خلال نسبتها إليه كاصطلاحه:" النظرية الخليلية" وغيره، وذلك هو وجه الحقيقة، فما علم سيبويهُ إلا أثارة من علم الخليل، بيد أنه لولا سيبويه لما عُرف ولما وصل الكثير من علم الخليل، فهو الذي أحيا غالب علم أستاذه وأخلده، فقد أحصى العلماء في الكتاب حوالى 600 قولٍ صريح للخليل، فكيف بالمنسوب إليه فيه ضمنًا، فهذا أيضًا كثير جدا، ولا يفقه هذا الأخير حق الفقه إلا متضلع كالأستاذ العلامة الذي أمضى عمره في تمحيص كتب اللغة بقديمها وحديثها، وجعل علمي الخليل وسيبويه في طليعة اهتمامه بعدل منه وحكمة ووزانة قل نظيرها، وقد أتى في كتبه – وهي عدد لا يستهان به يخول لهذه الكتب أن تكون مدوَّنة لبحثنا– على غالب هذه الأقوال بالدراسة، وهو أعلم بكل جلي وخفي فيها، ومن خلالها استطاع أن يصوغ أو على الأقل أن يُدَعِّم ويُقوّي أفكاره ومعارفه اللسانية الجمَّة التي حصَّلها من أبحاثه الفاحصة في كتب الخليل، ولعل من أهمها النظرية الخليلية ومشروع الذخيرة العربية.

واتبعنا في بحثنا هذا خِطّة عمل تمثلت في مقدمة تعَرِّفُ القارئ بالموضوع وبعناصره الأساسية، تليها ثلاثة فصول، تحت كل فصل منها عدد من المباحث، ينضوي كل مبحث منها على عدد من المطالب، لنجمل خلاصة بحثنا أخيرا في خاتمة حدَّدنا فيها أهم نتائج هذه الدراسة:

فكان الفصل الأول البابَ النظري لهذا البحث، وفيه تناولنا البحث في تراجم العلماء: سيبويه وأشياخه وتلاميذه، وقدَّمنا فيه تعريفا مختصرا لأهم المصطلحات العلمية التي تألف منها هذا العنوان، وآثرنا أن لا نلج باب البحث العملي التطبيقي حتى نُقدِّم صورة مختصرة للحياة اللغوية زمن سيبويه والخليل، حين بلغت حركة الصنعة العلمية وحركة التأليف الغاية وأقامت النهاية، ثم في القرنيين المواليين لذلك القرن لنقف على أوجه الاختلاف بين العصرين، وعلى مظاهر التحول في طبيعة التفكير اللغوي من بعد سيبويه، فنثبت بالبرهان ما نسعى إلى تأكيده من السبق والنقاء من التأثر زمن سيبويه، ومن خلوص تفكيره اللغوي ومرجعيته العربية على ما يراه الحاج صالح ويستميت في الدفاع عنه.

في حين كان عملنا في الفصلين المواليين (الثاني والثالث) تصديقا لما قدمناه في الفصل الأول وتفصيلا لمجمله، بما وجدناه في استقرائنا لأعمال الحاج صالح من مهمات القضايا اللغوية الكثيرة والمتنوعة، وبما تناولناه منها ما استطعنا بالوصف والتحليل معروضا على ما جاء عند اللسانيين المحدثين، وقد لا نبالغ ولا نجاوز ذكر الحقيقة إذا قلنا بأن إثباتها في هذا العمل وبيانها فيه جميعا جهد طويل مضن، ما أحراه أن تُهيَّأ له من بعد هذه المحاولة مناسبات أخرى.

وطبيعي كون كتاب سيبويهِ حافلا ملمًّا بمهمات القضايا اللِّسانيَّة القديمة والحديثة والمعاصرة، بل إنَّ فضله شمل علوم الدِّين أيضا لاستمدادها منه ولحاجتها العظيمة إليه؛ ذلك أنه أهم منجز لغوي عربي على الإطلاق، وأفضل ما أنتجه التفكير اللغوي العربي السليم، فلا مجال لحصر أفضاله على العلوم الإنسانية، ولا لحصر الأعمال والبحوث السابقة فيه، وقد ألفت فيه في هذا الجانب الذي توخينا إعمال النظر فيه مقالات علمية كثيرة اتسمت في عمومها بالجدة والعلمية، أما الكتب والرسائل فلم نرها فيما نعلم قد تفردت بدراسة سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث مخصَّصة لهذا الجانب فحسب، غيرَ مذكرة تخرج واحدةٍ في طور الماستر قريبة من موضوعنا هذا، أتت بعنوان: التفكير اللساني عند سيبويه من

خلال كتاب " منطق العرب في علوم اللسان لعبد الرحمان الحاج صالح" أعدها الطالب نافع بهلول تحت إشراف الأستاذ زهير بوخيار، إلا أنها حديثة عهد بالنسبة إلى هذه الرسالة، قد ألفيناها غير بعيد من هذا الزمن، ثم هي مقتصرة على دراسة كتاب واحد فحسب من كتب العلامة رحمه الله.

فما يَحسن التنبيه إليه أن جانبا من الدراسات اللسانية حول كتاب سيبويهِ لم يستوف حقّه من البحث، متمثِّلٌ في دراسته من جهة عِلاقته باللسانياتِ الحديثة ومنزلته منها وسبقه لها، فإن نحن أدركنا ذلك جاز لنا أن نعدَّ تفكير سيبويه تفكيرا لغويا علميا عالميا. وهنا لنا أن نسأل:

ما قيمة منجزات سيبويه اللغوية بالمقابل للسانيات الحديثة في تصور عبد الرحمان الحاج صالح؟ وما هي أهم القضايا اللسانية الجديرة بالذكر في كتاب سيبويه والتي يمكن أن يعد عمل سيبويه من أجلها تفكيرا لغويًّا علميا، وأن يعدَّ كتابه من أجلها أيضا بحثا علميا بمقام علم اللغة العام بمفهومه وتصوراته وتمظهراته الحاضرة؟ ثم ماهي مصادر استمداد سيبويه في كتابه؟ وما هي منطلقات عبد الرحمان الحاج صالح في أحكامه وتصوراته حول سيبويه؟

وكأي عمل علمي ينشد المعرفة ويروم الحقيقة، فإن جملة من الصعاب اعترضتنا، لا لتصرفنا وتثنينا عن عزمنا، ولكنما لتزيدنا قوة من بعد ضعف، ولتضفي على بحثنا الجلال والجمال، لعل أبرزها صعوبةُ إسقاطِ النظريات اللسانية الحديثة على تراثنا اللغوي العربي ممثلا في كتاب سيبويه، وقد اعتمدنا في هذا العمل زيادة على كتاب سيبويه وعلى مدونة البحث المتمثلة في كتب عبد الرحمان الحاج صالح، مجموعةً من المصادر والمراجع، كان من أهمها كتاب" اللغة بين المعيارية والوصفية" لتمَّام حسَّان، وكتاب" دراسات في علم اللغة" لكمال محمد بشر، وكتاب" البحث اللغوي عند العرب" لأحمد مختار عمر، وكتاب" المنهج الوصفي في كتاب سيبويه" لنوزاد حسن"، إلى جانب عدد من المقالات العلمية الرصينة، وغيرها من المصادر الهامَّة في موضوعنا.

وإنَّا إذ نُصَدِّر بهذه المقدِّمة عملنا لنخفض لأستاذنا العَلم" محمد مباركي" جناح الذّلّ تواضعا وإكبارا واعترافا بالجميل؛ لتوليه الإشراف على هذا البحث بصبر وإحسان زمانا، " كما نشكر لأستاذنا المَثل قَدّور سَلّاط" مواصلته الإشراف عليه وعظيم حرصه ونصحه في سبيل إتمامه على أفضل وجه، شاكرين لهما جهودهما وعظيم بذلهما.

واللهَ نسأل أن يكون هذا العمل موفَّقا، وأن يكون مباركا متقبَّلا نافعًا للمسلمين.

الفصل الأول

تأسيس الدرس اللغوي عند العرب

الفصل الأول: تأسيس الدرس اللغوي عند العرب

تمهيد:

المبحث الأول: التعريف بالمصطلحات اللسانية، وتراجم الأعلام اللغويين: (التفكير اللغوي، اللسانيات، سيبويه، عبد الرحمان الحاج صالح)

المطلب الأول: التفكير اللغوي

المطلب الثاني: اللسانيات

المطلب الثالث: ترجمة سيبويه

المطلب الرابع: ترجمة عبد الرحمان الحاج صالح

المبحث الثاني: الدراسات اللغوية العربية في القرن الأول الهجري (قبل سيبويه)

المطلب الأول: نشأة علم اللغة العربية (إرهاصات الظهور ومرحلة التأسيس)

المطلب الثاني: جمع وتدوين علوم اللغة العربية

المطلب الثالث: دور الخليل في وضع علوم اللغة العربية

المطلب الرابع: جهود مدرستي البصرة والكوفة في دراسة اللغة

المبحث الثالث: الدراسات اللغوية العربية في القرن الثاني الهجري (زمن سيبويه)

المطلب الأول: الخلاف النحوي بين الخليل وسيبويه

المطلب الثاني: حجِّيَّةُ أحرفِ القرآنِ وأوجهِ السُّنَّةِ في الكتاب، وأثرها اللساني في علم اللغة الحديث

المطلب الثالث: دعاوى التأثر في كتاب سيبويه وفي النحو العربي

المطلب الرابع: تعدد المدارس اللغوية بعد كتاب سيبويه

تمهيد:

عُدَّ مبعث الدرس اللساني العربي حدثا علميا هائلا يشبه أن يكون ظاهرة كونية متفردة ومتميزة، حدث غير مجرى التاريخ العربي برمته، بل لقد تعدى أثر ذلك التحول العلمي الكبير العرب ليذهل الإنسانية جمعاء، ويغير من رؤاها ومفاهيمها ويقلب نظمها اللغوية، وإلى اليوم يظل ذلك الصرح العلمي شامخا صامدا مطاولا كل النظريات والمناهج، متفوقا عليها ومتألِّقا، ولقد كان الدرس اللغوي قبل الإسلام عبارة عن ومضات من اللغة، ونتف من ألوان الأدب، لا تعدو أن تكون شعرا فصيحا، ونثرا وجيزا يقال ارتجالا، تحكمهما الفطرة والسليقة، فلا دواوين للغة إلا ما كان من الحفظ، ولا مجالس للعلم النظري إلا ما كان من مجالس الملوك والأشراف ومن أسواق نقد الشعر[1]، كان غالبَ كلام العرب الشعرُ، فما لبث أن أغاثته السماء بوحي إلهي كريم، بَعث نبته وأحيا مواته حتى أينع وآتى أطيب الثمر، إنه القرآن الكريم.

فمذ أن تنزل القرآن الكريم والدرس اللغوي في نماء وارتقاء، مستمِدٌّ فهمَه من الوحيين الشريفين، مستأنسٌ بالسليقة العربية الأصيلة، غيرُ محتاج إلى تقليد أو محاكاة، ثم لم يلبث ذلك الفهم الفطري للغة، وذلك الحس الغريزي لها أن تبلَّد، فقد اجتاحته عوامل الزمن، فاحتيج إلى علاجه والتمست الحاجة إلى إحيائه وصونه، آنذاك لاحت في الأفق بوادرُ درس لساني عربي صرف كان مبعثه وقيامه من البادية العربية، أين حمل علماءٌ أفذاذ من بني جلدتها على أكتافهم أمانة ومَهمَّة إنجاز أعظم عمل لغوي علمي عربي، ثم توالت فتوح العرب في ذلك حتى اختار الله تعالى من أهل دينه من غير العرب من يتولى أمرَ صنعتها ويحملَ رايتها، فكان سيبويهُ هو المشرَّفَ بصنعة علم العربية، فأخرج للناس كتابا في اللغة ما سمعت الدنيا بمثله في علم اللغة، فكان الحال أن اكتمل الدرس فشبَّ حتى شاخ، فقال الناس: ما ترك سيبويه للعلماء من بعده من شيء.

[1]– ينظر: محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تح: عبد الرحمان بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط 1، د ب، 1426هـ– 2005م، 13.

على أنه – كما يقول تمام حسان–: ليس من الصواب أن ننسب إلى أي فرد بعينه ممن عاشوا في هذا العصر أنه أنشأ النحو العربي أو الصرف العربي كلَّه، وإن كتاب سيبويه كان في مادته نتاج ذلك العصر أكثر مما كان نتاج سيبويه، ولكن فضل سيبويه يتضح في بسط المادة وفي التبويب[1]، وهو ما أكده عبد الرحمان الحاج صالح إذ قال وقد بين جهود المتقدمين في التأليف في علم اللغة العربية:" حتى بلغ النهاية في كتاب سيبويه، وما جاء في هذا الكتاب يدل على وجود نشاط علمي سابق واسع وعميق استمر ثمانين سنة بعد انتهاء الفترة الأولى وهي فترة تأسيس النحو"[2]، ويضيف حسان تمام في تعقيب له على قوله الذي قد تقدم قبل:" ظهر الإكمال والجامع لعيسى بن عمر قبل كتاب سيبويه"[3]؛ فما علم سيبويه إلا من علم عيسى بن عمر والخليل بن أحمد والأصمعي ويونس بن حبيب وغيرهم.

[1]– ينظر: تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، ط 4، القاهرة، 1421هـ– 2001م، 160.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2012م، 13.

[3]– تمام حسان، المرجع السابق، 111.

المبحث الأول: التعريف بالمصطلحات اللسانية، وتراجم الأعلام اللغويين (التفكير اللغوي، اللسانيات، سيبويه، عبد الرحمان الحاج صالح)

المطلب الأول: التفكير اللغوي

المطلب الثاني: اللسانيات

المطلب الثالث: ترجمة سيبويه

المطلب الرابع: ترجمة عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الأول: التفكير اللغوي

من أنفس ما قرأناه لعبد الرحمان الحاج صالح في هذا الموضوع في بعض ما كتب اعتقاده بأنَّ" كتابَ سيبويهِ هو أقدمُ كتاب في النَّحو وصل إلينا، وهو أيضا من أعظم ما أنتجه الفكر العربي، وقد جاء كخاتمة لأعمال كبيرة جدًّا قام بها الجيل الثاني من علماء العربية وتلاميذهم وتلاميذ هؤلاء، ولم يتأثَّر أيُّ واحد منهم بأيِّ فنٍ أو أيِّ علم خارجيٍّ كالنحوِ اليوناني أو المنطق الأرسطي، كما يثبته كلُّ ما يحتويه عليه"[1].

وفي هذا القول تتجلى لنا قيم معرفية كثيرة كلها غاية في الأهمية، فإنَّ فيه إجابة شافية لمن يسألُ عن مدى صحة اعتبار كتاب سيبويه كتابا لغويا ومجملُ مباحثه نحوية، ومن ثمَّة عن مدى صحة اعتبارنا سيبويه عالما لغويا والنحو هو الغالب على أعماله، ثم عن مدى صحة اصطلاحنا" التفكير اللغوي عند سيبويه" وغالب أبواب الكتاب صناعة نحوية، ولعل الأهم ها هنا هو زعم عبد الرحمان الحاج صالح بأن جهود سيبويه في علم النحو ترقى إلى مستوى العلمية بمفهومها الحاضر، وأنها عربية خالصة خالية من أي تأثر أو تقليد، وهو ما يمكِّنُنا من اعتبار جهود سيبويه تفكيرًا لغويًّا عربيا حقيقيًّا.

1/التفكير:

أ/ لغة:

جاء في معجم العين قول الخليل:" فَكَّرَ: الفِكرُ: اسم التَّفَكُّرِ، فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ وَتَفَكَّرَ، ورَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ التَّفَكُّرِ، والفِكْرَةُ والفِكْرُ وَاحِدٌ"[2]، وإذا كان الفكر قريبا من التَّفكّر وإن لم يطابقه تماما، فإن التفكير أيضا يأتي بهذا المعنى، ودليل التقارب بين جميع ما سبق اشتراكه في معنى واحد؛ ذلك أن التَّفكُّر وكذا التفكير هما ذلك الفعل القصدي الواعي، وعملية النظر

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع السابق، 96.

[2]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط 2، بيروت– لبنان، د ت، ج: 5، 358.

والتأمل العقلي الهادف، بغرض الإدراك وحصول المعرفة بالشيء، ومما قيل فيه أي في الفكر: أنه يأتي أيضا " بالكَسْر، ويُفْتَح: إِعمالُ النَّظَر هَكَذَا فِي النُّسَخ، وَفِي المُحْكَمِ: إِعمالُ الخاطِر فِي الشَّيْءِ، كالفِكْرَة، والفِكْرَى، بكسْرِهما، الأَخِيرَةُ نَقَلَهَا اللَّيْث، قَالَ: وهِيَ قليلةٌ، ج: أَفْكَارٌ، عَن ابْنِ دُرَيْدٍ"[1]، ولم ترد كلمة التفكير ولا التفكر أيضا في كتاب سيبويه، بخلاف كلمة الفكر التي وردت فيه هي الأخرى مرة واحدة فحسب، وقد وقفنا عليها في قوله:" ألا ترى أنَّك لا تجْمَعُ الفِكْرَ وَلَا العِلْمَ وَلَا النَّظَرَ"[2]، " وقد فكَّر فيه وأفكَر وفكَّر تفكيرا وتفكَّر، وفي استعمال العامَّة افتكر والمعنى تأمَّل، وهو فِكِّير كسِكِّيت وفَيْكَرٌ كصَيقلٌ، كثير الفكر"[3].

ب/ اصطلاحا:

التَّفكُّر والتَّفكير يأتيان بمعنى واحد تقريبا، ويعنيان ذلك النشاط الإنساني العقلي الخالص، وقد جاء في بيان هذه المعاني أنَّ الفِكْر" قوّة مطَرِّقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوّة بحسب نظر العقل، وذلك مختصّ بالإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أَن يحصل له صورة في العقل، ولهذا قيل: تفكَّروا في آلاءِ الله ولا تفكَّروا في الله؛ إذ كان منزَّهاً أَن يوصف بصورة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ آ 8 س الروم، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ آ 185 س الأعراف"[4]، والتفكير يأتي بمعنى التفكُّر تقريبا.

[1]– محمد بن محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د ط، الكويت، 1970م، ج: 13، 345.

[2]– سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1402هـ– 1982م، ج: 3، 619.

[3]– محمد بن محمد مرتضى الزبيدي، المرجع السابق، ج: 13، 345.

[4]– محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د ط، القاهرة، 1412هـ– 1992م، ج: 4، 212.

2/اللغوي: (اللغة)

أ/ لغة:

تشتق كلمة اللغة عند اللغويين وأصحاب المعاجم من الجذر الاشتقاقي الثلاثي المكون من ثلاثة أحرف هجائية أصول في العربية هي: اللام/ل/، والغين/غ/، والألف الممدودة/ا/، لغا، ولا يكاد يخرج معناها عن الكلام، وكذلك وردت في التنزيل الحكيم، فالحق تعالى يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ آ 72 س الفرقان، ويقول أيضا: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥﴾ آ 35 س النبأ، ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ آ 26 س فصلت، ثم لقد وجدناها في المعاجم على هذه الدلالة الملازمة لها، فهذا العلامة ابن منظور يقول في لسانه في إشارة منه إلى معناها:" لغا: اللَّغْوُ واللَّغا السَّقَط وَمَا لَا يُعتدّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ، وَلَا يُحصَل مِنْهُ عَلَى فَائِدَةٍ ولا نَفْعٍ"[1]، وهذا العلامة الأزهري في حديثه عن أصل كلمة اللغة ينقل عن الأصمعي أوّلا حديثه عن معنى اللغو، وقد تقدمه الأصمعي فيما لا يخفى مولدا وفاقه علما باللغة، ثم يثَنّي من بعده بقوله هو فيه فيقول:" وَقَالَ الْأَصْمَعِي: ذَلِك الشَّيْء لَك لَغْواً ولَغاً ولَغْوَى، وَهُوَ الشيءُ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ، قلت: واللُّغةُ من الأسماءِ النَّاقِصَة وأَصْلُها لُغْوَةٌ من لَغَا إِذا تكلَّم"[2].

ويتضح من مجمل هذه التعريفات لكلمة اللغة التي ساقنا إلى تعريفها البحث في تعريف كلمة" اللغوي"، وهي التي تألف منها هذا الحد الذي عقدنا له هذا المطلب كعنصر من عناصر التمهيد لموضوع أطروحتنا، أنَّ كلمة" اللغوي" تعني عند المعجميين من كانت اللغة أبرز اهتماماته، وكان فيها ضليعا مُجيدا حتى أُطلق عليه هذا النسب وعرف به، لغلبته عليه وتفوقه في نفسه، وربما كان عند الناس عالما جامعا لصنوف شتى من العلوم كالسيوطي المتبحر في العلوم، حتى وجدنا أثره الطيب في كل باب، أو كان كابن مالك وابن الحاجب

[1]– محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط 3، بيروت، 1414هـ، ج: 15، 250.

[2]– محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط 1، بيروت، 2001م، ج: 8، 173.

الفقيهين اللغويين، أو كالكسائي وأبي عمرو بن العلاء القارئَين، وربما غلب أحدُ العلوم في نفس العالم أو في سيرته على بقية العلوم حتى كني به أو اتصف، وقد كانوا جميعا جُمَّاعًا لأنواع كثيرة من العلوم، وكانت لعلوم الدين الحظوة الأكبر من اهتمام أولئك الرجال.

غير أن دور السياق في توجيه معاني الكلمات في اللغة لا ينبغي أن يُغفل أو يُهمَل، وفي هذا المكون اللغوي وجدنا للسياق الذي ورد فيه مصطلح اللغوي الأثر البارز في نشوء معنى آخر متعلق بمادة البحث ونوعه لا بالذات الباحثة في اللغة أو بأسلوب تفكيرها، أي أنَّه جانب معنوي، وهو ما يَهمّنا في هذا التعريف وما نبحث عنه، أما محاولة استيعاب كل المعاني الممكنة للقيد الواحد أو المكون الواحد، كتعريف عالم اللغة فليس هذا الموطن بمناسب له، ثم إنَّ التوسع فيه واستقراءه من شأن علم المعاجم.

ومنه نتبين أن دلالة كلمة اللغوي عند المعجميين تشير حتما إلى نوع وأسلوب وطريقة التفكير عند الباحث أو العالم، وهو مما يدعم ويؤكد صحة عبارتنا في عنوان بحثنا إذ جاءت على هذا النحو:" التفكير اللغوي".

ب/ اصطلاحا:

لعلَّ أفضل تعريف لمصطلَح اللُّغة وأكمله وأجمعه، هو تعريف ابن جنيّ لها إذ قال:" أمَّا حدُّها فإنَّها أصواتٌ يُعبِّرُ بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، فهو تعريف مستل من المعنى الأولي أو الطبيعي لها، وهو الذي نجده في كتب الصوتيات وفي كتابه سر صناعة الإعراب بالدرجة الأولى، وكذا في المعاجم، إذ فُسِّرت كلمة لغة على أنها أصوات، فتلك هي مكامن التوفيق وأسراره في هذا التعريف في نظرنا، فكذلك فسرها ابن جني رحمه الله، فكان تعريفه أسلم وأقرب، وقد تُرجم مصطلح اللسان إلى عدة مقابلات وإلى عدة مرادفات، واللغة إحداهن، ولقد أثبت بن جني للغة في هذا التعريف الجامع المانع على وجازته، طبيعتها الفيزيولوجية المادية، وكذا طبيعتها النفسية، ووظيفتها الاجتماعية.

[1]– عثمان بن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، تح: محمد علي النجار، ط 2، مصر، 1952م، ج: 1، 33.

أو هي؛ أي اللغة:" نظام ذهني يتم بموجبه ربط العناصر اللغوية"[1]، أما ديسوسير فقد عرَّفها بقوله:" اللغة جزء محدد من اللسان، مع أنه جزء جوهري – لا شك– اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان، ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما، ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة"[2]، وقد اكتفى جون ليونز في تعريفه لعلم اللغة فيما نحسب بعبارة سوسير في تعريفه للغة، فعرَّفه ليونز بالقول:" يعرف علم اللغة عادة بأنه العلم الذي يختص بمجال اللغة أو أنه الدراسة العلمية للغة"[3]، ولا يخفى ما في هذا التقارب بين تعريف اللغة وبين تعريف علم اللغة من استبطان لما بينهما، ووضوح لقيمة التطابق وقدْرِه فيهما، في دلالة على علمية اللغة الإنسانية وتميزها.

التفكير اللغوي:" التعريف الإجرائي"

من خلال ما تقدَّم وكمحاولة للجمع بين عنصري هذا التركيب نخلص إلى أن معنى التفكير اللغوي هو: النظر والتأمل في اللغة، وإعمال العقل في ظواهرها لفهمها، وتعليمها وتطبيق قوانينها وقواعدها، ويعد مصطلح اللسانيات الذي ظهر في العصر الحديث أقرب المصطلحات إلى هذين المركبين اللغويين؛ لأنه يفيد مفادهما، ويؤدي مؤداهما.

وإن كنَّا قد وجدنا لهذا الحدِّ تعريفا يقرب أن يكون التعريف المناسب له، وهو تعريف كمال محمد بشر إذ يقول:" يطلق التفكير اللغوي بمعناه العام على النظر في أي جانب من جوانب اللغة بأي صورة من الصور، وجوانبُ اللغة – كما هو معروف– كثيرة متعددة، وقد تختلف الآراء أو تتعارض فيها أو في طبيعتها"[4].

[1]– صلاح الدين صالح حسنين، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن، دار العلوم، ط 1، الرياض– المملكة العربية السعودية، 1405هـ– 1984م، 26– 37.

[2]– فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، العدد: 3، بغداد، 1984م، 27.

[3]– جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، ط 1، القاهرة، 1987م، ج: 1، 49.

[4]– كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، ط 9، القاهرة– مصر، 1986م، 11.

ومن الباحثين من عرفه بالقول:" التفكير اللغوي هو عملية عقلية تتضمن استخدام اللغة كوسيلة للتفكير والتعبير عن الأفكار والمفاهيم، يرتبط التفكير اللغوي بالعقل من خلال قدرته على تنظيم الأفكار وتحليل المعلومات وتكوين الفهم"[1].

كما يمكن تعريف التفكير اللغوي بأنه:" أنماط التفكير التي يكتسبها الفرد من البيئة المحيطة به، ويعبر الفرد عن هذه الأفكار من خلال رموز لغوية تسمى (الكلام، أو اللغة)"[2].

ومن خلال هذه التعريفات يتضح بأن التفكير اللغوي هو ثمرة إعمال العقل في ظواهر اللغة، وأن الميزان الفعلي له هو المستوى العلمي الذي يتسم بالدقة واليقينية في أحكامه، وقد نحا التفكيرُ اللساني في العصر الحديث على غرار جميع العلوم الطبيعية هذا المنحى العلمي في دراسته لظواهر اللغة المختلفة، حين نقَلَ علم اللغة عامَّة والغربي خاصَّة من وضع السكون أو السبات المميت في عصور الظلام الوسطى إلى حال جيد من النماء والارتقاء في عصور النور والانفتاح والانعتاق، فأحرز نتائج مبهرة جدا، لم تكن لتتحقق له لولا أن طالته تلك النهضة العلمية الهائلة في العصر الحديث.

المطلب الثاني: اللسانيات

أ/ لغة:

قال ابن منظور:" لسن: اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ؛ قال أعشى باهلة:

إني أتتني لسان لا أسر بها ... من علو، لا عجب منها ولا سخر

[1]– عدنان با حارث، التفكير اللغوي – المقالات التربوية، الموقع: https://www .arb6 .com الشبكة العنكبوتية، 26– 12– 2024م.

[2]– زين سليم، التفكير اللغوي – العقل والكلام – القراءة، https://www .arb6 .com موقع الشبكة العنكبوتية، 13– 01– 2025م.

قال ابن بري: اللسان هنا الرسالة والمقالة، ومثله:

أتتني لسان بني عامر... أحاديثها بعد قول نكر"[1].

فقد أتى مصطلح اللسان عنده على معنيين، فأمَّا الأول فهو أن اللسان أدة النطق، وهو المسؤول عن صدور أكثر الحروف ونشوئها، من خلال صعوده ونزوله في الفم، وأي عاهة به أو عيب ينتج عنه عيب في النطق، فمَثَّله في ذلك كمَثل الشفتين عند النطق بحرفي الباء والميم، وأما الثاني فهو الكلام بحد ذاته، وكأنه نظر إلى مؤداه وإلى دوره فوجده متمثلا في نشوء الأحرف ومن ثمة الكلام فجعل له معنى الكلام مباشرة، غير أن الملفت في تعريف ابن منظور للسان وقد نبه إليه صراحة هو أن قولنا: بأن اللسان يأتي في القرآن الكريم كما عند العرب بمعنى الكلام، ومن ثمة فإن اللسانيات هي العلم الذي يضبط استعمال ذلك الكلام، وإنما جاءت كلمة اللسان بهذين المعنيين من باب الكناية، وقد تعلو الكناية عند العرب على الاستعمال الحقيقي وتغلب عليه للمشابهة الحاصلة بين ركنيها وشدة اتصالهما به، ولكثرة استخدام العرب لذلك الوجه في الكلام، وكثرة مجيء تلك الكلمة على ذلك المعنى.

فمن هنا غلب معنى الكلام في استعمالنا للفظ اللسان على معناه الأول وهو أن اللسان هو جارحة الكلام وأداته، فهو آلة النطق الأولى، ولم يكن ليعدو ذلك المعنى الأول لولا الكناية، وأما مجيء لفظ اللسان في القرآن على وجه الكناية فهو موافقة ومتابعة لأسلوب العرب في استعمالهم للفظ اللسان، ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم، وأنواع التصوير والمشابهة كثيرة جدا فيه، وهي لا تنافي الفصاحة والبلاغة في الكلام، ولا تنافي الصدق فيه.

بل إننا نجد أن المعجم الوسيط يساوي بين اللسان واللهجة أو اللغة ويطابق، على أثر كتب الأوَّلين على الرغم من الفروق الشاسعة بين هذه الكلمات الثلاثة، حيث جاء فيه في

[1]– محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج: 13، 386.

تعريف للهجة بأنها تعني:" اللسانَ أو طرفَه، ولغةَ الإنسانِ التي جُبِل عليها فاعتادها"[1]، فقد جمع المعجم الوسيط في تعريف مصطلح اللسان بين دلالتين مختلفتين، لكن الذي سوغ لنا إرادة معنى الكلام في اللسان هو تقريبا الذي سوغ لنا إرادة معنى واحد لثلاثة مصطلحات هي (اللغة واللسان واللهجة).

ب/ اصطلاحا:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ آ 4 س إبراهيم، قال ابن كثير رحمه الله:" هذا من لطفه تعالى بخلقه، أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن عمر بن ذرٍّ قال: قال مجاهد عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يَبعث الله عزَّ وجلَّ نبيًّا إلَّا بلغة قومه"[2].

فظاهر هذا الحديث يشير إلى أن مراد اللسان ومعناه عند الحق سبحانه هو اللغة، وهو مما يزيدنا استمساكا بالصيغة وبالألفاظ التي أتى عليها عنوان بحثنا" التفكير اللغوي"، ذلك بأنه قريب من قولنا:" التفكير اللساني" على ما تقدم من أن اللسان يعني اللغة في القرآن ثم في كلام العرب ثم في أحدث معاجم العربية وأكثرها استحسانا من بين معاجم العصر، والقرءان أولى بالاتباع لذلك كان جائزا أن نعد تفكير سيبويه تفكيرا لسانيا علميا كما هو الحال في اللسانيات الحديثة، فقولنا:" التفكير اللساني عند سيبويه" اتباع ومتابعة للقرءان الكريم أوَّلا لا للسانيات الحديثة، للذي قد ينفي عن سيبويه صفة العلمية في تفكيره اللساني، وهو ما يعني أن قولنا:" اللغوي" يشبه قولنا:" اللساني"، ثم إن لرفض ما في هذه الكلمة من الدلالة على العلمية ولردِّ كل ذلك مراميَه وأبعاده الوخيمة، إذ هو سلب لصفة العلمية من تفكير أئمة لغتنا الجليلة وعلمهم.

ولم نشأ أن نعدل عن كلمة عربية تراثية صحيحة فصيحة متواترة؛ إذ النسبةُ في تركيبها عربية قديمة نعني بذلك كلمة" اللغوي"، لنأخذ بكلمة جديدة – على قدم ما فيها من بعض

[1]– مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، تح: إبراهيم مصطفى وآخرين، دار الدعوة، د ط، القاهرة، د ت، ج: 2، 841.

[2]– إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1419هـ، ج: 4، 410.

تركيبها ومن معناها الأول والنسبة فيها حادثة–، مع ارتضائنا لها، لكن اختيارنا كلمة" اللغوي" أتى أيضا ليجاري سلفنا في كلامهم ومعهودهم، فهم أهل لأن نجاريهم.

وإلى نحو ما ذهب إليه من تقدم لدينا من اللغويين والمعجميين في بيان معنى اللسان ومن ثمة اللسانيات في مسعانا لبيان معناها بالدرجة الأولى قال صاحب التحرير والتنوير في تقدير معنى اللسان في الآية الكريمة:" اللسانُ اللغةُ وما به التخاطب، أُطلقَ عليها اللسان من إطلاق اسم المحل على الحال به، مثل: سال الوادي"[1].

إنَّ من أهمِّ ما نُقل فيه الإجماع هو أنَّ اللسانيات هي علم دراسة اللغة، أو هي الدراسة العلمية للغة، وقد اتفقت على ذلك التعريفات، وتواترت على أن" اللسانيات (la linguistique) هي العلم الذي يدرس اللغات الطبيعية الإنسانية في ذاتها ولذاتها، مكتوبة ومنطوقة كانت، أم منطوقة فقط، مع إعطاء الأسبقية لهذه الأخيرة؛ لأنها مادة خام تساعد أكثر على التحقق من مدى فاعلية أدوات بحث اللساني المعاصر"[2].

كما تعرف اللسانيات بأنها:" العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعايَنة الوقائع بعيداً عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية"[3]، أو هي:" الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري من خلال الألسنة الخاصة بكل مجتمَع، فهي دراسة للسان البشري، تتميَّز بالعلمية والموضوعية"[4].

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، د ط، تونس، 1984م، ج: 3، 186.

[2]– عبد العزيز حليلي، اللسانيات العامة واللسانيات العربية، دار النجاح الجديدة، ط 1، الدار البيضاء، 1991م، 11.

[3]– أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط 3، دمشق، 1429هـ– 2008م، 15.

[4]– أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ط 2، الإمارات العربية المتحدة، 1434هـ– 2013م، 24.

و" يقوم هذا العلم على أساس عدم تفضيل لغة ما على لغة أخرى، ويدرس لغات كل المجتمعات الإنسانية، ويهتم في دراسته بتركيب كل لغة وبكيفية استخدامها من قبل أفراد المجتمع الذين يتكلمون اللغة موضع الدراسة، وبعلاقة هذه اللغة بغيرها من اللغات"[1].

المطلب الثالث: ترجمة سيبويه

أ/ كنيته ونسبته:

" أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، الملقب سيبويه، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل: آل الربيع بن زياد الحارثي"[2]، هذا عن اسمه وكنيته ومن نشأ في جوارهم، وأمَّا عن موطنه الذي ولد فيه والمواطن التي تقلب فيها في تلقيه لعلم اللغة فهو سيبويه" الفارسي ثم البصري، وقد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر وألَّف فيها كتابه الكبير الذي لا يدرك شأوه فيه"[3]، فجميع من أتى بعد سيبويه تَبَعٌ له في علم العربية، بل إنَّ علو كعبه في علم العربية جعله خاتمة أهل الصنعة في العربية، وحُجَّة العرب، فعدَّ" إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه"[4] على حدِّ زعمِ الإمام الزَّركلي.

فلقد فاق سيبويه أقرانه وتأتى له ما لم يتأت لأشياخه بتأليفه الكتاب، فكيف بمن أتى بعده،" وسِيْبَوَيْه بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الباء الموحدة والواو وسكون الياء الثانية وبعدها هاء ساكنة، ولا يقال بالتاء ألبتة، وهو لقب فارسي معناه بالعربية رائحة التفاح؛ هكذا يَضبط أهل العربية هذا الاسم ونظائره مثل نفطويه وعمرويه وغيرهما"[5].

---

[1]– صلاح الدين صالح حسنين، مرجع سابق، 26.

[2]– شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، ط 1، بيروت، 1994م، ج: 3، 463.

[3]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، د ب، 1405هـ– 1985م، ج: 1، 351.

[4]– خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، د ب، 2002م، ج: 5، 81.

[5]– شمس الدين أحمد بن خلكان، مرجع سابق، ج: 3، 465.

وقيل في مولد سيبويه:" أنه كان سنة ثمانية وأربعين ومائة، وأنه توفي سنة ثمانين ومائة للهجرة على الأظهر، رحمه الله رحمة واسعة"[1]، ولعل هذا الرأي هو الأقرب إلى الصحة من الأول، و" يُقَالُ: إِنّ سيبويه لمَّا احتَضَر وَضع رأسَه فِي حجْرِ أخيه، فأغمي عليه، فدمعت عينُ أخيه، فأفاق فرآه يَبكي فقال:

أُخَيَّيْنِ كنّا فَرَّق الدَّهرُ بَينَنا ... إلى الغاية القصوى فمن يَأْمَن الدّهرَا؟

وعن الأصمعيّ قال: قَرَأت على قبر سيبويهِ بشيرازَ هذه الأبيات، وهي لسليمان بن يزيد العَدَويّ:

ذهب الأحبَّة بَعدَ طُول تَزاور ... ونأى المَزَار فأَسلموك، وأَقشعوا

تركوك أوْحش ما تكون بقَفرة ... لم يؤْنسوك، وكربةً لم يَدفَعوا

قُضِي القضاءُ، وصرتَ صاحبَ حفرةٍ ... عنْكَ الأحبةُ أعْرَضوا وتَصدّعوا"[2].

ب/ أساتذته:

وضع سيبويه على غرار علماء اللغة العربية لجمع اللغة وللتصدي للتأليف فيها شروطا رصينة ومُحْكمة، كان من أهمها السماع عن العرب الفصحاء ومشافهتهم لأخذ اللغة الفصيحة منهم؛ لأنهم أهل الفصاحة والسلامة اللغوية الحقيقية، وقد عقد الحاج صالح أبوابا شتى في كتبه في هذا الغرض، وتناول السماع اللغوي العلمي عند العرب ومثل له بسماعات سيبويه بأوسع بيان في العصر الحديث حتى لكأنه قد أعدَّ تلك الكتب كاملة لهذا الغرض اللساني السامي.

[1]– ينظر: عبد الفتاح المرصفي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، دار طيبة، ط 2، المدينة المنورة، د ت، ج: 2، 21.

[2]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط 1، د ب، 2003م، ج: 4، 636.

لذلك نَعُدُّ سماع سيبويه وتلقيَه عن الأعراب من أهم مصادره العلمية وأفضلها، فربَّ أعرابي أشعث أغبر لا يحفظ من قوانين العربية إلا ما تلقاه وورثه بالسليقة يغني كلامه عن كلام كل النحاة خير من محضرة ومقرأة، ومن التلقي عن حشد من الشيوخ والعلماء، وقد ثبت لسيبويه ولغيره من علماء العربية أنهم لازموا الأعراب باللُّبث فيهم وطول المجالسة وهو ممّا يُشترط في التلقي عنهم، وقد يثبت للإنسان التلقي ولو بأقل اللقيا، فإن الشرط أن تثبت، وقد ثبتت الصحبة لمن رأى النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة ولبث فيه زمنا يسيرا مؤمنا به، ومات على ذلك، فكذلك الحال في طلب العلم.

وعاصر سيبويهُ أساتذة كثرا أجلاء في اللغة وغيرها كحمَّادَ بنَ سلمة فاستملى عليه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم زمانا كما يرويه أهل التراجم والسير، وأخذ النحو عن بعض من علماء العربية المبرَّزين في زمانه مثل عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي الخطاب الأخفش الكبير[1]، وقيل: إنّه" كان يَستملُّ على حمَّاد بن سلمة، فقال له حمَّاد يوماً:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحدٌ من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبَا الدرداء"، فقال سيبويه: ليس أبُو الدرداء، فقال حمَّاد: لحنت يا سيبويه، فقال سيبويه: لا جرم لأطلبنَّ علما لا تُلَحِّنُني فيه أبداً، فطلب النحو ولزم الخليل"[2].

واستكمل سيبويه شرف التعلم بأن" روى عن أبي عمرو بن العلاء"[3]، الذي يُعدُّ بحق واحدا من أعظم قامات اللغة والقراءات السبع الصحيحة وهاماتها، وقال الإمام ابن قتيبة الدينوري في بيان شيء من صفات سيبويه الخَلْقيّة:" حدثني أبو حاتم قال: حدثني أبو زيد

[1]– ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 8، 351.

[2]– محمد بن عمران المرزباني، نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، اختصار: يوسف بن أحمد اليغموري، تح: رودلف زلهايم، دار: فرانتس شتاينر بغيسبادن، د ط، ألمانيا، 1384هـ– 1964م، ج: 1، 95.

[3]– سعد الملك علي بن ماكولا، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت– لبنان، 1411هـ– 1990م، ج: 4، 420.

قال: كان سيبويه غلاما يأتي مجلسي، وله ذؤابتان، قال: وإذا سمعتَه يقول: أخبرني من أثق بعربيته، فإنما يريدني"[1].

حمّاد بن سلمة:

كان لحماد بن سلمة الفضل الأكبر في تنشئة سيبويه التنشئة العلمية القويمة، فقد عُدَّ في ما جاء من الروايات أوَّل معلميه، فعليه تلقى سيبويه الحديث وتعلم علمه وفقهه، وعنده اهتدى ووُفِّق إلى معرفة ما يُصلِحه وما يحسن به تعلمه من العلوم، نعني بذلك علم العربية، ومما جاء في ترجمته أنَّه" أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار الرَّبَعي، مولى ربيعة بن مالك، ويقال: مولى تميم، وهو ابن أخت حُميد الطويل، من أعلام البصريين وأئمتهم، كثيرُ الحديث، واسعُ الرواية، مشهورٌ بالسُّنة والعِبَادَة، مات سنة سبع وستين ومئة، سمع ثابتا وحميدا الطويل وقتادة، روى عنه يحيى بن سعيد، وابن المبارك ووكيع"[2]، فقد تتلمذ على يديه جمع طيب من علماء الحديث، وكان نفعه للسنة عظيما، و" كان رحمه الله من أئمة السنة نهجا ببث أحاديث الصفات، رأسا في العلم والعمل"[3].

الخليل بن أحمد الفراهيدي:

يُعدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي أهمَّ وأبرز المشايخ الذين تلقى عنهم سيبويه علم اللغة، وأكثرهم تأثيرًا في شخصيته العلمية، وليس من المبالغة عدُّه السبب في إلهام سيبويه ونبوغه؛ لأنَّ من أعظم شروط التوفيق والنبوغ للمتعلم أن يكون له أستاذ كفء ومقتدر، فكان الخليل بالنسبة لسيبويه ذلك المعلِّم الألمعيَّ الجامعَ والملمَّ لعلوم اللغة والحساب، مع علمه الواسع بالقراءات القرءانية، وقد جاءت ترجمته في غالب كتب الرجال والتاريخ والتراجم، فمما قيل

[1]– عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، القاهرة، 1992م، 544.

[2]– مجد الدين بن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تح: بشير عيون، دار الفكر، ط 1، د ب، 1392هـ– 1972م، ج: 12، 318.

[3]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، تح: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، ط 1، الرياض، 1416هـ– 1995م، 141.

فيه وفي كنيته ونسبه وعلمه أنه" أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ويقال: الفرهودي الأزدي اليحمدي كان إماما في علم النحو، وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً آخر وسماه الخبب، وقيل: إن الخليل دعا بمكة أن يُرزق علماً لم يسبقه أحد إليه ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجه ففُتِح عليه بعلم العروض، وله معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض، فإنهما متقاربان في المأخذ"[1].

وممَّا جاء في ترجمته:" الباهلي، أبو عبد الرّحمان البصْريّ النحوي صاحب العروض وصاحب كتاب العين في اللغة، رَوى عن أيوب السختياني وعاصم الأحول وعثمان بن حاضر والعوام بن حوشب وغالب القطان، رَوى عنه أيوب بن المتوكل البصْريّ القارئ وبدل بن المحبر وحماد بن يزيد وداود بن المحبر وسيبويه"[2]، وممن روى عنه أيضا على غرار هؤلاء" الأصمعيُّ وَالنَّضْرُ بن شُمَيْلٍ وهارون بن موسى النّحويُّ ووهْب بن جرير، وعلي بن نصر الجهضمي"[3]، و" أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء"[4]، و" يقال: إن والده هو أول من تسمَّى" بأحمد" بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]، ولقد" ذُكِر عن شيوخ البصرة أن ابن المقفع اجتمع مع الخليل بن أحمد، فتذاكرا ليلة تامّة، فلما افترقا سئل ابن المقفع عن الخليل، فقال: رأيتُ رجلًا عقلُه أكثرُ من علمِه، وقيل للخليل: كيف رأيتَ ابن المقفع؟ فقال: رأيتُ رجلًا عِلمُه أكثرُ من عقلِه"[6].

---

[1]– شمس الدين أحمد بن خلكان، مرجع سابق، ج: 2، 244.

[2]– يوسف جمال الدين بن الزكي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1400هـ– 1980م، ج: 8، 326.

[3]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج: 4، 355.

[4]– أبو المحاسن التنوخي المعري، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 2، القاهرة، 1412هـ– 1992م، 123.

[5]– عبد الفتاح المرصفي، مرجع سابق، 64.

[6]– محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 2، د ب، د ت، 49.

أبو عمرو بن العلاء:

هو العالم الألمعي الفذُّ الجامع لصنوف العلوم والمعارف، وقد جاء في ترجمته في كتب التراجم والسير أنه" ابن عمار بن العريان، واسمه عمرو بن عبد الله بن الحصين البصري أحد الأئمة السبعة من القراء، اختلف في اسمه، فقيل: زبَّان بزاي بعدها باء مشددة وقيل: يحيى، وقيل: العريان، وقيل: جبر، وقيل: اسمه وكنيته، حدث عن ابن سيرين بن عبيدة عن علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم"[1].

وأما عن مولده فالصحيح فيه أنه كان" في سنة سبعين في أيام عبد الملك بن مروان ونشأ بالبصرة، وقرأ على مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وشيبة بن نصاح، ويحيى بن يعمر، وابن كثير، وكان مقدما في دهره، عالما بالقراءة، عارفا بوجوهها، أعلم الناس بأمور العرب مع صدق وصحة سماع[2]، وقال أبو بكر بن مجاهد رحمه الله يَصفُه:" كان مقَدَّما في عصره عالما بالقراءة ووجوهها قدوة في العلم باللغة إمام الناس في العربية وكان مع علمه باللغة وفقهه بالعربية متمسكا بالآثار لا يكاد يخالِف في اختياره ما جاء عن الأئمة قبله متواضعا في علمه، قرأ على أهل الحجاز وسلك في القراءة طريقهم"[3]، ومما روي عن رحلته في طلب العلم ومسيرته العلمية فيه أنه" كان قد كتب عن العرب الفصحاء ما ملأ به بيتا إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرى فأحرقها كلها، فلما رجع من بعد إلى علمه لم يكن عنده إلا ما قد

[1]– محمد بن مكرم بن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تح: روحية النحاس وآخران، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ط 1، دمشق– سوريا، 1402هـ– 1984م، ج: 29، 342.

[2]– جمال الدين عبد الرحمان الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت– لبنان، 1412هـ– 1992م، ج: 8، 182.

[3]– ابن مجاهد البغدادي، السبعة في القراءات، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط 2، مصر، 1400هـ، 81.

حفظه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية"[1]، وقيل في وفاته: أنها كانت" سنة ست وأربعين ومائة بالبصرة"[2].

الأخفش الكبير:

أبو الخطاب البصري، لُقِّب بشيخ العربية، ويقال: أنَّ اسمه عبد الحميد بن عبد المجيد، تخرج به سيبويه، وحمل عنه النحو، ولولا سيبويه لما اشتهر، ونقل عنه: عيسى بن عمر النحوي، وأخذَ عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى، وغيرهما، وله أشياء غريبة ينفرد بنقلها عن العرب، ولم أقع له بوفاة، – يقول الإمام الذهبي–[3].

ولقد" لقي الأعراب وأخذ عنهم، وهو أول من فسَّر الشعر تحت كل بيت، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها"[4] جملة واحدة.

يونس بن حبيب:

" هو أبو عبد الرحمان الضبي، مولًى لهم، وكان من أهل جَبُّل، أخذ عن أبي عمرو، وكان النحو أغلب عليه، قال ابن عائشة: قال يونس بن حبيب: أول مَن تعلمتُ منه النحو حمَّاد بن سلمة"[5]، كما" صحب أبا عمرو بن العلاء، وسمع من العرب، وقد روى عن العرب، وروى عنه سيبويهُ فأكثر، وله مذهب في النحو تفرد به، وقد سمع منه الكسائي والفراء، وكانت حلقته بالبصرة يتباهى بها أهل العلم وأهل الأدب وفصحاء العرب والبادية، توفي في هذه السنة وله ثمان وتسعون سنة"[6]، ويقال: أنه لما مات سيبويه قيل ليونس: إن سيبويه ألّف

---

[1]– عمرو بن بحر" الجاحظ"، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط 7، القاهرة– مصر، 1418هـ– 1998م، ج: 2، 261.

[2]– محمد بن حبان الدارمي، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، تح: مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، المنصورة، 1411هـ– 1991م، 242.

[3]– ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 7، 25.

[4]– خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج: 7، 323.

[5]– محمد بن الحسن الزبيدي، مرجع سابق، 51.

[6]– جمال الدين عبد الرحمان الجوزي، مرجع سابق، 91.

كتابا من ألف ورقة في علم الخليل، فعجب يونس لذلك وقال: ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله؟ جيئوني بكتابه، فلما نظر في كتابه ورأى ما حكى وعلم صدق ما رواه عنه وما حكاه قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه، كما صدق فيما حَكى عنّي، و" روى ابن عائشة قال: قال يونس بن حبيب: أول مَن تعلمتُ منه النحو: حماد بن سلمة"[1]، و"مات سنة اثنتين وثمانين ومائة، وهو ابن ثمان وثمانين سنة"[2].

عيسى بن عمر:

يعد أحد أهم العلماء الذين تخرَّج بهم سيبويه، وقيل في نسبته أنه:" كان مولى لخالد بن الوليد، لكنَّه نزل في ثقيف فنسب إليهم، وكان عالماً بالنحو والعربية والقراءة والنسب، وقد جرت له قصة يفسِّر بها أسماء القبائل"[3]، ومما جاء في كتب التراجم عن سيرته العلمية أنه" كانت بينه وبين أبي عمرو بن العلاء صحبة، ولهما مسائل ومجالس، وأخذ القراءة عرضاً عن عبد الله بن أبي إسحاق، وروى الحروف عن عبد الله بن كثير وابن محيصن، وسمع الحسن البصري، وله اختيار في القراءة على قياس العربية، وروى القراءات عنه أحمد بن موسى اللؤلؤي وهارون بن موسى النحوي والأصمعي والخليل بن أحمد وسهل بن يوسف وعبيد بن عقيل، وأخذ سيبويه عنه النحو"[4]، فكان جديرا بسيبويه أن يأخذ عن عالم جليل كابن عمر النحو واللغة جميعا، وقيل في وفاته: إنها كانت سنة تسع وأربعين ومائة[5]، وروي عن المبرد أنه قال:" أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي، ثم أخذ النحو عن أبي الأسود عنبسة بن معدان المهري الذي يقال له: عنبسة الفيل، ثم أخذه عن عنبسة ميمون الأقرن، ثم أخذه عن ميمون بن أبي إسحاق الحضرمي ثم أخذه عن ابن أبي

[1]– محمد بن الحسن الزبيدي، مرجع سابق، 51.

[2]– عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، 54.

[3]– بكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النسابين، دار الرشد، ط 1، الرياض، 1407هـ– 1987م، 33.

[4]– شمس الدين أحمد بن خلكان، مرجع سابق، ج: 3، 486.

[5]– ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 3، 949.

إسحاق عيسى بنُ عمر ثم أخذه عنه الخليل بن أحمد ثم أخذه عن الخليل بن أحمد سيبويه، ثم أخذه عن سيبويه الأخفش واسمه سعيد بن مسعدة"[1].

ج/ تلاميذه:

إنَّ من أهم سمات العالم المصلح أن يكون له أتباع وأن يكون لعلمه رواد، كما لا بدَّ من أن يترك ويوَرِّث أثرا علميا نافعا ككتاب يهتدي به الناس، أو صنيعة ينتفعون بها، وليس أنفع للإنسان بعد وفاته من علم يورِّثُه، وقد كان من بركات سيبويه وأفضاله وعلى غير عادة علماء زمانه إلا قليلا منهم أنه جمع بين الأمرين، بين التأليف، وبين ترك الأتباع والتلاميذ النجباء النبلاء الذين تحمَّلوا عنه علمه وبلَّغوه من بعده، فكان من أبرز تلاميذ سيبويه الذين قد اشتهروا وطار ذكرهم:

قطرب:

هو" محمد بن مستنير النّحْويّ اللّغويّ البصريّ مولى سلم بن زياد المعروف بقطرب، أخذ الأدب عن سِيبَوَيهِ وعن جماعة من العلماء البصريين وكان حريصا على الاشتغال، كان يبكر إلى سيبويه قبل حضور التلاميذ إليه، فقال له: ما أنت إلّا قطرب ليل فبقي عَلَمًا عليه، والقطرب دويبة لا تزال تَدِبُّ ولا تَفْتر وكان من أئمّة عصره"[2]، " وكان قطرب يعلم ولد أبي دلف القاسم بن عيسى، وكان ابنه الحسين بن قطرب يؤدبهم فيما بعد، توفي قطرب سنة ست ومائتين، وله من الكتب المصنفة كتاب معاني القرآن، كتاب القوافي، كتاب النوادر، كتاب الأزمنة، كتاب الفرق، كتاب الأصوات، كتاب المثلث، كتاب الصفات، كتاب العلل في النحو، كتاب الأضداد، كتاب خلق الفرس، كتاب خلق الإنسان، كتاب غريب الآثار، كتاب

[1]– شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم الأدباء – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب–، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت– لبنان، 1414هـ– 1993م، ج: 5، 2141.

[2]– صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، د ط، بيروت، 1420هـ– 2000م، ج: 5، 14.

الرد على الملحدين في متشابه القرآن، كتاب الهمز، كتاب فعل وافعل، كتاب إعراب القرآن"[1].

سعيد بن مسعدة:

وكنيته (أبو الحسن الأخفش الأوسط):" من أهل بلخ، وكان أجلع وهو الذي لا تنضم شفتاه ولا تنطبق على أسنانه، والأخفش: الصغير العينين مع سوء بصرهما، سكن البصرة، وكان أسن من سيبويه، وكان معتزليا، يقول: ما وضع سيبويه في كتابه شيئا إلا وعرضه علي، وكان يرى أنه أعلم به مني، وأنا اليوم أعلم به منه"[2]، عاصر الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعمَّر دهرا بعد سيبويه، وأخذ عن جمع من العلماء، كما أخذ عن: الخليل، ولزم سيبويه حتى برع، وقيل إنه: كان أعلم الناس بالكلام وأحذقهم بالجدل، قلت: أخذ عنه المازني وأبو حاتم وسلمة وطائفة[3].

ويبدو أنه قد فاق أقرانه علما بحرصه وبذله، حتى روي بأنه قد كان" أحذق أصحاب سيبويه، وقد لقي من لقيه، وليس لكتابه طريق إلا من جهته، وذلك أنَّ كتاب سيبويه لا يعلم أن أحدا قرأه على سيبويه، ولا قرأه عليه سيبويه، ولكنه لما مات سيبويه قرئ الكتاب على أبي الحسن الأخفش، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر الجرمي، وأبو عثمان المازني، وغيرهما، وكان أسن من سيبويه، وصحب الخليل أولا، وكانا جميعا يطلبان، فجاء الأخفش بعد أن برع إلى سيبويه يناظره، فقال له الأخفش: إنما ناظرتك لأستفيد لا لغيره، فقال: تراني أشك في هذا!!"[4]، " وقد حدّث عن هشام بن عُرْوَة الْكَلْبِيّ وغيره وروى عنه أبو حاتم سهل بن محمّد السجِسْتاني"[5]، وتوفي إلى رحمة ربه" سنة عشر ومائتين وقيل بعدها"[1].

---

[1]– محمد بن النديم، الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط 2، بيروت– لبنان، 1417هـ– 1978م، 76.

[2]– محمد صديق خان، أبجد العلوم، دار بن حزم، ط 1، د ب، 1423هـ– 2002م، 587.

[3]– ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 10، 207م.

[4]– المفضل بن محمد التنوخي، مرجع سابق، 86.

[5]– صلاح الدين خليل الصفدي، مرجع سابق، ج: 15، 161.

الزِّياديّ إبراهيم بن سفيان:

روي أنه من صدقه في الطلب وشغفه بالعلم وتواضعه في طلبه وكان قد عاصر أساتذة سيبويه أنه كان يتتلمذ على مشايخ سيبويه، وعلى سيبويه أيضا، لما علمه من نبوغه وتفوقه، فهي الشهادة لسيبويه من الزيادي بالمقام الذهبي وبعلو كعبه وبلوغه منزلة معلميه، وهو" تلميذ سيبويه والأصمعي"[2] معا، وجاء في ترجمته في بيان اسمه أنه:" إبراهيم بن سفيان الزّيادي أبو إسحاق، من أحفاد زياد بن أبيه، أديبٌ، راوية، كان يشبَّه بالأصمعي في معرفته للشعر ومعانيه، له شعر"[3]، " كان نحوياً لغوياً راويةً، قرأ كتاب سيبَويه على سيبَويه رحمه الله ولم يُتمَّه، وروى عن الأصمعي وأبي عبَيدة ونظرائهم، وكان شاعرا، وكان يُشَبَّه بالأصمعي في معرفة الشعر ومعانيه، وكان فيه دعابة ومزاح، ومن تصانيفه كتاب النقط والشكل، كتاب الْأَمْثَال، كتاب تنميق الْأخبار، كتاب أَسمَاء الرِّيَاح والأمطار، شرح نكت كتاب سيبويه، وتوفِّي سنة تسع وأربعين ومائتين في أيَّام المستعين"[4].

الأخفش الأصغر:

مما جاء في بيان ترجمته أنه" علي بن سليمان بن الفضل أبو المحاسن، المعروف بالأخفش الأصغر، نحوي من العلماء من أهل بغداد، أقام بمصر سنة 287هـ- 300هـ، وخرج إلى حلب ثم عاد إلى بغداد، وتوفي بها وهو ابن 80 سنة، له تصانيف، منها شرح سيبويه والأنواء والمهذب، وكان ابن الرومي مكثرا من هجوه"[5]، " روى عنه عليّ بن هارون القرميسينيّ، والمعافَى الجريريّ، وأبو عبد الله المَرْزُبانيّ، وكان ثقة، سافر قبل الثلاث مائة

---

[1]- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت- لبنان، 1418هـ- 1998م، ج: 2، 386.

[2]- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مختلف الحديث، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراق، ط 2، د ب، 1419هـ- 1999م، 24.

[3]- خير الدين الزركلي، مرجع سابق، 40.

[4]- ينظر: صلاح الدين خليل الصفدي، مرجع سابق، ج: 5، 255.

[5]- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج: 4، 291.

إلى مصر وحلب، وحصل له إضاقة في آخر أيّامه، حتّى قيل إنّه لازم أكل السلجم، فقبض عليه قلبه فمات، ولم يكن متسعًا في الأدب"[1].

المطلب الرابع: ترجمة عبد الرحمان الحاج صالح:

عاش العلامة اللساني الجزائري عبد الرحمان الحاج حقبتين من الزمن متمايزتين كل التمايز، فكان لذلك أثره البارز على تحصيله العلمي، وعلى تكوين شخصيته العلمية الفذَّة، فقد أدرك عالم اللسانيات الكبير بأن طريقه في طلب العلم أسلوب من أساليب الكفاح الهامة، فقد عاصر فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وولد قبل الثورة بنحو 27 عامًا تقريبا، وعاش بعد الاستقلال عن المستدمر الفرنسي قريبا من 60 عاما، فكان مولده" بمدينة وهران سنة 1927م، درس في مصر، وفي بوردو بباريس، وتحصل على التبريز من باريس، وعلى دكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة باريس السوربون، كان أستاذا بجامعة الرباط سنة 1961م إلى سنة 1962م، وبجامعة الجزائر بعد ذلك"[2].

" تقدم إلى الكُتَّاب كما يتقدم سائر طلاب العلم لحفظ القرآن في مسقط رأسه وهران، وتعلم بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم رحل إلى مصر حيث الأزهر الشريف، وهناك كان على موعد مع القدر؛ إذ لفت انتباهه عبقريّ وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي، فعكف على دراسة آرائه، وهنالك تبلورت فكرة دراسة علمه لديه فعكف على الرياضيات دراسة وتحصيلا لكي يتهيأ له دراسة علم الخليل بن أحمد، فكان له ذلك"[3].

وممَّا أسهم في نبوغ الحاج صالح العلميّ وألمعيته اهتمامُه البالغ باللُّغات وإتقانه لبعض منها، وقد كان يُشجِّع الباحثين والمتخصصين في علم اللغة العربية على تعلم اللغات

[1]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج: 7، 295.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2007م، صفحة الغلاف.

[3]– التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، د ط، الجزائر، 1436هـ-2015م، 85.

الأجنبية، ويَعُدُّ تعلُّمها ضرورة مُلحَّة لا يمكن إغفالها، فكان" يحسن لغات عدَّة ما مكَّنه أن يكون عضوا في كثير من الهيئات الثقافيَّة الأجنبيَّة والألمانيَّة"[1].

وإلى جانب نبوغه العلمي كان له اهتمام عظيم بإنماء اللغة العربية والنهوض بها، فكان علامة مصلحا ورساليا بكل ما في الكلمة من المعاني السامية، وقد لا نبالغ أو نجازف إذا قلنا: بأنَّه رائد العلوم اللسانيَّة في بلاده وفي العالم العربيّ عموما، وقد تقلَّد وظائف علميَّة سامية في حياته، فكان" مديرا لمعهد العلوم اللسانية بالجزائر ثم مديرا لمركز البحوث العلمية لترقية اللغة العربية، وعيَّنه الرَّئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 2000م، وهو عضو في المجامع الآتية: دمشق وبغداد وعمان والقاهرة، وقد كان المسؤولَ على مشروع الذخيرة العربية الدولي"[2].

وقد لا نبالغ أيضا إذا اعتبرنا العلامة الحاج صالح أفضل علماء اللسانيات في عصرنا فهما وخدمة وإحياء لعلم الخليل بن أحمد، وذلك بما أخرجه للناس من علم الخليل وبثَّه فيهم من خلال دراساته وأبحاثه الفاحصة لآثاره العلمية التي تركها للخزانة اللغوية العربية، ثم من خلال كتاب سيبويه، وعامَّةُ بحوث الحاج صالح الخليلية من آثار الخليل ومن كتاب سيبويه؛ لأنَّ عامَّةَ الكتاب لسيبويه منسوب إلى الخليل، فإن لم يكن صراحة فضمنا، وقد صرَّح الحاجّ صالح فيما لا يخفى بنسبة أجزاء كبيرة من كلامه عن النظرية الخليلية إلى الكتاب لسيبويه، أعني إلى أقوال الخليل وأفكاره التي وردت في كتاب سيبويه في ما أسماه عبد الرحمان الحاج صالح صادقا محقا النظرية الخليلية، وهنا يتجلى بعدُ علم سيبويه اللغوي وتتجلى اللسانيات الحقَّة في فكره اللغوي من خلال الكتاب، فكيف بالخليل وهو صاحب المزية والفضل في نظريته التي كشف عنها الحاجّ صالح في أبحاثه عن الخليل، وبما أظهره من النظرية الشهيرة التي نسبها إلى الخليل ممثَّلة في النظرية الخليلية.

[1]– التواتي بن التواتي، المرجع السابق، 85.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، مرجع سابق، ص السابقة.

لكن على الرغم من أصالة هذه الإنجازات العلمية اللسانية الكبيرة وأهميَّتها الكبيرة للباحثين اللغويين والتربويين وللعلماء فإنها لم تأخذ حقها من الدراسة ومن التعريف الكافي بها وبصاحبها[1].

وكانت للأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح فيوض وأفضال علمية عظيمة في علم اللغة العربية، تمثلت في ما تركه من كتب علمية قيِّمة جدًّا، وفي بحوثه اللسانية الرصينة التي تمتد من عام 1964م حتى عقدنا الحاضر هذا، على غرار السلسلة اللسانية التي ضمت خمسة كتب لسانية من تأليفه، فكانت إنماء وزيادة وإثراء للمكتبة العربية العظيمة.

توفي عبد الرحمان الحاج صالح أمين نظرية الخليل وباعثها، رحمه الله تعالى ونفع بعلمه عام 2017م.

[1]– ينظر: الشريف بوشحدان، الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح وجهوده العلمية في ترقية استعمال اللغة العربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: 7، جامعة بسكرة، جوان 2010م، 101.

المبحث الثاني: الدرس اللساني في القرن الأول الهجري (قبل سيبويه)

المطلب الأول: نشأة علم اللغة العربية (إرهاصات الظهور وبداية التأسيس)

المطلب الثاني: جمع وتدوين علوم اللغة العربية

المطلب الثالث: دور الخليل في وضع علوم اللغة العربية

المطلب الرابع: جهود مدرستي البصرة والكوفة في دراسة اللغة

المطلب الأول: نشأة علم اللغة العربية (إرهاصات الظهور وبداية التأسيس)

الواقع أن الدرس اللغوي العربي السليقي التطبيقي قد نشأ أكثره في غمرة العصر الجاهلي ورحابه ونما، بيد أن نشأته كانت نشأة طبيعية تقوم على مجرد التطبيق أو التداول والمشافهة، يغيب فيها جانب التنظير، ثم" جاء الإسلامُ واللغةُ العربيةُ مستكمِلةٌ أدوات التعبير، ولها تراث أدبي حافل مفصِح عن شتى المشاعر الوجدانية والاجتماعية، قد اتفقت الكلمة على الاعتداد بهذا التراث والإعجاب به منذ عصر الجاهلية حتى اليوم"[1]، فبمجيء الإسلام بدأ الدرس اللغوي بمفهومه العلميّ الحاضر وازدهر في أكنافه، فظهر نوع من النقد اللغوي المعلل والموجه والهادف، وظهرت معان ومصطلحات إسلامية كثيرة جديدة كمصطلح الحُطمة، والقارعة، والهرج، ومصطلح الأبِّ، ومصطلح البعث والنشور، والجنة والنار، وغير ذلك من مصطلحات الدستور الجديد، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم نفسُه يعتمد لسان العرب في بيان معاني الوحيين الشريفين للناس، وقد نعت اللحن في الكلام بالضلال، ولنا هنا أن نتصور ونستشعر خطورة الخطأ في الكلام، وقال أبو بكر:" لأَن أقرأ فأُسقِطَ أَحبُّ إليَّ من أن أقرأ فألحن"[2]، أي لأن أخطأ عند التلاوة أو الحفظ خطأ نسيان بإسقاط آية أو حرف أو كلمة أهون عليَّ من أن أخطأ في القراءة خطأ قراءة وهجاء في جانب من جوانب اللغة كالنحو والصرف، والخطأُ في النَّحو أشيع وأفشى وأكبر ضررا.

ولا أحتمل أنَّ العرب في عهود الفصاحة جميعا كانوا يلحنون في الجانب الصوتي للكلمة عندما يتكلمون العربية الفصحى كحالنا نحن اليوم، اللهم في حديثهم العفوي في تعبيرهم العادي، فإن أغلب نطقنا فاسد ما له من وجه في العربية ألبتة، فإذا تعلق الخطأ بكلام الله تعالى كان من أعظم الفساد، وإن من عظَّم شيئا أقامه وقدَره حقَّ قدْره، واحترز من الخطأ فيه، " وكتب كاتب لأبي موسى الأشعري إلى عمر فلحن، فكتب إليه عمر: أن اضرب

[1]– سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح، د ط، الكويت، 1978م، 7.

[2]– جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج: 2، 341.

كاتبك سوطا واحدا، وكان عليّ بن المدينيّ لا يغَيِّر الحديث وإن كان لحنا، إلا أن يكون من لفظ النبي فكأنه يُجَوِّز اللحن على من سواه"[1].

وإنَّ بوادر الدرس اللساني العربي ترجع أول ما ترجع إلى عصر النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّها كانت مقترنة بنزول القرآن الكريم، الذي مثَّل بالنسبة للمسلمين منهج الحياة وكان لهم النور المبين والدليل الواضح والكتاب الهادي في كل شأن ومجال، وكان المسلم تواقا إلى معرفة كتاب الله وما جاء فيه من حلال وحرام وأحكام، وما كان ذلك ليتأتى له إلا بإعراب لفظه وتفسير غريبه، وعلى هذا فإن هذه البوادر صاحبت بداية تنزل النص القرآني وبيان النبي صلى الله عليه وسلم لغريبه ومشكله وبداية اجتهاد الصحابة فيه[2].

وإن الناظر إلى علم المعاجم مثلا ليجده مستمدا من علم التفسير ومن غريب القرآن الكريم ومن غريب الحديث النبوي الشريف، كما أن علم الأصوات في العربية مستمد أكثره من علم التجويد، فالقرآن الكريم بالدرجة الأولى وبالإضافة إلى كونه كتاب هداية، هو إن جاز القول: موسوعة فوق العلمية شاملة ومعجزة؛ أي أن علمه لدني سماوي فهو فوق علم البشر، وفيه من الحديث في الغيبيات القدْر الوفير، واللغة فيه هي إحدى أهم عناصر التحدي والإعجاز، وذلك هو دأب الكتب السماوية في تنزُّلها أن توافق واقع من أنزلت عليهم فتتنزل بأبلغ ما برعوا فيه وأهمه.

لقد مثلت لغة القرآن الكريم بالنسبة لرؤوس العربية وأساطينها تحديا بعيدا وإعجازا حقيقيا، فلم يستطيعوا الإتيان بمثل القرءان الكريم، بل وكانوا عاجزين عن فهم كثير من مصطلحاته وتراكيبه اللغوية، فكان الصحابة رضي الله عنهم جميعا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما استغلق عليهم فهمه وأشكل، فيجيبهم غير ضَجِرٍ ولا متحرّج، وقد أوتي جوامع الكلم؛ وهي إحدى خمس لم يؤتهن أحد من الأنبياء قبله، والحديث في البخاري، فـ" عن البراء بن

[1]– ينظر: جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج: 2، 341.

[2]– ينظر: عبد الجليل مرتاض، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، دار هومة، ط 2، الجزائر، 2009م، 45.

عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني عملا يدخلني الجنة، فقال: أعتق النسمة وفك الرقبة، قال: أوليسا واحدا؟ قال: لا، عِتق النسمة أن تفرَّد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها"[1].

وما تلك الإسهامات الجليلة في خدمة لغة الوحيين الكريمين من تفسير وبيان لهما ولغريبهما إلا بدايات تأسيس فعليٍّ ومفاتيحُ حقيقيةٌ لأبواب علوم اللغة العربية، فما افترق إلا المصطلح، ومن الذين كانت لهم إسهامات وجهود في نشأة اللغة الغربية ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من خلال اجتهاداته في تفسير غريب القرآن الكريم وبيان معانيه، وكان قد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يزيده الله علما وفقها في الدين، فكان رضي الله عنه يُعمِل اللغة والشعر إعمالا جيدا وواسعًا في تفسير آي الله عز وجل، وهو القائل:" الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه"، وكان كثيرا ما يُنشِد الشعر إذا سئل عن بعض حروف القرآن، قال القرطبي: سئل ابن عباس عن السِّنة في قوله تعالى:" لا تأخذه سنة ولا نوم" فقال النعاس، وأنشد قول زهير:

لا سِنَةَ في طُوالِ الليلِ تَأخذُه ... ولا يَنَامُ وَلَا في أَمْرِهِ فَنَدُ"[2].

كما فَسَّر كلمتي الرعد والبرق بقوله:" الرعد ملَك اسمه الرعد، وهو الذي تسمعون صوته، والبرق سوط من نور يزجر به الملك السحاب، وقال أهل اللغة: الرعدُ صوتُ السحابِ، والبرقُ نورٌ وضياءٌ يصحبان ويحثَّان السحاب"[3]، وقد كان عمر رضي الله عنه أيضا يحض على تعلم العربية ويُلحُّ، فلقد رُوي أنه رضي الله عنه:" قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿أَوۡ

[1]– حمد بن محمد الخطابي، غريب الحديث، تح: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، تخريج: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر، د ط، دمشق، 1402هـ– 1982م، ج: 1، 67.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج: 1، 22.

[3]– محمد بن عزير السجستاني، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، تح: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، ط 1، سوريا، 1416هـ– 1995م، 268.

يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ ﴾ آ 47 س النحل، ثم قال ما تقولون فيها أي في معنى التخوف، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف التنقص، فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك في كلامها؟ قال: نعم، قال أبو كبير الهذلي:

تخوف الرحل منها تامكا قردا ... كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر:" عليكم بديوانكم لا تضلوا، هو شعر العرب، فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم"[1].

على أن التأسيس الفعلي لعلم اللغة العربية ظل راكدا بضعة عقود في فجر الإسلام الأول، واستمر كذلك حتى آخر عهود الخلافة الإسلامية الراشدة، بتقدير إلهي حكيم، حيث لم يُجز رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يشتغلوا بكتابة ما دون القرآن الكريم، خوف اختلاطه بحديثه صلى الله عليه وسلم فمنعهم من كتابة حديثه وهو ثاني الوحيين لقوله عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ آ 3 – 4 س النجم، فكيف بكتابة ما دونه من حديث غيره، وقد ظلت كذلك سائر علوم الدين والدنيا إلى ما بعد وعي الناس للقرآن الكريم، بل إلى ما بعد خلافة عثمان رضي الله عنه، أين تم الفراغ من جمع القرآن الكريم، وكان قد حمل اختلافُ أحرفِ القرآن الكريم الصحابةَ الكرام و مَن تبعهم مِن الناس في فترة خلافته إلى إنكار ورد قراءات بعضهم بعضا، ويدل على ذلك" ما رواه أبو داود عن سويد بن غفلة قال: قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا، قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرا، قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف؟، قلنا: فنعم ما رأيت"[2].

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج: 1، 22.

[2]– شعبان محمد إسماعيل، رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، دار السلام للطباعة والنشر، ط 2، د ب، د ت، 21.

فكيف لو أضيف إلى القراءات القرآنيّة بصحيحها وشاذِّها في ذلك الزَّمن الحديثُ النَّبويُّ واللّغة والشّعر، فما بدأ الدرس اللغوي العربي دراسته التعليمية الفعلية بالمعنى العلمي المعاصر إلا منذ زمن الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم لم يلبث الدرس اللغوي أن اكتمل في فترة وجيزة هي الأقصر في تاريخ اللغات العالمية، ومع ذلك فإنَّه" لا تَعرف لغة من لغات البشر مثل هذه الدقة والاطراد في ظاهرة من ظواهرها"[1]، وقد بدأ الدرس اللغوي عند العرب عربيا خالصا لم تَشُبه شائبة التأثر، ولم يزل كذلك محافظا، منضبطا بضوابط الأصالة لم تؤثر فيه عوامل الزمن وأسباب التغيير، وكانت انطلاقة البحث فيه من علم النحو، ولعل السر في ذلك يكمن في حاجة العرب آن ذاك إلى علم النحو كمقوم لاعوجاج اللسان وفساده؛ فإن ما طال اللسان العربي من فشو اللحن فيه لا يصلحه غير النحو، إذ به يُنتحى سمت كلام العرب[2].

غير أن أمر اللحن لم يكن مقتصرا على الأعاجم وحدهم بل إنه طال بيوت علماء العربية وصناع القرار السياسي في الدولة كما طال العامة فقد" روى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِونَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ آ 22 س السجدة، وقد زعم رؤبة بن العجاج أو أبوه العجاج وأبو عمرو بن العلاء أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج، وغلط الحسن في حرفين من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ آ 1 س ص، والحرف الآخر: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ آ 210 س الشعراء[3]، فكيف بعامة الناس بعد هذا؟ وهؤلاء من أعلم الناس بأساليب العرب في كلامهم، وهم الذين كانوا ينفرون من اللحن ويشمئزون، يقول صاحب التبيين الجاحظُ:" وقد فهمنا معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس، حين قال له الحجاج: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ قال: شريكاننا في هوازها، وشريكاننا في مداينها، وكما تجيء نكون، قال الحجاج: ما تقول، ويلك! فقال بعض

[1]– إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 6، القاهرة، 1978م، 198.

[2]– ينظر: عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 35.

[3]– عمرو بن بحر" الجاحظ"، مرجع سابق، ج: 2، 150.

من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها"[1].

والروايات في نشأة النحو كثيرة متفقة فيها أهداف نشأة النحو وإن اختلفت فيها أسباب الوضع الأول مع خلاف يسير في الواضع، حيث يروى بأنَّ:" أوَّل من أسس علم العربيَّة عَلي بن أبي طالب رَضي الله عنه وأخذه عنه أبو الأسود"[2]، وإلى ذلك ذهب أبو البركات الأنباري حين قال:" اعلم أيدك الله تعالى بالتوفيق، وأرشدك إلى سواء الطريق، أن أول من وضع علم العربية، وأسس قواعده، وحد حدوده، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذ عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي"[3]، إلى قائل بأن:" واضعه هو زياد بن أبيه"، وإلى قائل بأنه:" من وضع عبد الرحمان بن هرمز"، إلى قائل بأنه:" من وضع نصر بن عاصم"، والصحيح أن أول من وضع النحو علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأن الروايات كلَّها تُسنَد إلى أبي الأسود، وأبو الأسود يسنَد إلى علي"[4].

وحُكي أن سبب الوضع الأول في وضع النحو العربي هو أن اللحن فشا في بلاد العرب لاختلاط العجم المسلمين وغير المسلمين بالعرب، فخُشي على القرآن من أن يطاله اللحن والتصحيف، فدفع ذلك بأبي الأسود الدؤلي إلى وضع علم النحو، فقد دخل يوما على ابنته " فقالت: يا أبه ما أشدُّ الحر، رفعت أشد فظنها تسأله وتستفهمه منه أيُّ أزمانِ الحرّ أشد؟ فقال لها: شهرا ناجر، فقالت: يا أبه إنما أخبرتك ولم أسألك، فأتى أميرَ المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب لسان العرب لما خالطت العجم، ويوشك إن طال علي الزمان أن تضمحل، فقال له: وما ذاك؟ فأخبره خبر ابنته"[5]، فأملى عليه علي بن أبي

[1]– عمرو بن بحر" الجاحظ"، المرجع السابق، ج: 1، 148.

[2]– صلاح الدين خليل الصفدي، مرجع سابق، ج: 16، 306.

[3]– عبد الرحمان محمد أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط 3، الزرقاء– الأردن، 1405هـ– 1985م، 17.

[4]– محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، مرجع سابق، 26.

[5]– صلاح الدين خليل الصفدي، المرجع السابق، ج: 16، 306.

طالب رضي الله عنه:" الكلامُ كلُّه لا يخرج من اسم أو فعل وحرف جاء لمعنى، ثم رسمَ أصول النحو كلَّها"[1]، وأمره بأن ينحوَ في كتابته وبيانه لقواعد العربية نحوه رضي الله عنه، ودليل تناسب المصطلح أو التسمية مع هذا العلم" علم النحو" ومصطلح" انتحاء سمت كلام العرب" قول سيبويه:" وذلك؛ لأنَّ لها نحواً في الكلام ليس لغيرها"[2]، أي قصدًا وطريقةً ونهجًا إلى سمت معيَّن في الكلام.

كما يُروى أيضا في سبب نشأته ووضعه أن أبا الأسود أخذ " عن علي العربية، فسمع قارئا يقرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ آ 3 س التوبة، بكسر اللام بدلا عن ضمها، فقال: ما ظننت أن أمر الناس قد صار إلى هذا، فقال لزياد الأمير: ابغني كاتبا لَقِنا فأتى به، فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف، فانقط نقطة أعلاه، وإذا رأيتني قد ضممت فمي، فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت، فانقط نقطة تحت الحرف، فإذا أتبعت شيئا من ذلك غنة، فاجعل مكان النقطة نقطتين، فهذا نقط أبي الأسود"[3]، إلى آخر ما قال له رحمه الله، والقصة بكمالها في سير أعلام النبلاء، وقد مرت هنا قبلُ، وهي وجميع روايات النشأة الأولى، أو أكثرها في هذا الكتاب، وروايةٌ أخرى تقول: أن أبا الأسود الديلي" أتى عُبيد الله بن زياد يستأذنه في أن يضع العربية فأبى، قال فأتاه قوم فقال أحدهم: أصلحك الله، مات أبانا وترك بنوه، فقال: علَيّ بأبي الأسود، ضع العربية"[4].

وقيل في سبب النشأة: غير ذلك، وهو أن رجلا فارسيا يقال له: سعد مَرَّ يوما" بأبي الأسود الدؤلي وهو يقود فرسه فقال: ما لك يا سعد لم لا تركب؟ قال: إن فرسي ضالع، أراد ظالعا، قال: فضحك به بعض من حضره، فقال أبو الأسود: هؤلاء الموالي قد رغبوا في

[1]– صلاح الدين خليل الصفدي، المرجع نفسه، ج: 14، 307.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 487.

[3]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 4، 383.

[4]– الحسن السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، د ط، مصر، 1373هـ– 1966م، 13.

الإسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة، فلو عملنا لهم الكلام، فوضع باب الفاعل والمفعول"[1]، وقال المبرد: حدثنا المازني قال:" السبب الذي وضعت له أبواب النحو، أن ابنة أبي الأسود قالت: ما أشد الحر قال: الحصباء بالرمضاء، قالت: إنما تعجبت من شدته، فقال: أوَ قد لحن الناس فأخبرَ بذلك علياً عليه الرضوان، فأعطاه أصولاً بنى منها، وعمل بعده عليها، وهو أول من نقط المصاحف"[2].

وأيًّا ما كانت الرواية فإن الغاية من وضع علم النحو خدمة لغة القرآن الكريم وحفظها من الفساد، وقد تمَّ" وضعه في العصر الأموي دون سائر العلوم اللسانية، وما استهل العصر العباسي إلا وهو يُدرس دراسة واسعة النطاق في العراقَين "البصرة والكوفة"، وكمُل وأوفى على الغاية في بغداد ولمَّا ينقضِ العصر العباسي الأول وذلك قبل تمام القرن الثالث الهجري"[3]

من لحون العصور الزاهية في اللغة والأدب:

كان العرب في العهود الأولى الفاضلة للغة عهودِ ما قبل إقبال الناس وتهاوي أفئدتهم إلى الدين الجديد دينِ التوحيد يَعُدُّون الوقوع في اللحن في الكلام مثلمة كبيرة ونقيصة مشينة، إن لم نقل لا يعرفون اللحن ألبتة، وإلا فلم كانوا يعقدون مجالس نقد الشعر، وينتقون منه ما يخلق أن يكون علائق في الأذهان والنفوس وعلى بيت الله تعالى، ولم كانت القبائل تتفاضل في الفصاحة والقرب من العربية الصحيحة الأولى حتى فُضِّلت قريش على ما عداها من قبائل العرب قاطبة، فلما جاء الإسلام لزم على الناس أن يتقاربوا ويتعارفوا، ولا سبيل لهم في ذلك إلا باللغة، وكذلك فعل الجنود الألمان عندما وجدوا أنفسهم ملزَمين في بعض حروبهم بتعلم لغات مستعمراتهم.

[1]– محمد بن إسحاق بن النديم، مرجع سابق، 62.

[2]– شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 5، 279.

[3]– محمد الطنطاوي، مرجع سابق، 31.

ومما يروى من قصص اللحن في العهود الزاهية للغة والأدب عهود التنَوُّر الإسلامي قصة خطيب يلحن على منبر عظيم هو منبر بيت الله، وذلك لشدة فُشُوِّ اللحن فيهم، فلما شُنِّع عليه في ذلك وأُنكِر جاوز الحدَّ في الإفساد وهو يخطب، قال أبو جعفر النحاس:" صعد رجلٌ المنبر ليخطب، فارتُجَّ عليه، فنظر إلى أخ امرأته فقال: ما لك يا بغيض! أختك طالقٌ ألبتة، وخطب يزيد بن أبي سفيان لما أتى الشام والياً لأبي بكرٍ، فارتُجَّ عليه، فعاد إلى الحمد ثلاثاً، فارتُجَّ عليه، فقال: يا أهل الشام! عسى الله أن يجعل بعد عسرٍ يسراً، وبعد عيٍ بياناً، وأنتم إلى أميرٍ عادلٍ أحوج منكم إلى أميرٍ قائلٍ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص، فاستحسنه"[1].

وارتُجَّ على عبد ربه اليشكري، وقد كان عاملًا لعيسى بن موسى على المدائن، فسكت، وقال: والله إني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمةٍ، فإذا قمت على أعوادكم هذه تَنَحَّت كلها من قلبي، وذلك من هيبة المقام وجلاله[2].

المطلب الثاني: جمع وتدوين علوم اللغة العربية

مَثَّل جمعُ اللغة العربية وتدوينها أهم حلقة في تاريخ الدرس اللساني العربي، إذ به أمكن للعربية أن تحوز على أكبرِ خزانةٍ لغوية عرفتها الدنيا، وأمكن لها بذلك أن تنهض وترتقي إلى مراتب ومصافِّ لغات الحواضر الأعجمية الأخرى كالسريانية والسنسكريتية والصينية واللاتينية.

وبذل علماء المسلمين في جمعهم العربية جهودا عجيبة، امتلأت بها كتب التاريخ وكتب العلماء، فذكروا أن أقدم من ذهب إلى البادية يونسُ بنُ حبيب 183هـ، وخلَفٌ الأحمر 180هـ، والخليل بن أحمد 175هـ، وأبو زيد الأنصاري 215هـ، والكسائي 189هـ وهو زعيم مدرسة الكوفة، وهو الذي ذهب إلى وادي الحجاز ونجد وتهامة، ورجع وقد أنفد خمس عشرة

[1]– أحمد بن محمد أبو جعفر النَّحَّاس، عمدة الكتاب، تح: بسام عبد الوهاب الجابي، دار بن حزم، (الجفان والجابي للطباعة والنشر)، ط 1، د ب، 1425هـ– 2004م، 361.

[2]– ينظر: أحمد بن محمد أبو جعفر النَّحَّاس، المرجع نفسه، 361.

قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[1]، فصدق فيه قول القائل:" من المحبرة إلى المقبرة"، وهذا الشافعي أعجوبة العصور وأسطونها، ذلك الفقيه واللغوي العظيم يضرب لنا أنبل الأمثلة في طلب علم اللغة وعلوم الدين بجهود وتضحيات جسام، وفق قواعد وشروط في النقل الموضوعي والأمين وفي التَّحرّي تعجز اللسانيات الحديثة والمعاصرة عن تصوُّرها ويستحيل عليها أن تطبقها، فقد كان من حرصه على العلم أنَّه أنفق عمُره كلَّه في طلابه، حتى إنه قال:" حفظت القرآن وأنا ابن سبعِ سنينَ، وقرأت الموطأ وأنا ابن عشرِ سنينَ، وأقمت في بطون العرب عشرين سنة، آخذ أشعارها ولغاتها، وحفظت القرآن، فما علمت أنه مرَّ بي حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد، ما خلا حرفين أحدهما دسَّاها، وكان يختم القرآن في رمضان ستين مرة، وكان من أحسن الناس قراءة"[2].

وتحدث الأستاذ الحاج صالح عن أفضال أعلام العلوم الشرعية في الإسلام من العرب والعجم على اللغة العربية فعدَّد منجزاتهم وإسهاماتهم الجليلة، وعدَّ من جملتهم هذا الإمام العظيم ليقول بشأنه:" وكذلك كتب الأمام الشافعي ولا ننس أنه كان حجّة عند النحاة وهؤلاء المتحررين"[3]، وأما الأصمعي فإنه أخبر عن نفسه فيما رواه أبو البركات الأنباري عنه فقال:" أحفظ ست عشرة ألف أرجوزة، ويقال: كان الرشيد يسميه شيطان الشعر، وقال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي وخلف، فقلت: أيهما كان أعلم؟ فقال: الأصمعي؛ لأنه كان نحوياً"[4]، فتلك مزية النحو وفضله، و" عاشر أبو عمرو بن العلاء 154هـ البدو وسجَّل عنهم سماعه منهم وما جمعه من فصيح كلامهم وقد كان أكثرُ الذين سمع منهم مخضرما، " قال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، فكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرَّأ – أي تنسَّك–

[1]– ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط 4، د ب، 1422هـ– 2001م، 224–225.

[2]– صلاح الدين خليل الصفدي، مرجع سابق، ج: 2، 121.

[3]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2012م، 82.

[4]– عبد الرحمان محمد أبو البركات الأنباري، مرجع سابق، 95.

فأخرجها كلَّها، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية"[1].

فأين اللسانيات الحديثة التي وقفت نفسها منظِّرًا للعربية من لسانيات علماء العرب وأكثر ما نادت به مستمد من الدراسات اللغوية القديمة، فهي اليوم بذلك في أبهة مجدها وجمالها وجلالها، ووصف أبو عبيدة معمرُ بنُ المثَنَّى طلبه العلم واللّغة عند يونس بن حبيب فقال:" اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحي من حفظه"[2]، وقال أبو زيد الأنصاري النحوي:" جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة"[3].

وقد" ألحَّ الرواة واللغويون العرب على ملامسة الواقع اللغوي الحاضر وكشفه بمشاهدة الأفراد والاستماع إليهم – وهم يعبرون عن أغراضهم بكل عفوية– والنقل عن قبائلهم نزيلة البوادي والحضر"[4]، وهذا ما دعا إليه علم اللسانيات الحديث، وسماه الملاحظة وجعله شرطا أساسيا للنقل الأمين وللموضوعية، واستمر أخذ العلماء والرواة العرب من البادية كذلك إلى أواخر القرن الرابع الهجري، ومنهم من جاور بها أعواما طويلة[5]، وبقَوا على ذلك حتى ضاقت رقعت الفصاحة وندرت الفصاحة وضعفت، وهنا طويت الأرحل والمطايا، وشُدَّت لسفر جديد قريب يسير، لأسفار العلماء ودواوينهم بدلا من أسفار البوادي والحواضر ومخاطره وصعوباته التي لا تكاد تُعقل أبدا أو تتصور لشدتها، وبدأ عهد جديد هو عهد التفتيش في الكتب.

---

[1]– شمس الدين أحمد بن خلكان، مرجع سابق، ج: 3، 466.

[2]– الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تح: مروان قباني، المكتب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1406هـ– 1986م، 70.

[3]– شمس الدين أحمد بن خلكان، المرجع السابق، ج: 7، 245.

[4]– رشيد حليم، المنهج اللغوي العربي والبحث اللساني – دراسة مقاربتية في اللسانيات وأصول النحو، دار قرطبة، ط 1، الجزائر، 1453هـ– 2011م، 15.

[5]– ينظر: علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط 1، د ب، 1412هـ– 1991م، 137.

واستمر الناس في البحث في اللغة على ذلك المنوال، واستمر معهم العمل على تطوير هذه الآليات حتى أطل نجم اللسانيات الحديثة على أوروبا فأنارت دفقات ضوئها ظلمات العصور الوسطى، وقضَّت مضاجع أهل الكنائس والصلبان، وعمَّ من ثمَّة نوال اللسانيات الحديثة العالَم فنحن لذلك ندرس الآن فكر سيبويه في هذا التوجه العلمي للغة، وهو الذي اصطلحوا عليه علم اللسانيات الحديث، وهبوا من ثمة يتبارون في إخراج النظريات وهم يدحضون بعضها ببعض، ويرون أنه لا يمكن لأية أمة غيرهم أن تنتج علما أو فكرا أبدا.

لكنَّ العجيب أنهم يثبتون لمن يروقهم ممن شاكلهم كالهنود والصينيين وكاليونان نبوغهم في علم اللغة أو بعض جوانبها في تلك الأزمنة السحيقة البدائية الغابرة، وينفونه عن علماء المسلمين كسيبويه وأبي علي الفارسي أو كالخليل والكسائي وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم، ولا يُنقص علماءَنا إنكار الغرب لجهودهم شيئا، كما لا يزيدهم اعترافهم بها شيئا أيضا، وصاحبنا وإمامنا سيبويه يكفيه عزّا وفخارا كتابه " الكتاب"، فهو الذي يصور عنايته الشديدة بعلم اللغة في قمة العطاء الفكري البشري وذروته.

المطلب الثالث: دور الخليل في وضع علوم اللغة العربية

الخليل بن أحمد الفراهيدي العلامة الناسك الزاهد أعجوبة الدهر، وصاحب علوم العربية، ذو العقل النَّيِّر الراجح والنظر الثاقب والتفكير السديد، " سيد أهل الأدب في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، فقد كان ماهرًا في القياس، وبه علَّل النحو، ونشأ العروضُ والمعجميَّاتُ على يدي الخليل بن أحمد، وكما أخذ الخليل عن علماء البصرة، تتلمذ عليه سيبويه، والنضر بن شميل، والأصمعي، وسواهم، ومن شيوخه أبو عمرو بن العلاء، وعاصم الأحول، وسواهما، وكان الخليل يوصف بأنه أذكى العرب"[1].

وإنَّ من أهمِّ منجزات الخليل بن أحمد اللغوية، إسهامه في مجال المعجمية، من خلال معجم العين الذي حاول فيه أن يجمع ألفاظ العربية، وقد ظل إلى اليوم إرثا لغويا عربيا

[1]– محمود مصطفى، أهدى سبيل إلى علمي الخليل، مكتبة المعارف، ط 1، د ب، 1423هـ– 2002م، 131.

متميزا، بل هو أهم معجم في العربية، كونه حوى أقصى قدر ممكن من الكلمات العربية، كما" يعد كتاب "العين" أقدم المعاجم العربية على الإطلاق، ورائد أقدم مدرسة في التأليف المعجمي، يختلف كتاب العين عن الجهود الأخرى المبكرة في التأليف اللغوي في أنه أول محاولة لحصر ألفاظ اللغة العربية على نحو شامل وفي إطار نظام منهجي واضح"[1]، غير أن الدارسين اليوم مختلفون في نسبة معجم العين، فطائفة منهم تعدُّه من عمل اللَّيث بن المظفَّر، ويروى أنَّه هو" الذي نَحَلَ الخليل بن أَحْمد تأليفَ كتاب العين جملة لينفِّقه باسمه، ويرغِّب فيه من حوله، وأُثبتَ لنا عَن إسحاق بن إبرَاهِيم الحنظليّ الفقيه أَنَّه قال: كان اللَّيث بن المظفَّر رجلا صالحا، ومات الخليل وَلم يفرغ من كتاب الْعين، فأحبَّ اللَّيث أن ينفِّق الكتابَ كلَّه، فسمَّى لسانه الخليل"[2]، ولعل أعظم ما ابتكره الخليل، ليس الترتيب الصوتي في حد ذاته؛ لأن الهنود قد سبقوه إلى هذه الفكرة، وإنما منهجه الإحصائي في جمع اللغة، بناء على فكرة التقليبات، التي رصد الخليل بها الاحتمالات الآتية من الناحية النظرية والرياضية؛ إذ صنفها وفق أربعة احتمالات هي: قسم ثنائي، وآخر ثلاثي، فآخر رباعي، فقسم أخير هو: الخماسي[3].

وهو" الذي أقام صرح النحو، وهو الذي شاد قواعده وأركانه بحيث لم يعد فيها أي أَمْت أو عوج أو انحراف، وهو الذي صاغ قوانين أبنيته واشتقاقاته وإعلالاته وإبدالاته، وهو الذي ضبط نظرية العوامل والمعمولات وبسط ظلالها على جميع الكلمات والعبارات وكلِّ ما يتصل بها من تقديرات وتأويلات واحتمالات، وهو الذي أرسى قواعد السماع والتعليل والقياس"[4]؛

[1]– محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة– مصر، د ت، 99.

[2]– أحمد بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تح: دائرة المعرف النظامية– الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 2، بيروت– لبنان، 1390هـ– 1971م، ج: 4، 494.

[3]– ينظر: ربيعة برباق، صناعة المعجمات العربية " تاريخها أسسها ومناهجها"، دار نوران، ط 1، الجزائر، 2018م، 47.

[4]– أحمد شوقي عبد السلام ضيف (الشهير بشوقي ضيف)، المدارس النحوية، دار المعارف، ط 7، القاهرة، 1968م، 366.

وهو ما نجده مبسوطا في كتبه التي ألف أولا، وفي كتاب سيبويه ثانيا، فمنذ آنِذاك بالتحديد، – أي منذ ظهور كتاب سيبويه– بان علم الخليل وازدهر علم النحو العربي عموما.

ومن فضله على العربية وجهوده فيها: وضعه علامات الإعراب التي استقر عليها حال الكلمة في العربية إلى اليوم، واختياره الشكل المناسب للحروف العربية بحسب حالها ووضعها في الكلام، و بحسب ما يقتضيه قانون العربية وإعرابها، وإن كان قد سبقه إلى ذلك علماء آخرون كأبي الأسود الدؤليّ، ونصر بن عاصم الليثي، وغيرهما، فإن لِهؤلاء فضل السبق والابتكار، وللخليل فضل التصحيح والاختيار، " قال أبو الحسن بن كيسان: قال محمد بن يزيد: الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف، فالضمة واوٌ صغيرة الصورة في أعلى الحرف لئلا تَلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف"[1].

ومن إسهامات الخليل الجليلة في خدمة القرءان الكريم واللغة العربية أنّه جعل الهمز والتشديد والروم والإشمام على غير منوال في ذلك، وقفا الناس فيه أثره، فهم تبع له فيه ما بقي القرءان والعربية والإسلام[2].

ولما رأى الخليل ما اجترأ عليه شعراء زمانه من الخروج عن أوزان العرب في شعرهم أكبر ذلك الأمر كثيرًا، فقد علم بأنه إيذان بفُشوّ اللحن والتمرد على معهود العرب في نَظْمها، وتقويض لبناء تليد من أبنيتها، فـ" لما رأى الخليل ذلك جمع العزيمة – وما أصدق عزيمته–، وشحذ الخاطر – وما أرهف خاطره–، واعتزل الناس في حجرة له، فجعل يقضي فيها الساعات، بل الأيام يوقّع بأصابعه ويحركها، وكان على علم بالنغم، حتى إنه ألف فيه كِتابَي: النغم، والإيقاع، كما ذكره ابن النديم في فهرسه، فقد اكتشف" اكتشافا ليس له سابقة ولا تدانيه لاحقة، إذ استطاع أن يرسمه بكل أوزانه وحدوده وتفاعيله وتفاريعه، غير مبق لمن

[1]– أبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، دار الفكر، ط 2، دمشق، 1407هـ، 7.

[2]– ينظر: أبو عمرو الداني، المرجع نفسه، 6.

جاءوا بعده شيئا يضيفونه إليه، وهو يحمل في تضاعيفه ما يشهد بتمثله تمثلا رائعا للنغم وعلم الإيقاع ومواضعه، كما يحمل ما يشهد بإتقانه لنظريات العلوم الرياضية في عصره علما وفقها وتحليلا، وخاصة نظريتي المعادلات، والتباديل والتوافيق وما زال الصبر والذكاء يواتيان الخليل حتى حصر أوزان الشعر العربي وضبط أحوال قافيته، وأخرج للناس هذين العلمين الجليلين"[1].

وليس شيء في الحديث عن علوم العربية بأسرها، وفي هذا الموضوع بالخصوص أدلُّ على فضل الخليل وسبقه وتفوقه من ثمرة جهوده الطيبة المتمثلة في تلامذته، وأبرزهم سيبويه، وكأين من عالم لم يورث أو يؤلف من العلم إلا الرجال، وهل شيء في الدنيا أعظم من أن يوَرِّث عالمٌ دينَه وقومه ولغته عالما جهبذا نحريرا كسيبويه؟ فنقول هنا: أليس سيبويه أثارة جليلة من أثارات الخليل العظيمة؟ وإنّ عامة كلام سيبويه في كتابه لهي في مضمونها آراء الخليل ومواقفه، فكيف بالمنسوب صراحة إلى الخليل، وقد" أحصى الناس أقوال الخليل في الكتاب أكثر من 600 مرة، وهذا شيء كثير جدا"[2]، ويقول أبو الطيب اللغوي:" عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل" فقد كان عمل سيبويه في كتابه أنه يعتمد على مسموعه من فصيح كلام العرب الذين عاصرهم وجالسهم، ومن مشايخه، وقد كان الخليل أهمهم، فإن سيبويه قد" سجل في كتابه كثيرا من بحوثه النحوية والصرفية، حتى كأنه كان موكَّلا بأن لا يترك له رأيًا مُهمًّا يتصل بقواعد العلمين ومسائلهما إلا دوَّنه حتى قال القدماء: إن كتابه من تصنيفه وتصنيف أستاذه الخليل"[3].

من أجل ذلك "نقول: إنَّه برغم نسبته إلى سيبويه ففضل الخليل فيه لا يُجحد، حتى قيل: إن الأوفق أن ينسب الكتاب إلى الخليل وحده أو إليهما معًا"[4].

[1]– محمود مصطفى، مرجع سابق، 9.

[2]– التواتي بن التواتي، مرجع سابق، 86.

[3]– شوقي ضيف، مرجع سابق، 34.

[4]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتاب، ط 8، د ب، 2003م، 125.

ومن ملاحظات الخليل بن أحمد الدقيقة على غرار اختيارِه للشكل أو الصورة النهائية لحركات الإعراب، اختيارُه لحركات الإعجام، فإن وضعها الحالي هذا تأخر عهدا طويلا عن زمن التدوين الأول في الإسلام، ألا وهو كتابة القرآن الكريم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، بأمر منه عليه السلام، وقد كان ممن كتب له من صحابته رضوان الله عنهم جميعا زيد بن ثابت، وأُبَيّ بنُ كعب، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم، وقد تأخر كما سلف تدوين السنة فما اعتمد في حفظها بادئ أمرها على غيرِ السماع، ثم دُونت من بعد ذلك في آنها الذي ارتضاه لها رب العالمين ثم أمينه على وحيه وخير خلقه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وكان للخليل بن أحمد في ذلك الحظوة الربانية والشرف الإلهي من بعد التابعين كأبي الأسود الدؤلي أو كنصر بن عاصم الليثي في إعجام القرآن الكريم، وفي حديثه عن شيء من هذا العمل الجليل يقول الخليل:" الألف ليس عليها شيء من النقط؛ لأنها لا تلابسها صورة أخرى، والباء تحتها واحدة، والتاء فوقها اثنتان، والثاء ثلاث، والجيم تحتها واحدة، والخاء فوقها واحدة، والذال فوقها واحدة، والشين فوقها ثلاث، والضاد فوقها واحدة، والفاء إذا وُصِلَت فوقها واحدة، وإذا انفصلت لم تنقط لأنها لا يلابسها شيء من الصور"[1].

ثم لحكمة إلهية بالغة مع هذه الأسباب التي ذكرنا من الاختلاف في النقط اختلفت القراءات القرآنية في ضبطها واتسعت وتنوعت، ومن أمثلة تلك الاختلافات في القراءةِ الاختلافُ في قراءة قول الله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ آ 80 س الأنبياء، فقد قرأ ابن عامر وحفص" لتُحْصِنكم" بالتاء، وقرأ أبو بكر والحضرميّ" لِنُحْصِنَكُمْ" بالنون، وقرأ الباقون" ليُحْصِنَكم" بالياء، قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ" لِتُحصنكم" بالتاء أراد الصَّنعة، علَّمناه صَنْعَةَ لبوس لكُم لتُحصنكم، ويجوز أن يكون اللبوس معناه: الدُّروع، وهي مؤنثة، وَمَنْ قَرَأَ" ليُحصنكم" فله وجهان:

[1]– أبو عمرو الداني، مرجع سابق، 35.

أحدهما: ليُحصنكم الله، والوجه الثاني: ليُحصنكم اللَّبوس، ذَكَّرَه للَفْظه، وَمَنْ قَرَأَ" لنُحصنكم فالله يقول: نحن، أي: لنقيَكم به بأس السلاح"[1].

ومهما يكن من انتقاد وانتقاص من شأن الخليل، أو إنكار وجحود لفضله، كنسبة معجمه" العين" لغيره، أوث كنفي سبقه إلى علمي العروض والمعجمية وادعائهم أنهما عِلمان عربيان قديمان، أو كاتهامهم الخليل بقراءة كتب اليونان المترجمة عنهم إلى العربية، وتعلمه المنطق الرياضي منها، وتقليده إياهم في بناء النحو العربي وما إليه، فإن كل ذلك لا يَثبت بحجة علمية واضحة إن هي إلا ظنون الأنفس السقيمة وأهواؤها، ولقد كفي الخليل همَّ الجمع والتأصيل لعلمه بفضل كتاب سيبويه" وإنَّ كلَّ من يقرأ الكتاب ليحس في وضوح بما قاله ثعلب من أن الأصول وأمهات المسائل النحوية والصرفية من عمل الخليل، وكأنه بالقياس إلى سيبويه كان الكنز الذي لا ينفد"[2]، فإن لم يكن كذلك ولم تكن الأصول عائدة إلى الخليل بلسان مقال سيبويه، فإنها على أية حال عائدة إليه بلسان حاله من جهة أن أكثر علمه كان عن الخليل.

المطلب الرابع: جهود مدرستي البصرة والكوفة في دراسة اللغة

كان أمرا طبيعيا أن يحتدم الجدال بين البصرة والكوفة، ويزداد التنافس؛ لأن ذلك كان نتاج الاختلاف في المنهج المعتمد في كل مدرسة، وفي المنطلقات والأسس العلمية المعتمدة، كما لا يمكن إغفال الجانب النفسي البشري، فمن جهة أولى فإن السنة الكونية تقتضي الاختلاف في جهود البشر واجتهاداتهم، ومن جهة ثانية فإن للطبائع النفسية كما للسياسة دور كبير في إذكاء فتيل الصراع أو قل التنافس العلمي، وقد سبق بيان شيئ من ذلك في ترجمة سيبويه منذ يوم إقباله على العربية، ثم يوم أن فارق العربية والحياة، لكن كل ذلك من الله بحسبان، ولقد كان ذلك جليا في أعمال الشعراء منذ الجاهلية حتى العصر العباسي، أين كان للكلام

[1]– محمد بن أحمد بن الأزهري، معاني القراءات للأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب، ط 1، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1412هـ– 1991م، ج: 2، 168.

[2]– ينظر: شوقي ضيف، مرجع سابق، 34.

وقعه الكبير في النفوس، لقد كان اللسان أشد عليهم من وقع الرماح، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضي الله عنه عندما ردّ على صناديد مكة وعُتاتها هجاءهم، فقال له عليه السلام:" اهجهم، يعني قريشا، فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس"[1].

ويوم أن خرج كتاب سيبويه للناس فترت الهمم وضعف الناس عن الاستزادة في البحث والتأليف، فصار كل من أتى بعده يكتفي بالشرح أو التعليق، فكأنهم تمثلوا قول المازني إذ قال في الكتاب كلام إطراء وتعظيم، وإن كان في كتابه غنية عن التأليف، و" نجد البصريين أو الكوفيين يختلفون في المسألة الواحدة، ونجد في كثير من الأحيان بصريين ينظمون إلى المدرسة الكوفية، وكوفيين ينظمون إلى المدرسة البصرية"[2]، وقد عُدَّ كتاب ابن الأنباري في الخلاف النحوي أفضل كتاب في بيان الخلاف بين البصرة والكوفة على ما مال إليه أغلب الباحثين قديما وحديثا، مع ما قيل فيه، وما أُخذ عليه.

1/ جهود مدرسة البصرة في دراسة اللغة:

تعدّ البصرة المهاد الأول للنحو العربي، ذلك أنها أول مدرسة لغوية في العربية، وقد كان توجهها اللغوي الأساسي نحويا صِرفا، فقد غلبت على لغوييها الصنعة النحوية، فهم لم يكونوا مجرد رواة ونَقَلة لكلام العرب، وعلى الرغم من أن انطلاقتهم الأولى كانت من السماع والمشافهة والتلقين، وذلك هو الأساس الأول الذي وجب اعتماده فقد كان حتمية علمية فرضها الدرس اللغوي حينها، إلا أنهم انتقلوا بعد اكتمال التحري والاستقراء لظواهر اللغة إلى التقنين والتقييس وإطلاق الأحكام والتعليلات والفروض، فكان الانتقال من مرحلة السماع إلى مرحلة القياس انتقالا طبيعيا سلسا ومرنا، روعيت فيه طبيعة الدرس اللغوي العربي وظروف قيامه، والتزم فيه بالمنهج العلمي الرصين، فلم يُخِلّ ذلك بمنهجهم ولم يقدح فيه لمن أوتي

[1]– جواد علي، مرجع سابق، 408.

[2]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، 129.

الفهم الصحيح، والتزم الرأي المنصف السديد، فلقد" روى لنا التاريخ أن البصريين هم الذين وضعوه وتعهدوه بالرعاية قرابة قرن، كانت فيه الكوفة منصرفة عنه بما شغلها من رواية الأشعار والأخبار، والميل إلى التندر بالطرائف من المُلَح والنوادر، ثم تكاتف الفريقان على استكمال قواعده، واستحثهما التنافس الذي جد بينهما واستحرت ناره ردحا من الدهر ينيف على مائة سنة"[1].

وعَدّ كثير من العلماء نَقط القرآنِ الكريم إعرابا له، وعَدُّوه أُولى خطوات الدرس النحوي العربي البصري وأهمَّها؛ ذلك أن الحركات الإعرابية التي وضعها أبو الأسود الدؤلي في المصحف الشريف هي بيان ضمني لوظائف الكلم ومواقعه في آيِ الذكر الحكيم، كما عَدوا ذلك الصنيع ذاته بداية للتفسير اللغوي للقرآن الكريم، ومضوا من خلال ذلك يتخيرون مصطلحاتهم ويطلقون تسمياتهم ويقَعِّدون قواعدهم، مسترشدين بعمل أبي الأسود الدؤلي في المصحف الشريف، مستلهمين منه القواعد والقوانين، " إنَّ ذلك كان حقا باعثا لهم على التساؤل عن أسباب هذا الإعراب، وتفسير ظواهره مما هيأ لبعض أنظار نحوية بسيطة، وكان طبيعيا بعد أن رسموا نقط الإعجام أن يضعوا له هذا الاسم وأن يضعوا لنقط أبي الأسود اسم نقط الإعراب تمييزا لهما بعضهما عن بعض، كما كان طبيعيا أيضا أن يطلقوا على علامات النقط الخاصة بالإعراب أسماء تفرق بينها، وقد اشتقوها من كلماته لكاتبه"[2]، فالفتحة من قول الدؤلي لكاتبه: إذا رأيتني فتحت فمي، والضمة من قوله له: إذا رأيتني ضممت فمي، والكسرة من قوله له: إذا رأيتني كسرت فمي، وهي أيضا مع كونها مصطلحات بسيطة إلا أنها مع ذلك ملاحظات طبيعية لا تعقيد فيها ولا زخرفة اتسمت بالعلمية والموضوعية.

ولقد كانت علوم الدين والقرآنِ الكريم الغالبةَ على النشاط العلمي لذلك الجيل المبارك من علماء العربية، وكانت السمةَ المميزة لأعمالهم العلميةِ تأليفا وتدريسا، فاصطبغت بها

[1]– محمد الطنطاوي، مرجع سابق، 31.

[2]– شوقي ضيف، مرجع سابق، 17.

دراساتهم اللغوية، وبرز في مدرستي العربية آنذاك – في البصرة والكوفة– علماء أجلّاء جمعوا بين علوم اللغة وعلم الدين، وخصوصا بين علمين اثنين نشآ مترادفين هما علم اللغة وعلم القراءات القرآنية، " وأول نحوي بصري حقيقي نجد عنده طلائع الأقْيسة والعلل هو ابن أبي إسحاق الحضرمي 117، وهو ليس من تلاميذ أبي الأسود، ولكنه من القراء، ومن الملاحظ أن جميع نحاة البصرة الذين خلفوه يسلكون في القراء، فتلميذاه عيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء وتلميذا عيسى: الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب كل هؤلاء من القراء، ويُكثر سيبويه في كتابه من التعرض للقراءات، وكأن ما كان بينها من خلافات في الإعراب هو الذي أضرم الرغبة في نفوس قراء البصرة كي يضعوا النحو وقواعده وأصوله"[1].

وهنا يتبين أن القرآن الكريم كان الدافع الأوَّل والأساسي للدرس اللغوي عند العرب، وأنه هو الذي بث شعاعه وأطلق شرارته، ولا عجب في ذلك فإن النفوس البشرية السليمة مُعلقة بالأمور السامية والسماوية بالنسبة إليها، ومهيأة ومجبولة على خدمتها وبذل المهج في سبيلها، اعتقادا منهم ويقينا بأن ذلك سبيل فلاحهم في الدارين، وأن بقاء لغتهم وحفظَها وخلودها من خلوده، وكتاب الفيدا عند الهنود مثال جيد لما سبق فقد كان الباعث لدراسة اللغة السنسكريتية، فعليه قامت وعلا شأنها، وامتد عطاؤها إلى العصر الحديث[2].

ولا يقدح في العربية قيامها على القرءان الكريم ولأجله – وذلك هو الفرق الجوهري الدقيق بين الدرس اللغوي العربي وبين اللسانيات الحديثة التي قامت لأجل دراسة اللغة وحدها مجردة عن أي اعتبار أو أساس آخر غير اللغة–، بل يزيدها شرفا وعزا، ويزيدها علمية ويقينية وموضوعية، فإن للقرءان الكريم خصوصيته المتفردة المتميزة في نهضة العربية، كما لا يقدح في القرآن الكريم وفي قراءاته القرءانية تأخر ضبطه عن زمن التنزل الأول، فإنما كان ضبطه بأجل ولحكمة، وقد وعد من أنزله سبحانه بحفظه وتكفل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

[1]– ينظر: شوقي ضيف، المرجع السابق، 18.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 19.

ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ آ 9 س الحجر، وما الدؤلي ولا سيبويه ولا الخليل ولا غيرهم إلا أسباب من أسباب حفظ كتابه الكريم، وذلك من أفضال القرآن الكريم ومنحه العجيبة، كيف أن الغرض من قيام العربية الأول كان لأجل القرآن الكريم، فإذا بالدرس العربي يزدهي ويزدهر وينضج حتى اكتمل، وتلك إن صح القول وجاز منقبة – وأي منقبة– للقرآن الكريم وللعربية معا، كون العربية درست أفضل دراسة مع أنها قرأت في ظلال كتاب ديني سماوي، سجد الجن وقريش بأساطينها جميعا لبلاغته إذ سمعوا سورة واحدة من سوره.

منهج المدرسة البصرية في دراسة اللغة:

اعتمد نحاة البصرة في تأصيلهم للدرس اللغوي العربي كسبيل أول على منهج السماع، ثم لما أن فرغوا من ذلك، واجتمع لديهم ما أمكنهم جمعه من فصيح كلام العرب، تحولوا إلى منهج آخر علمي في دراسة اللغة وهو منهج القياس، فشرعوا يُنَظِّرون لكلام العرب، فصاغوا له القوانين والقواعد، وسمَّوا كل فرع باسمه، ووضعوا لكل مصطلح حدًّا، ولكل حدٍّ بابًا، ومضَوا يصنِّفون الكتب، ويعقدون الحِلق والمجالس العلمية، وبدؤوا يناظرون، وكانوا " يتشددون في اطراد القواعد النحوية مع دعمها بالعلل والأقيسة، ومع الاستقراء الدقيق لقراءات القرآن الكريم مشتقين قواعدهم منها، ومما كان يجري على أفواه العرب الفصحاء في بوادي نجد والحجاز وتهامة"[1]، فاتُّهموا مذ ذلك الحين واتُّهموا بالمعيارية والبعد عن الوصفية، غير أن لعلماء البصرة في ذلك ما يُسوِّغُ لهم توجههم ، وهو أن غرضهم كان تعليميا، فهم إنما كانوا يعلمون الناس النحو ليُقوِّموا به ألسنتهم، ومما امتاز به البصريون اعتمادهم على البوادي الفصيحة، فلذلك كانت دائرة الاحتجاج اللغوي ورقعته عندهم ضيقة بالمقابل للكوفيين.

[1]– شوقي ضيف، مرجع سابق، 366.

2/ جهود مدرسة الكوفة في دراسة اللغة

على خلاف البصريين كان الكوفيون يجيزون الاحتجاج بالشعر المجهول قائله وباللهجات العربية البعيدة عن الفصاحة، وبلغة أهل الحضر، وقد كانوا بمنأى عن التقدير والتأويل على عكس منهج البصريين، ومن أهم ما أُثِر عن مدرسة الكوفة أنها عُنِيت عنايةً بالغة بعلوم الدين، ونعني بذلك على وجه أخص علم القراءات القرءانية، وأرجأت العناية باللغة إلى فترات لاحقة، فقد انشغلت بالفاضل عن المفضول، أي بعلوم الدين عن اللغة، – وإن كانت اللغة ذات شأن رفيع وهي معدودة من علوم الدين ومن علوم الآلة الواجب تعلمها، وتعلمها من الدين–، وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية رحمه الله:" ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التي أرسل بها وجب عليه ذلك فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، بخلاف ما لا يتم الوجوب إلا به، فإنه ليس بواجب"[1].

وقد" روى لنا التاريخ أن البصريين هم الذين وضعوه وتعهدوه بالرعاية قرابة قرن، كانت فيه الكوفة منصرفة عنه بما شغلها من رواية الأشعار والأخبار، والميل إلى التندر بالطرائف من المُلَح والنوادر، ثم تكاتف الفريقان على استكمال قواعده، واستحثهما التنافس الذي جد بينهما واستحرت ناره ردحا من الدهر ينيف على مائة سنة، خرج بعدها هذا الفن تام الأصول، كامل العناصر، وانتهى الاجتهاد فيه"[2]، وقلما نظرت الكوفة في قواعد النحو إلا ما سقط إلى بعض أساتذتها من نحاة البصرة من أقيسة عقلية، فقد كان منهج السماع والرواية المنهج الغالب على الكوفيين، إذ كانوا يتتلمذون لهم ويختلفون إلى مجالس محاضراتهم وإملاءاتهم[3]، ولقد" ظهر بالبصرة ثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءاتهم في العالم العربي، و هم عاصم وحمزة والكسائي"[4]، وكان الكسائيُّ أهمَّ علماء الكوفة ورئيسها، " وبعد الكسائي فأعلم

[1]– أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تح: علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان محمد، دار العاصمة، ط 2، السعودية، 1419هـ– 1999م، ج: 2، 53.

[2]– محمد الطنطاوي، مرجع سابق، 31.

[3]– ينظر: شوقي ضيف، مرجع سابق، 20.

[4]– شوقي ضيف، المرجع نفسه، 153.

علماء الكوفة بالنحو الفراءُ، وقد أخذ عن الكسائي، وهو عمدته، ثم أخذ عن أعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي مروان وغيرهما، وأخذ نُبذًا عن يونس وعن أبي زيد الكلابي"[1].

غير أن ما يوجب النظر أن البصريين على الرغم من تحامل بعض المتأخرين وجرأتهم عليهم هم أكثر تحرزا ودقة ويقينية، وهم أغزر علما من الكوفيين أنفسهم بما وطَّؤوه لأكنافهم من أساليب الصنعة النحوية وأهمها القياس، لذلك كثيرا ما كان " أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين وأهل البصرة يمتنعون عن الأخذ عنهم لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة، ويذكرون أن في الشعر الذي يرونه ما قد شرحناه فيما مضى، ويحملون عليه غيره"[2].

منهج المدرسة الكوفية في دراسة اللغة:

على غير منهج البصرة كان منهج الكوفة في دراسة اللغة قائما على القياس ولو على الشاذ من الأشعار، وعلى الإكثار من الرواية عن غير الفصحاء، ويميل أغلب الباحثين إلى أن منهج الكوفة كان منهجاً وصفيا بحتا، ولا يقدح ذلك في منهج البصريين كسيبويه، ولا يسمه بالبعد عن العلمية بالإغراق في المعيارية دون الوصفية، وقد أثبتنا قبل وسنثبت لاحقا بعون الله بأن منهج سيبويه والبصريين كان منهجا وصفيا، إلا أن ما كان يعوز الكوفيين هو الدقة والتحري في دراسة ظواهر اللغة فقد طبع التساهل بحوثهم اللغوية وطغا عليها.

[1]– التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، دار الوعي، د ط، الجزائر، 2008م، 66.

[2]– التواتي بن التواتي، المرجع نفسه، 66.

المبحث الثالث: الدراسات اللغوية في القرن الثاني الهجري (زمن سيبويه)

المطلب الأول: الخلاف النحوي بين الخليل وسيبويه

المطلب الثاني: حجِّيَّةُ أحرفِ القرآنِ وأوجهِ السُّنَّةِ في الكتاب، وأثرها اللساني في علم اللغة الحديث

المطلب الثالث: دعاوى التأثر في كتاب سيبويه وفي النحو العربي

المطلب الرابع: تعدد المدارس اللغوية بعد كتاب سيبويه

المطلب الأول: الخلاف النحوي بين الخليل وسيبويه

لقد كان من طبيعة العلم الثابتة وسنته المتأصلة الاختلاف والتنوع، وكان طبيعيًّا أن يخالف القرين قرينه، والتلميذ أستاذه؛ وإنما يعرف الرجال بالعلم، لا العلم بالرجال، فالعالم هو التابع للعلم، وليس العلم بتابع له، بل إن الخلاف حاصل في فروع الدين وفي علومه ومسائله، وذلك رحمة من الله تعالى بعباده المؤمنين وتيسير منه عليهم، فلقد اختلف الصحابة والتابعون والعلماء في جميع الأعصار والأمصار في مسائل الدين وقضاياه، فمن هنا ندرك أن الخلاف بين العلماء والمجتهدين لا يضير إذا لم يكن خلافا في الأصول الكبرى للعلم، فلذلك كان الخلاف بين سيبويه والخليل خلافا في فروع اللغة وجزئياتها، بما لا يعيب أبحاثهما الخلاف في مثله.

وقد أشاد الحاج صالح بمنهج سيبويه في الأخذ عن مخالفيه وفي رد مذاهبهم، واعتبره غاية في الأدب بين التلميذ ومعلمه فقال:" هذا ولم نعثر عند سيبويه إلا على اعتراضات قليلة بالنسبة لما كان سمعه من شيوخه، وهذا دليل لا على تسامح سيبويه وقَبوله لكلِّ ما يُروى له بل للأمانة العظيمة التي كان يتَّصف بها العلماء الأوَّلون"[1].

والناظر في أعمال عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية يدرك بالفعل عظمة قدر سيبويه في نفس هذا الأستاذ اللساني الذي أفنى عمره في البحث في اللغة العربية، وذلك بما يجده القارئ في هذه الأعمال اللسانية من الاستقراء الواسع لكتب الأولين وبالأخص كتاب سيبويه، ويدرك في الآن نفسه ذلك التقارب الكبير بين الخليل وتلميذه في مهمات قضايا اللغة وأمهاتها، وقد أبان العلامة عن وحدة التوجه اللغوي بين الخليل وسيبويه، ففي كتبه إشارات كثيرة إلى ذلك التقارب بينهما في عموم القضايا اللغوية، والذي يصل في كثير من الأحيان إلى مستوى التطابق، حتى يبدو سيبويه في بعضها مجرد ناقل لما سمع عن الخليل لولا تفصيله وشرحه الواسع لتلك القضايا اللغوية.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 276.

ولم يكن زعم عبد الرحمان الحاج صالح بأنهما رائدان لمدرسة واحدة محض ادعاء حين قال:" ونعتقد أن مثل هذه النظرية بالنسبة للعربية يمكن أن نجدها عند النحاة الأولين ممن أبدعوا كل المفاهيم والمناهج التحليلية العربية الأصيلة التي تنتمي إلى مدرسة الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه ومن تلاهما قبل نهاية القرن الرابع الهجري"[1]"، على أن ذلك لا يقف دون الخلاف بينهما، والحديث فيه مبسوط في الكتاب نفسه وفي كتب اللغة ورسائلها الكثيرة القديمة والحديثة.

وإن مما خالف فيه سيبويه معلمه الخليلَ مسائلُ في النحو وفي الصرف وفي اللغة أيضاً، وهي في مجملها خلافات راجعة إلى اختلافات في السماع وإلى أخرى في القياس، والخلاف في القياس أو (الاجتهاد) أكثر، فمن الخلاف بينهما: الخلاف في النسب إلى ظبيةٍ وأمثالِها كدمية أو فتية، قال سيبويه:" وحدثنا يونس أنَّ أبا عمروٍ كان يقول في ظبيةٍ: ظبييٌّ، ولا ينبغي أن يكون في القياس إلاَّ هذا، إذ جاز في أمية وهي معتلة، وهي أثقل من رميٍي، وأما يونس فكان يقول في ظبيةٍ: ظبويٌّ، وفي دميةٍ: دمويٍ، وفي فتيةٍ: فَتَوِيّ، فقال الخليل: كأنهم شبَّهوها حيث دخلتها الهاء بفعلةٍ؛ لأنَّ اللَّفظ بفعلةٍ إذا أسكنت العين وفعلةٍ من بنات الواو سواء"[2]، فرأي سيبويه في النسب إلى ظبيةٍ من رأيِ أبي عَمرو وهو أن يقال: ظبْيِيٌّ، وهو لا يرى إلا هذا، وقد خالف فيه يونس وشيخَه الخليلَ الذين يريان بأن النسب إلى ظبية هو ظبوي، فقد جعلاها كدَمويّ وفتويّ.

وفي هذه العبارة:" وكأن الخليل يراه"[3]، بيان واضح وإقرار من سيبويه بجواز الخلاف وإمكان وقوعه بين سيبويه والخليل في هذا الموطن، وهو ما يحتمل بل ويتأكد في كثير من المواطن غيره.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2007، ج: 1، 317.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 347.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 193.

ومما خالف فيه سيبويه الخليلَ أيضا القول في المصدر الذي ينتصب بإضمار الفعل، ومثل سيبويه لذلك بقول المرء سبحان الله على إضمار الفعل بدلا من قوله: أسبح الله تسبيحا، ورأى بأن قول القائل:" عَمْرَك الله وقِعْدَك الله، بمنزلة نَشْدَك الله وإن لم يُتكلَّم بنَشْدَك الله"[1] فهذا مذهب سيبويه، أما الخليل فقد رأى بأنه تصوير وتشبيه في الكلام على غير جهة إضمار الفعل، وذلك ظاهر في قول سيبويه:" ولكن زعم الخليل رحمه الله أنّ هذا تمثيلٌ يمثَّل به"[2].

ومن الخلاف بينهما أيضا الخلاف في الباء من بعد حسبك، فهي على رأي الخليل بمنزلة هو، وعلى رأي سيبويه للتوكيد، و بيان ذلك في قوله:" وإن قلت: مررتُ برجلٍ حسبُك به من رجلٍ فعلتَ أيضا، وزعم الخليل رحمه الله أن به ههنا منزلة هو، ولكن هذه الباء دخلت ههنا توكيدا كما قال: كفى الشيبُ والإسلامُ وكفى بالشيب والإسلام"[3].

وخالف سيبويه أستاذه الخليل في تسمية صوت الحرف، فكان يكتفي بتسميته صوتا في حين يعدد الخليل في تسمياته فيسميه تارة جرسا وتارة صوتا وتارة نغما، يقول الخليل رحمه الله:" جرس، الجَرسُ: مصدر الصَّوتِ المجروس، والجَرسُ: الصَّوتُ نفسه، وجَرَستُ الكلام: تكلَّمتُ به، وجَرسُ الحَرف: نغمة الصَّوتِ، والحروف الثلاثة الجُوفُ لا صوتَ لها ولا جَرسَ، وهي الواو والياء والألف اللَّينة، وسائر الحروف مَجرُوسةٌ"[4].

وممَّا أُثِر عنهما من الخلاف أيضا القول في" لن"، أبسيطة هي أم مركَّبة، " فذهب سيبويه، والجمهور إلى أنها بسيطة، وذهب الخليل، والكسائي، إلى أنها مركبة، وأصلها لا أنْ، حذفت همزة أنْ تخفيفاً، ثم حُذفت الألف لالتقاء الساكنين، وردَّ القول بالتركيب، بأوجه: الأول: أنَّ البساطة أصل، والتركيب فرع، فلا يُدَّعى إلا بدليل قاطع، والثاني: أنَّها لو كان أصلها لا أنْ

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 323.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 323.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 26.

[4]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج: 6، 56.

لمَ يجزْ تقديم معمول معمولها عليها، وهو جائز في نحو: زيداً لن أضرب، بهذا رَدَّ سيبويهُ على الخليل"[1].

واختلفا رحمهما الله في عدد مخارج الحروف اختلافا يسيرا، والعلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب، فأمَّا سيبويه فقد اكتفى على ما توصل إليه في أبحاثه الصوتية بستة عشر مخرجا[2]، وقد وافقه ابن السراج في هذا المذهب وجعل له عنوانا في كتابه:" الأصول في النحو" سماه:" مخارجُ الحروفِ ستةَ عَشَرَ"[3]، وهو مذهب كثير من القراء واللغويين كالشاطبيّ، وأمَّا الخليل فقد عدَّها سبعة عشر مخرجا ليوافق به الجمهور من أهل اللغة والتجويد كابن الجزري وغيره، ومذهب آخر ثالث هو مذهب كثير من العلماء كالفراء ويحيى و قطرب والجرمي، ويرى أنصار هذا الاتجاه بأن عددها أربعة عشر مخرجا[4].

ومما نقله سيبويه من خلافه النحوي مع أستاذه الخليل في باب:" من الجمع بالواو والنون وتكسير الاسم" الخلافُ في أصل كلمة نصارى وفي جمعها ووزنها، فأما الخليل فقد ذهب إلى أنها تجمع على نصرى ونصران، فقال:" وأمَّا النَّصارى فإنه جماع نصريٍ ونصران، كما قالوا: ندمان وندامى، وفي مهريٍ مهارى، وإنَّما شبَّهوا هذا ببخاتي، ولكنَّهم حذفوا إحدى الياءين كما حذفوا من أُثفية، وأبدلوا مكانها ألفاً، كما قالوا صحارى"[5]، وأما سيبويه فقد ذهب إلى أنها جمعت على نصرانة فقال بعدما أتم كلامه في بيان موقف الخليل:" هذا قول الخليل، وأمَّا الذي نوجِّهه عليه فأنَّه جاء على نصرانةٍ؛ لأنَّه قد تكلم به في الكلام، فكأنَّك جمعت نصران، كما جمعت الأشعث ومسمعا، وقلت نصارى، كما قلت ندامى، فهذا أقيس،

[1]– بدر الدين المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1413هـ– 1992م، 271.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 214.

[3]– أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، د ط، بيروت– لبنان، د ت، ج: 3، 400.

[4]– محمود بسة المصري، العميد في علم التجويد، تح: محمد الصادق قمحاوى، دار العقيدة، ط 1، الإسكندرية، 1425هـ– 2004م، 52.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 411.

والأول مذهبٌ، يعني طرح إحدى الياءين حيث جمعت وإن كانت للنسب، كما تطرح للتحقير من ثماني، فتقول: ثمينٌ، وأدع ياء الإضافة، كما قلت في بختيةٍ بالتثقيل في الواحد، والحذف في الجمع إذ جاءت مهارى وأنت تنسبها إلى مهرة، وأن يكون جمع نصران أقيس، إذ لم نسمعهم قالوا: نصريٌّ"[1].

المطلب الثاني: حجِّيَّةُ أحرفِ القرآن وأوجهِ السُّنَّةِ في الكتاب، وأثرها اللساني في علم اللغة الحديث.

كان للقراءات القرءانية وللحديث النبوي في كتاب سيبويه حضور جيد، وقد أوردهما سيبويه في مقام الاحتجاج، وجعل القراءات في المقام الأول من الحجية في كتابه إيمانا منه بأسبقيتها وأوَّليَّتها في ذلك، حيث قدمها على الحديث النبوي وعلى كلام العرب، ويثني عبد الرحمان الحاج صالح في معرض حديثه عن القراءات والحديث النبوي على سيبويه ثناء عاطرا في تعظيمه للوحيين الشريفين فيقول:" وقد أبدى سيبويه وشيوخُه وأصحابُه احتراما كبيرا إزاء المسموع كما أبدى كل النحويين قبله وكلُّ من جاء بعده تحفُّظًا كبيرًا أيضًا بالنسبة لصحَّة النقل"[2]، وهو يعني بالمسموع في هذا السياق القراءات القرءانية والسنة المطهرة كما أشرنا.

وتهيَّأ لسيبويه من السعة والرخصة في الاحتجاج بالقراءات ما لم يتهيأ للعلماء منذ القرن الثالث الهجري الذي دخل مرحلة جديدة عُرفت بتسبيع القراءات مع ابن مجاهد الذي يعد أول من سبَّع القراءات، ولا يخفى ما في تسبيعه من تضييق وحصر، وهو لا شك سبيل للتيسير على الناس في الآن نفسه، فكان التغيير منهجا ومصطلحا، ولم يرد في الكتاب كله ما ينفي الأخذ بالقراءات القرءانية والحديث النبوي، وإن لم يكن الاستشهاد بالقراءات فيه بعدد

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 411.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 99.

الاستشهادات بالشعر، فقد أحصى العلماء في الكتاب ألفا وخمسين بيتا، وهي كلُّها معلومة القائل غير خمسين منها.

ولقد اختلف النحاة عموما اختلافا شديدا في حجية القراءات القرآنية، والحديث النبوي الشريف، وزاد نكيرهم واعتراضهم على روايات الحديث النبوي، والبصريون في ذلك أشد تحريا، وممانعة ورفضا للاحتجاج بالوحيين الكريمين، وأكثر تخطئة للقرَّاء والمحدِّثين، " وقد عيب على البصريين حين أسرفوا في التأويل والتقدير في آيات القرآن التي تُخالفُ أقيستهم، وأحسب أنهم فعلوا ذلك لغرض طبيعي أملاه عليهم محاولة التناسب وإزالة التنافر بين النص وقواعدهم النحوية، وحدث مثلُ هذا عند الفقهاء عموما (المالكية والشافعية على وجه الخصوص)، ولا يعني أن هناك خطأ في النص أو فساده بل إظهارُه عن طريق التأويل والتقدير "[1].

أ/ الاحتجاج بالقراءات القرءانية:

على الرغم من قدسية القرءان الكريم وعلو مكانته في نفوس علماء اللغة المسلمين، حتى إنهم جعلوه أول مصادر الاحتجاج اللغوي والأدبي في العربية وأهمَّها، إلا أنهم امتنعوا من الاحتجاج ببعض الظواهر اللغوية في قراءاته القرءانية في مجال التقعيد للغة، فعاملوها معاملة الشاذ فحفظوها ولم يقيسوا عليها؛ لأنها بحسَبهم نماذج متفردة أو قليلة، لم توافق الشائع المطرد في كلام العرب، فمن ثمة رأوا عدم الأخذ بها دليلا لغويا في التقعيد والتقنين لعلوم اللغة، وهو ما أكده الحاج صالح واستدركه على النحاة المتأخرين فقال:" ظلم المتأخرون النحاة المتقدِّمين في هذا ظلما كبيرًا إذ لم يَعتمد أحد منهم كما سبق أن قلناه على القياس وحده للطعن على قراءة بل على عدم وجود لغة توجه بها هذه القراءة"[2].

[1]– التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، 94.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 221.

كما كانوا" يحتكمون إلى قواعدهم التي قعدوها هم، أو قوانينهم التي سنوها، فرد البصريون قراءات متواترة، كالفصل بين المضاف والمضاف إليه، وهي قراءة ابنِ عامر، وكالعطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وهي قراءة حمزة، وغيرها"[1]، وكذلك رد الكوفيون أيضا كثيرا من الأحرف في كتاب الله لخروجها عن أقيستهم، فقد كان للبصريين والكوفيين" موقف موحد لا يختلف فيه كوفي عن بصري، ولا يشذ فيه ابن خالويه أو ابن جني أو غيرهما عنهم، فهم جميعًا كانوا ينقدون القراءة ويقيسونها بمقاييسهم النحوية، وهم جميعًا كانوا لا يتورعون عن تخطئة القراءة، سواء كانت سبْعيه أو عشْرية أو شاذة أو غيرها، وهم جميعًا كانوا لا يقطعون القراءة إلا إذا وجدوا لها من كلام العرب نظيرًا"[2].

وبالجملة فإنّنا إذا نظرنا إلى موقف سيبويه من القراءات القرءانية كعالم من علماء المدرسة البصرية فإننا قد لا نجده مختلفًا كثيرًا عن منهج أبي عمرو بن العلاء والخليل ويونس بن حبيب وغيرهم، وإن لم يؤثَر عن سيبويه أيُّ ردٍّ أو تخطئة صريحةٍ لأيَّة قراءة قرآنيَّة، وأما ما ادَّعاه أحمد مختار عمر من تغليط سيبويه لقراءة النصب في قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ آ 78 س هود، فإنَّا نرى سيبويه فيها ناقلا لكلام غيره، ولم نر له فيها إقرارا ولا تصديقًا لمن نقل عنه أو موافقة له في تخطئته، وقد جاء عن الأستاذ مختار عمر في حديثه هذا في باب تخطئة اللغويين للقراء، قوله:" وقال سيبويه: احتبى ابن جؤية في اللحن في قوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾"[3]، فقد توهَّم أنَّ التخطئة كانت من سيبويه.

فالحق أن سيبويه فيها مجرد ناقل لحكم غيره والأظهر أنه قول أبي عمرو، وأن هذه العبارة لا تصح نقلا في كتاب سيبويه بل إن فيها غلطا وتصحيفا، وكان الورع من التخطئة في قراءات كتاب الله متجليا ظاهرا في عبارة سيبويه وتوجيهه، وكان سيبويه فيها مجرد ناقل أمين عن غيره، غير مصرح فيها برفض أو قبول، حين قال:" فزعم يونس أن أبا عمرو رآه

[1]– ياسين جاسم المحيميد، تلحين النحويين للقراء، مؤسسة الريان للطبعة والنشر والتوزيع، ط 1، د ب، 1426هـ، 20.

[2]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، 30.

[3]– أحمد مختار عمر، المرجع نفسه، 29.

لحن، وقال: احتبى ابنُ مروان في ذِه في اللحن، يقول: لحنَ، وهو رجل من أهل المدينة، كما تقول: اشتمل بالخطأ، وذلك أنه قرأ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ آ 78 س هود، فنصب"[1].

وكشف الحاج صالح بأن سيبويه كان عظيم الاجتهاد في توجيه القراءات القرءانية سعيا لإثبات حجيتها، ودفاعا عن أحقيتها وأولويتها في العمل النحوي لدى العلماء، وفي بيان شيء من ذلك يقول العلامة:" أما موافقة القراءة لكلام العرب فسيبويه يذكر الكثير من التوجيهات التي وجَّه بها القراءُ النحويوُّن وغيرُهم لبعض القراءات من تلك التي جاءت على لغة من لغات العرب"[2].

وهذا أحد اللسانيين المحدثين الذين يثبتون لسيبويه ورعه ووقوفه عند كتاب الله استدلالا بقراءاته القرءانية، نجده يصرّح:" كذلك نرى سيبويه يستشهد بالقرآن وببعض القراءات ما تواتر منها وما لم يتواتر، ولو قيس استشهاده بالقرآن باستشهاده بالشعر لوجدنا الشعر قد غلب عليه واستبد بجهده، ذفشواهده الشعرية كما ذكر أبو جعفر النحاس في شرحه للشواهد (1050)، وهي في النسخة المطبوعة بمصر (1061)، على حين أن استشهاده بالقرآن لم يتجاوز (373)"[3]؛ أي آية أو ما دونها أو ما يزيد عنها، وأقل الاستشهاد من القرآن الكريم ما كان بأداةٍ أو بحرفٍ من كلمة، ولنا أن ندرك ونتفكر هنا في هذا التوسع في الاستدلال بالقراءات القرءانية بمتواترها وشاذها، وهذا في الحقيقة نادر جدا في جمهور اللغة غير سيبويه.

وأما أهل الكوفة فقد كانوا أقل تخطئة للقراءات، وكانوا يقدمون القراءة على القاعدة اللغوية، فهذا الفرَّاء أحد أئمة المدرسة الكوفية يصرح قائلًا:" اتّباعُ المصحف إِذَا وجدتُ لَهُ وجهًا من

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 397.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 205.

[3]– محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، د ط، القاهرة، د ت، ج: 1، 6.

كلام العرب وقراءة القرّاء أحَبُّ إليّ من خلافه، وقد كَانَ أَبُو عَمْرو يقرأ ﴿إِنْ هَذَينِ لَسَٰحِرَانِ﴾ آ 63 س طه، ولست أجترئ عَلَى ذَلِكَ وقرأ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُونَ ﴾، آ 10 س المنافقون، فزاد وَاوًا فِي الكتاب ولست أَسْتحبُّ ذَلِك"[1]، أما البصريون فقد بنوا قواعدهم على المطرد والأفصح والأشيع والأقيس، " أمَّا إذا كانت الغاية إثبات وجود اللفظ في اللغة، أو ضبط نطقه، أو ذكر معناه، أو غير ذلك من النتائج الجزئية التي لا تعمم حكما، ولا تبني قاعدة إذا كانت الغاية كذلك فلا يهم كثرة النماذج اللغوية الموافقة لهذه القراءة أو قِلَّتُها، كما لا يهم أن تكون القراءة هي النموذج الوحيد المنقول إلينا"[2].

وقد أيقن ذلك الرعيل من علماء العربية أن هذا الأمر أي جمع اللغة والتقعيد لها والاحتجاج أمر جلل لا ينبغي فيه بحال إعمال العاطفة أو الميول أيا كانت؛ لأن ذلك يُفسِد المسعى ويَحيدُ به عن غايته ومساره، ثم إنهم أكثر علما باللغة ممن تلَاهم، وأشد منهم ورعا وإجلالا لدينهم، ففيهم علماء عربٌ فصحاء خالطوا الأعراب وعاصروا الصحابة الكرام ورووا عنهم، والأصل في القراءة أنها كلَّها فصيحة صحيحة وهي في ذلك متساوية في الفصاحة؛ لأنَّ مصدرها ربانيّ.

ومن أمثلة تخطئة اللغويين للقراء:" أنهم كانوا يعيبون قراءة حسين الجعفي ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ آ 22 س إبراهيم، فقال خلاد: حدّثنا حسين الجعفيّ قال: وقلت لأبي عمرو بن العلاء: إن أصحاب النحو يلحّنوننا فيها، فقال: هي جائزة أيضاً لا نبالي إلى أسفل حركتها أو إلى فوق، ثم ذكر بقية الطرق"[3].

[1]– يحيى بن زياد الفراء، معاني القرءان، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط 1، مصر، د ت، ج: 2، 294.

[2]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، 25.

[3]– عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: محمد نبيل طريفي وإيميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت، 1998م، ج: 4، 397.

وازداد نكير النحاة واللغويين على قراءة حمزة الزيات لمخالفتها أصولهم النحوية في مواطن كثيرة فردوا فيها كلمات عدة كجره كلمة ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ آ 1 س النساء، وهي قراءة مجاهد والنخعي وقتادة وأبي رزين ويجبيى بن وثاب والأعمش وأبي صالح أيضاً، قال الفراء في معاني القرآن:" حدثني شريك بن عبد الله عن الأعمش عن إبراهيم النخعي أنه خفض" الأرحام" فقال: هو كقولهم بالله والرحم، وفيه قبح؛ لأن العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض وقد كني عنه، وإنما يجوز هذا في الشعر لضيقه"[1]، ووصف الزجاج قراءة الكسر في كلمة" مُصۡرِخِيَّ" وصفا نابيا جدا، وقال في تخطئة كلمةٍ من سورة إبراهيم عليه السلام:" وليس قول من قال: ﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ آ 47 س إبراهيم بشيء، ولا: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ آ 137 س الأنعام بشيء، قال الفرّاء: هذا باطل ونحويّو أهل المدينة ينشدون قوله: زجّ القلوص أبي بمزاده، والصواب: زجّ القلوص أبو مزاده"[2]، ومرد ذلك إلى أن النحاة كانوا يمنعون الفصل بين المتضايفين " بين المضاف والمضاف إليه" في غير ما ضرورة شعرية، فاستهجنوا هذا الأسلوب في محكم التنزيل، إذ خالف قياسهم، وما نعتُ أبي علي الفارسي هذه القراءة بأقل نكيرا إذ وصفها بالقبح وغالى في النكير عليها.

وإلى نحو ذلك ذهب أحد ألمع أئمة التفسير وأساطينه وهو ابن جرير الطبري إلى القول فيها:" والقراءةُ التي لا أستجيز غيرها: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ آ 137 س الأنعام بفتح الزاي من" زَيَّنَ"، ونصب القتل بوقوع" زَيَّنَ" عليه، وخفض" أَوۡلَٰدَهُمۡ" بإضافة القتل إليهم، ورفع الشركاء بفعلهم؛ لأنهم هم الذين زينوا للمشركين

[1]– عبد القادر بن عمر البغدادي، المرجع السابق، ج: 5، 125.

[2]– عبد القادر بن عمر البغدادي، المرجع نفسه، ج: 4، 386.

قتلَ أولادهم، على ما ذكرتُ من التأويل، وإنما قلت: لا أستجيز القراءة بغيرها، لإجماع الحجة من القَرَأَةِ عليه، وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد، على فساد ما خالفها من القراءة"[1].

وتعد هذه الآية من أبرز ما أشكل على النحاة واللغويين تعليله وفهم وجهه من اللغة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ آ 137 س الأنعام، وقد بين أبو جعفر النحاس وجه إعرابها في إعرابه، فقال فيها:" وهذا باب من النحو دقيق قد ذكره سيبويه، وذلك أنه يجوز ضرب زيد عمرو؛ لأنك إذا قلت: ضرب زيد، دل على أنه له ضاربا، والتقدير ضربه عمرو، وكذا قتل أصحاب الأخدود قتلتهم النار، وأنشد سيبويه من الطويل:

ليبك يزيد ضارع لخصومة ... وأشعث ممن طوحته الطوائح

أي: يبكيه ضارع"[2].

ومما أنكره اللغويون على نافع ومن وافقه من القراء إبدالُهم الهمزة في كلمة معائش ياء خالصة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ آ 20 س الحجر، ورَمَوا نافعا من أجل ذلك بالعجمة، وبمجانبة الجادة في علم العربية، وقال فيها الزمخشري هي:" معَايِشَ بياء صريحة، بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة، أو إخراج الياء بين بين"[3]، وقد قُرئ أيضا: معائش بالهمزة على التشبيه، وقُرئ بالهمز على التشبيه بشمائل، وقد ذُكِر في الأعراف وهي شاذة، وقراءة

[1]– محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بدار هجر: عبد السند حسن يمامة، (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان)، ط 1، د ب، 1422هـ- 2001م، ج: 9، 577.

[2]– أحمد بن محمد أبو جعفر النَّحَّاس، إعراب القرآن، الحواشي والتعليق: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1421هـ، ج: 5، 120.

[3]– محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التأويل وغوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط 3، بيروت، 1407هـ، ج: 2، 574.

الجمهور بالياء؛ لأنها في المفرد أصلية؛ لأن مفرده معيشة من العيش؛ فالياء أصلية، والمد في المفرد لا يقلب همزاً في الجمع إلا إذا كان زائداً في المفرد، قاله في الجمل"[1].

وقد كان أئمة هذه الأمة وثقاتُها ينهون عن المفاضلة بين القراءات القرءانية، فالقرءان الكريم هو أصل واحد، وهو بقراءاته كل متكامل، قد قال فيه ربنا تبارك وتعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ آ 7 س آل عمران، إلا أن ذلك لم يمنع عددا من علماء اللغة من التمييز بين قراءاته، فألفيناهم يُصوبون هذه القراءة ويخَطِّئون الأخرى، ويُرَجحون هذه القراءة على الأخرى، ولا ينفكون يُعملون أقيستهم العقلية على أقدس النقول الدينية والسماوية، ويستعملون في ذلك عبارات من مثل: أفضل، أو أرجح، أو أفصح...، من ذلك أن ابن كثير قرأ:" ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ آ 1 س المسد ساكنةَ الهاء، وقرأ الباقون بفتح الهاء وهما لغتان كالشمَع والشمْع والنهَر والنهْر"، وبعد أن ساق عبد الرحمان بن محمد هذا الكلام أردفه قائلا:" واتفاقهم على الفتح يدل على أنه أجود من الإسكان"[2].

ولا بد أن من أهم أسباب تحريم العلماء المفاضلة بين القراءات، على غرار ثبوتها وتواترها وصحتها سندا وموافقتها للرسم العثماني وللعربية، جملة من العوامل أو المحاذير الشرعية كالورع والخوف من التقول على الله تعالى بغير علم والتألي عليه سبحانه، وكالخوف من جرائر فتح باب تخطئة القراءات على الناس، وهذا السبب هو الذي حدا بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى جمع الناس على المصحف الإمام، وعلى الرغم من ذلك فقد عزَّ علم القراءات اليوم وحُرِمه أكثر الناس حين أصبح هذا الفرع من علوم القرآن الكريم تخصصا مستقلا بذاته.

[1]– محمد صديق الحسيني البخاري، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعه وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصريَّة للطباعة والنّشر، د ط، صيداَ– بيروت، 1412هـ– 1992م، ج: 7، 158.

[2]– عبد الرحمان أبو زرعة بن زنجلة، مرجع سابق، 776.

ومما رُدَّ من القراءات وأشكل على أهل النحو واللغة توجيهه قراءة الكسر في آية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ١﴾ آ 1 س النساء حيث " اتفق القراء على نصب " وَالْأَرْحَامَ" إلَّا حمزة فإنه خفض الميم نَسقًا على الهاء في" بِه"، قال أبو منصور: القراءة الجيدة" وَالْأَرْحَامَ" بالنصب، المعنى: اتقوا الأرحامَ أن تقطعوها، وأمَّا خفض" الأرحام" على قراءة حمزة فهي ضعيفة عند جميع النحويين، غير جائزة إلا في ضرورات الشعر؛ لأن العرب لا تعطف على المكنِيّ إلا بإعادة الخافض، وقد أنشد الفراء بيتا في جوازه:

تُعَلَّقُ في مثلِ السَّوارِي سيوفُنا ... وما بينها والأرضِ غَوْطٌ نَفانِفٌ"[1].

وأنكر المبرد هذه القراءة وشنع على من يقرأ بها حتى قال قولة فظيعة منكرة إذ قال:" لو قرأ الإمام بهاته القراءة لأخذت نعلي وخرجت من الصلاة، وهذا من ضيق العَطنِ وغرورٌ بأنَّ العربية منحصرة فيما يعلمه، ولقد أصاب ابن مالك في تجويزه العطف على المجرور بدون إعادة الجارِّ، فتكون تعريضا بعوائد الجاهلية، إذ يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة ثم يهملون حقوقها ولا يصلونها، ويعتدون على الأيتام من إخوتهم وأبناء أعمامهم، فناقضتْ أفعالُهم أقوالَهُم"[2].

وقد كان سيبويه زعيم مدرسة البصرة يحتج بالقراءات القرءانية ويجتهد في توجيهها، مكثرًا من التعرض لها[3]، وإن كان في كثير من الأحيان يعتمد التأويل في دراسة ظواهرها، غير أن ذلك لا ينفي سعيه إلى إعمالها والانتصار لها، بل إن ذلك هو منهج أسلافه في توجيه القراءات وتصويبها بدءا بابن عباس رضي الله عنهما، إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وأبي عمر بن العلاء، إلى يونس بن حبيب وأستاذه الخليل، ثم إلى من عاصره

[1]– محمد بن أحمد بن الأزهري، معاني القراءات، ج: 1، 290.

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج: 4، 218.

[3]– ينظر: شوقي ضيف، مرجع سابق، 18.

كالكسائي زعيم الكوفة، وأكثر هؤلاء هم أصحاب قراءات قرءانية صحيحة، ثم إلى من تلاهما حتى زماننا هذا.

وهذا عَلَم من خيرة تلاميذ عبد الرحمان الحاج صالح وهو الدكتور التواتي بن التواتي يكشف عن موقف سيبويه من القراءات القرءانية قائلا:" وإن موقف النحاة من القراءات يترجمه إمامهم سيبويه، فقد كان وفيا لسنة القراءة، أمينا على منهج أستاذه الخليل في تصحيح ما يروى من وجوهها، لا يبخل عن وصف بعضها بالقوة أو الحسن ما دامت توافق الذائع المعروف من كلام العرب، الذي توخى فيه ضبط لغة القرآن وصونها من التحريف"[1].

وقد بلغ الأستاذ غاية الجهد في استجلاء مواقف سيبويه في الكثير من القضايا اللسانية عظيمة القدر على مر العصور وفي اللسانيات العربية الحديثة بالأخص، من ذلك بيان الموقف الفعلي لسيبويه من القراءات، حيث صرح الأستاذ قائلا:" غير أن سيبويه لم يبين موقفه من القراءات أو الكشف عن وجوهها، وإنما كان في سبيل عرض الأصول النحوية التي وجدها في لغة العرب، بل نراه لا يتردد في قبول القراءة الشاذة المخالفة للرسم العثماني، ويوسع لها في بناء الأصول النحوية وفي طرائق الاستدلال مثل سائر المصادر ما دامت توافق قياسه"[2].

وقد صرح سيبويه نفسُه بأن الواجب المصير إلى القراءة والحفاظ على كيفيتها وصورتها التي تنزلت بها والالتزام بها وبمنهجها اللغوي في التقعيد، محذرا من عواقب ردّها أو التعرض لها بالتخطئة والتغليط فكان مما قاله في هذا الخصوص:" فأما قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ آ 49 س القمر فإنّما هو على قوله: زيداً ضربتُه، وهو عربيٌّ كثير، وقد

[1]– التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، 96.

[2]– التواتي بن التواتي، المرجع نفسه، 96.

قرأ بعضهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ آ 17 س فصلت، إلاَّ أنّ القراءة لا تُخالَفُ؛ لأنّ القراءة السُّنَّةُ"[1]، فقد أتت كلمة ثمود في هذه الآية على الابتداء.

ولم يكن يُفَرَّق في زمان سيبويه بين المتواتر والشاذ من القراءات القرءانية في الاستدلال اللغوي، فلم يكن سيبويه يَرُد قراءات القرآن الكريم إذا وافقت أحد وجوه العربية الفصيحة الجائزة، ولو خالفت قانونه النحوي أو اللغوي[2]، وهو" لا يذكر القراء بأسمائهم، وقد يذكر قارئا اعتُبِر فيما بعد من قراء الشواذ، وقد يُسنِدُ القراءة إلى الكوفيين وأهل الحجاز أو يستعمل عبارة" قرأ قوم"، أو" قرأ أناس"، أو" قرأ الناس" أو " قرأ بعضُهم"، ومن أمثلة ذلك اصطلاحاته:" ومثلُ ليُبْكَ يزيدُ، قراءة بعضهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ آ 137 س الأنعام، رفْع " الشركاء" على" مثلُ" ما رفع عليه ضارعٌ"[3]، وقد يرجح ما في القراءات الشاذة، ويُخَرِّج بعض المسموع على ما ورد فيها، أي" القراءات الشاذة"[4]، ومن أمثلته أيضا قول صاحب الكتاب:" ألا ترى أنهم قرءوا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ آ 17 س فصلت إلاَّ وقبله نصب، وذلك؛ لأنها تصرف الكلام إلى الابتداء، إلا أن يوقع بعدها فعل، نحو أما زيدا فضربت"[5]، وكذا قوله:" بلغنا أن بعض القراء قرأ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ آ 80 س الأنعام، وكان يقرأ" فَبِمَ تُبَشِّرُونِ"، وهي قراءة أهل المدينة وذلك؛ لأنهم استثقلوا التضعيف، وقال عمرو بن معد يكرب:

تَراه كالثَّغام يعلُّ مِسْكاً ... يسوء الفاليات إذا فَلَيْني

يريد: فَلَيْنَني"[6].

---

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 148.

[2]– ينظر: شوقي ضيف، مرجع سابق، 19.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 290 .

[4]– التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، 100.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 95 .

[6]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 520.

وهذه أمثلة على اعتماد سيبويه القراءات القرءانية الشاذة في قياسه وتقعيده للغة العربية، فيقول سيبويه:" وكان عيسى يقرأ هذا الحرف:" ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ آ 10 س القمر، أراد أن يحكي ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ آ 3 س الزمر، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ آ 3 س الزمر، كأنه قال والله أعلم: قالوا ما نعبدهم، ويزعمون أنها في قراءة ابن مسعود كذا، ومثل ذلك كثير في القرآن، وتقول: أول ما أقول: أني أحمد الله، كأنك قلت: أول ما أقول: الحمد لله، وأن في موضعه، وإن أردت الحكاية قلت: أول ما أقول: إني أحمد الله"[1].

ومن استشهاده بالشاذ أيضا، واجتهاده في الدفاع عنه أيضا آية من كتاب الله قرأها لابن مسعود، وقد جاء فيها المصدر على غير الفعل، لكنه من معنى الفعل، يقول سيبويه:" وزعموا أن في قراءة ابن مسعود: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ آ 25 س الفرقان؛ لأن معنى أنزل ونزَّل واحد، وقال القطامي:

وخَيرُ الأمرِ ما استقبَلَت منهُ ... وليس بأن تَتَبّعهُ اتِّباعًا

لأنَّ تتبعت وأتبعت في المعنى واحد، وقال رؤبة:

وقد تطَوّيتُ انطِواءَ الحِضْبِ"[2].

ومما قرئ من القرآن الكريم شاذا أيضا، وهو في الكتاب دليل لغوي على اعتماد سيبويه على القراءات القرءانية الشاذة في تقعيده نماذجُ من القرءان الكريم، بيَّن سيبويه بعضها في حديثه عنها، وهي كلمات قرءانية في أوائل بعض السور، يقول سيبويه:" واعلم أنه لا يجيء في كلامهم على بناء حاميم وياسين، وإن أردت في هذا الحكاية تركته وقفا على حاله، وقد قرأ بعضهم:" ياسينَ والقرآنِ"، و" قافَ والقرآنِ"، فمن قال هذا فكأنه جعله اسما أعجميا، ثم قال: أذكر ياسينَ، وأما صاد فلا تحتاج إلى أن تجعله اسما أعجميّا؛ لأنَّ هذا البناء والوزن

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 143.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 82.

من كلامهم، ولكنه يجوز أن يكون اسما للسُورة فلا تُصرفه"[1]، فاستشهاد سيبويه بهاتين الآيتين وتعليله لوجهيهما، دليل تجويزه إياهما وإن لم يقرأ بهما.

ب/ الاحتجاج بالحديث النبوي:

امتنع أكثر أهل اللغة من النحاة واللغويين عن الاحتجاج بالحديث النبوي في تقعيدهم للغة العربية، ورأوا أنه لا يقوى على أن يكون نماذج لغوية جيدة ومناسبة للقياس والتقعيد في اللغة، لِما طاله من نسيان من الرواة ومن رواية له بالمعنى، أي بغير لفظ النبي أو الصحابي، والصحابة كلهم عدول في اللغة، لكن الغالب على الحديث النبوي برأينا هو الصحة والسلامة من التحريف والتبديل، خصوصا ما تعلق بالصحيحين من كتب الحديث، وما تعلق بالأحاديث القدسية والأحاديث المتواترة، فمن نظر بعينه الباصرة رأى بأن هذا الرأي أكثر سدادا وحكمة، فإن المبالغة في إقناع العامَّة بأن الحديث من لفظ غير النبي وأنه ليس للنبي من الحديث إلا المعنى، وتهويل ذلك أمر خطير جدا قد يُعَرض وينذر بهجر الدين جملة واحدة[2]، وذلك من خلال القدح في سند الحديث النبوي، ولذلك كان الحديث غرض المغرضين الأكبر من المستشرقين وغيرهم، ولم تكن العربية لتستهدف بهذه الصور لولا تمثيلها وتحمُّلها لرسالة القرءان والسنة.

وإن القول بجواز الخطأ واحتمال وروده في الحديث النبوي الشريف قد يَحمل الناس على خروجهم عن الأحكام الشَّرعيَّة التي تترتب عنه، ولا يستطيع أي عاقل أن ينكر بأن تغيير المبنى اللغوي لا يؤثر على المعنى الفقهي والعقدي، فهذا بيان لوجه الصواب في أمر الاحتجاج اللغوي بالحديث النبوي طالما كان رواته من ثقات هذه الأمة، وهم الموكولون بحفظ ما استحفظوا من شرع ربهم سبحانه، وإنما هم أسباب من أسباب ذلك والله خير حافظا، وفيه سد لباب الذريعة، وإلا فقد روى الإمام التّرمذيّ بسنده في علله فقال:" حدثنا أبو

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 257.

[2]– ينظر: محمد بن عبد الله الإمام، المؤامرة الغربية على اللغة العربية، مكتبة الإمام الألباني، ط 1، صنعاء– اليمن، 1430هـ– 2009م، 90.

عمار الحسين بن حريث أخبرنا زيد بن حبَّاب عن رجل قال خرج إلينا سفيان الثوري فقال: إن قلت لكم: أنا أحدثكم كل ما سمعت فلا تصدقوني، إنما هو المعنى، أخبرنا الحسن بن حريث قال: سمعت وكيعا يقول: إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس، قال أبو عيسى: وإنما تفاضل أهل العلم بالحفظ والإتقان والتثبت عند السماع مع أنه لم يسلم من الخطأ والغلط كبير أحد من الأئمة مع حفظهم"[1]، وقال الإمام السيوطي:" من نظر في الحديث أدنى نظر عَلم عِلم اليقين أنهم إنما يروون بالمعنى"[2].

ومن حجج المانعين للاستشهاد بالحديث أنَّ روَّاتها أعاجم، لا يتقنون اللغة العربية، وهم حديثوا عهد بالإسلام، لكن اعتراضنا في هذا الخصوص أن العجمة قد لا تقف مانعا من الرواية بالمعنى في السنة العطرة، وبين أيدينا أعظم شاهد على ذلك وهو سيبويه الفارسي الأعجمي، فما جاز لسيبويه من أمره في تعلم اللغة وتأليف الكتاب يجوز لغيره من رواة الحديث، كالبخاري ومسلم وغيرهما في رواية الحديث، فإن عجمة سيبويه لم تمنعه من أن يؤلّف في اللغة العربية أعظم كتبها، بل إنها لم تمنعه من أن يعلم أهل العربية لغتهم ويؤمهم في ذلك، وهم يقرون له به ويعترفون بل ويفخرون.

وفي الحق إن بصريي القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات، وهي أمثلة قليلة لا يصح أن تتخذ منها ظاهرة، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ ويؤولونها ما وجدوا إلى التأويل سبيلا، لكي يخضعوها ويطوعوها إلى أقيستهم، وكانوا لا يحتجون بالحديث النبوي ولا يتخذونه إماما لشواهدهم وأمثلتهم؛ لأنه روي بالمعنى إذ لم يكتب ولم يدون إلا في المائة الثانية للهجرة، ودخلت في روايته كثرة من الأعاجم[3].

[1]– محمد بن عيسى الترمذي، العلل الصغير، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، د ط، بيروت، د ت، 746.

[2]– جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو وجدله، تح: محمود فجال، وسمى شرحه (الإصباح في شرح الاقتراح)، دار القلم، ط 1، دمشق، 1409هـ– 1989م، 82.

[3]– ينظر: شوقي ضيف، مرجع سابق، 19.

وقد تهيأ لنا في بعض قراءتنا للكتاب التعرف على عدد من الاستشهادات الحديثية المقتضبة فيه، أوردها سيبويه بما يشبه التضمين الجيد المحمود في غير ما إشارة أو عزو للنبي أو للصحابي، بما قد يوحي للقارئ بأنها من لفظ غير النبي صلى الله عليه وسلم من العلماء الذين سمع منهم سيبويه أو حتى من الأعراب الفصحاء الذين روى عنهم، بل كان ذلك صريح لفظ سيبويه إذ نسبها للعرب بهذا المصطلح على إطلاقه[1]، ولعل الأجدر في رأينا ها هنا أن لا يعدل سيبويه بهذا القدر الواسع الكثير عن التصريح بكونها للنبي لينسبها للعرب على عمومهم وإطلاقهم وهو عالم بمصدرها أولا، ثم بقيمتها ووزنها العلمي في نسبتها الحقيقية ثانيا، فعلى الجزم بأن النبي الكريم عربي كما وصف سيبويه بهذا المصطلح على إطلاقه لا على خصوصه فهذا مما يشبه التورية، وكان الأصل أن يقول سيبويه رحمه الله على الأقل أحيانا:" قال النبي صلى الله عليه وسلم" طالما أن لفظ النبي لا يعلوه كلامُ عربيٍّ غيرِه أبدا، فهو في المنزلة الثانية بعد القرءان الكريم.

وقد أرجع بعض الباحثين السبب في ذلك إلى اعتقاد سيبويه روايتها جميعا أو أكثرها بغير لفظ النبي صلى الله عليه وسلم، ورأوا بأن ذلك هو سبب امتناع العلماء الخالفين لسيبويه عن الاحتجاج بالحديث النبوي فتابعوه على ذلك انتحاء واحتذاء في عدم احتجاجهم به.

ففي باب من أبواب المصادر سمَّاه سيبويه بالقول:" هذا بابٌ أيضاً من المصادر يَنتصب بإضمار الفعل المتروك إظهارُه" يورد سيبويه في كلامه جزءا من الحديث النبوي الذي رواه مسلم إذ قال:" حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ الْعَبْدِيُّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، أَنَّ عَائِشَةَ نَبَّأَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ:" فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ

[1]– ينظر: عماد السيد محمد بن إسماعيل الشربيني، كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، ط 1، دار الكتب المصرية، 1422هـ– 2002م، 432.

وَالرُّوحِ"[1]، فكان هذا الحديث تضمينا ظاهرا في كلام سيبويه إذ يقول:" ومن العرب من يَرفع فيقولُ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ " رَبَّ الملائكة والرُّوح"، كما قال: أهلُ ذاك وصادقٌ واللهِ، وكلُّ هذا على ما سمعنا العربَ تَتكلَّم به رفعا ونصباً.

ومثلُ ذلك: خَيْرُ ما رُدَّ فى أهلٍ ومالٍ، " وخَيْرَ ما رُدَّ فى أهلٍ ومالٍ"، أُجري مُجرى خيرَ مقدمٍ وخيرُ مقدمٍ"[2]، فإن لم يكن النبي القائل هنا فمن أين للعرب أن تسمي سبُّوحا قدُّوسًا وأسماء الله توقيفية على الصحيح، فلا يد للإنسان أن يصطلح على ذاته سبحانه اسما كأن يقول: سبُّوحًا أو قدُّوسًا أو غيرهما مما شاء من اصطلاحاته بنفسه، وما من شك في أنه صلى الله عليه وسلم المقصود عند سيبويه، فلئن كان بعض مما سوى هذا الدعاء من الكلام جائزا وروده عن غير النبي من العرب لكونه من جنس سائر الكلام العادي الجزل الذي تتحدث العرب بمثله، فإن احتمال ورود مثل هذا الدعاء عن غير النبي بعيد.

وفي" باب ما يكون فيه هو وأنت وأنا ونحن وأخواتهن فصلا" يقول سيبويه:" وأما قولهم:" كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة، حتى يكون أبواه اللذان يهودانه وينصرانه"، ففيه ثلاثة أوجه: فالرفع وجهان والنصب وجه واحد"[3]، استدل سيبويه بهذا الطرَف من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري إذ قال:" حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ"[4].

---

[1]– مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ط، القاهرة، د ت، ج: 1، 353.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 327

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 393.

[4]– محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: جماعة من العلماء، ط: 1، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ، ج: 2، 100.

على أنه لا يلزم برأينا – كما سبق– من هذه النماذج الحديثية التي جاءت في الكتاب على قلة تضمينا وتعريضا؛ لتجميل الخطاب وتقويته عدُّ سيبويه من المكثرين من الاحتجاج بالحديث النبوي.

المطلب الثالث: دعاوى التأثر في كتاب سيبويه وفي النحو العربي

نشأ الدرس اللغوي العربي نشأة متميزة جدا عن باقي اللغات العالمية، فلقد كان العرب في عزلة تامة عن غيرهم من الأمم، فلا مورد لهم للعلم فيتعلموا منه، ولا كتاب لهم فيهديهم غير حنيفية إبراهيمية حرَّفوها، وتؤكد الدراسات التاريخية أنهم كانوا كذلك أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، وذلك مَثَّلهم ووصفهم في الكتب السابقة، فكان ذلك من أسباب حسد اليهود للعرب فقالوا: أيُبعث من العرب الأميين نبي أمي، وفينا العلماء والربانيون ونحن أهل الكتاب ومنا أكثر الأنبياء!؟، وبذلك وصف الله تعالى العرب في محكم تنزيله فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ آ 2 س الجمعة وظاهر السنة يبين أن العرب لم يكونوا أهل قراءة وكتابة وعلوم، وإنما كانوا يرتجلون الكلام ارتجالا، " بل كانت تشيع الأمية بينهم، والذين كانوا يعرفون الكتابة – ولا نقول: يحْسنونها– لم يكن عددهم يزيد في كل من مكة والمدينة على أصابع اليدين، وحتى هؤلاء لم تكن قدراتهم تزيد على الكتابة التدوينية"[1].

كان الشعر الغالبَ على أسلوب كلامهم وعلى تعبيرهم، هذا في العموم، فإن فحول الشعر العرب كانوا يتبارون في قول الشعر، وقد علقوا على الكعبة المشرفة معلَّقاتهم التي مثلت أجود شعرهم، فلو كان العرب أهل كتابة وقراءة وعلوم لكان حريا بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يتعلم منهم القراءة والكتابة، لكن ولحكمة إلهية بالغة لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يخط من كتاب ولا يقرأه، وقد وصفه الله تعالى بذلك في كتابه الكريم فقال في شأنه:﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ آ 157 س

[1]– مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، ط 6، بيروت– لبنان، 1991م، 62.

الأعراف، وقال أيضا: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ آ 158 س الأعراف، ويوم بدر أمر النبي صلى الله عليه وسلم أسراه من المشركين أن يُعلموا المسلمين القراءة والكتابة لقاء حريتهم، بأن يُعلِّم كلٌّ واحد منهم عشرة من المسلمين، فهذا دليل على قلة الكتابة والقراءة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن كنا لا نُعدَم أن نجد من الصحابة من يكتب ككتبة الوحيين الشريفين، لكن ذلك نادر جدا وعزيز في زمنهم، ولم يكن للعرب كبير اتصال بمن حولهم من الأمم كالفرس والروم إلا رحلتي الشتاء والصيف.

فإذا كان ذلك هو الغالب على أهل العربية فبأي شيء تأثروا بغيرهم في فن الكتابة وفي درسهم اللغوي عموما وللتأثر عوامل كثيرة وأسباب عديدة تهيئ له وتعين عليه، وأهمها الاتصال والتقارب؟ " لقد تطورت الكتابة بسرعة وفي ظرف حوالى ثلاثين سنة هذا التطور السريع البديع، من عربي إلى عربي، ولم يداخل الساحة حتى الآن من واقع النصوص فارسي واحد"[1].

ثمّ لمَّا بدأ تدوين النحو وعلوم اللغة، كان أهل العربية محافظين على عربيتهم، لم يؤثر في جميع قبائلهم وباديهم الاختلاط، ولا في كبار علمائهم، ولم يتفق لهم أن ارتحلوا إلى بلاد الأمم والحضارات الأخرى ليتعلموا منها علوم اللغة، فإنهم لم يرتحلوا في تعلم اللغة إلا إلى البوادي والقبائل الفصيحة، كما أنهم لم يتتلمذوا على غير العرب، فإنهم لم يتتلمذوا إلا على أيدي الأعراب وعلماء العربية، هذا إلى جانب كونهم لم يُدركوا عصر الترجمة، ولم يكونوا في عمومهم يعرفون معرفة الحذق والإتقان غير العربية والفارسية في الغالب، كسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني، وإن وجدت بعض الإشارات والدلائل على معرفة بعضهم لبعض الجزئيات المتعلقة بشيء من اللغات، فقد ثبت في العين أن الخليل قال:" والظّاء عربية لم

[1]– مصطفى الشكعه، المرجع السابق، 66.

تُعطَ أحداً من العجم، وسائر الحروف اشتركوا فيها"[1]، ففيها دليل اطلاع من الخليل أو معرفة بغير لغة العرب، ولكنه لم يبلغ عند العرب حد التأثر الفعلي بعلوم غيرهم من الأمم الأخرى وإذا ثبت ذلك للدرس اللغوي العربي فإنه في فترات متأخرة جدا، منذ حوالى القرن الرابع الهجري، أي بعد سيبويه بنحو قرنين كاملين...

من مظاهر تأثر العربية باللغات الأخرى:

كان لنزول القرآن الكريم باللغة العربية الفضل البالغ على العربية وعلى أهلها بما حفظه للعربية من مفردات وتراكيبَ لغوية، وبما تحمله من معانيَ ومن أساليبَ جديدة، فاقت فنيات البشر وجمالياتهم التعبيرية، ولأنه كتاب سماوي كريم فقد كان أسلوبه ولغته غاية في الوسع والثراء اللغوي، حتى إنه تنزل بكثير من الألفاظ الأعجمية بين الفارسية والعبرية وغيرها، ذلك؛ لأنه رسالة للعالمين وليست للعرب فحسب،

وقد كان النبي صلى الله عليه بما أوتيه من جوامع الكلم يخاطب كل قوم بلسانهم تلطفا منه وتيسيرا، فتكلم بالفارسية وتكلم بالحبشية، فمن حديثه صلى الله عليه وسلم بالفارسية ما جاء في صحيح البخاري من:" أنَّ الحسن بن علي أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم بالفارسية: كخ كخ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة"[2]، و" كخ" كلمة فارسية يراد منها الزجر عن فعل الشيء، والحديث بسنده في صحيح البخاري، ومن حديثه بالحبشية قوله: سَنَة، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه بالسند المتصل عَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَتْ:" أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَبِي وَعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَنَهْ سَنَهْ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَهِيَ بِالْحَبَشِيَّةِ: حَسَنَةٌ، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ فَزَبَرَنِي أَبِي، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعْهَا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، قَالَ عَبْدُ

[1]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج: 8، 147.

[2]– محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج: 4، 74.

اللهِ: فَبَقِيَتْ حَتَّى ذَكَرَ، يَعْنِي: مِنْ بَقَائِهَا"[1]؛ أي أنها عمرت طويلا ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، حتى ذكر من أمرها أنها عاشت عمرًا طويلا بعد ذلك.

دعاوى التأثر وأثر الترجمة في النحو العربي:

ذهب أنيس فريحة في كتابه – نظريات في اللغة– إلى الزعم بأن الدرس اللغوي العربي كان نتاجا للتأثر بالفكر السرياني واللغة السريانية، داعما رأيه بجملة من الحجج من بينها أن الدرس اللغوي السرياني بلغ ذروته في الازدهار، واكتمل في القرن السابع الميلادي عندما وضع يعقوب الرهاوي للسريانية درسها الصرفي والنحوي الذي ظل مرجعا للدارسين من بعده، وقد تم ذلك قبل بداية تدوين علم النحو من طرف أبي الأسود الدؤلي[2]، كما زعم فريحة أيضا أن التفاعل الفكري الحضاري بين العرب وسريان العراق بدأ في عهد مبكر، ويجب أن يكون العرب قد لَحظوا أن للسريانية صَرفا ونحوا؛ لأنهم سبقوا العرب في هذا الحقل، كذلك نعلم مثلا أن أسقف نصيبين، واسمه سيبوخت، قد أجاز لجميع كهنته أن يشافهوا العرب، وأن يُعَلِّموهم وأن يُطلعوهم على ما عندهم من علوم، فالاتصال الحضاري الفكري بدأ في أيام أبي الأسود الدؤلي وعلى غرار دعوى تأثر الدرس العربي بالتفكير السرياني يرى أنيس فريحة أن الدرس اللغوي العربي تأثر بالتفكير الإغريقي[3].

إنَّ ممَّا جرّأ كثيرا من الباحثين وحملهم على القول بتأثُّر الدَّرس اللُّغويّ العربيّ القديم بالدِّراسات الغربيَّة القديمة عاملان اثنان هما: إهمال المسلمين لدراساتهم اللغوية في عصورهم المتأخرة التي شهدت تقهقرهم وضعفهم، وانفتاح الغربيين على شتى المجالات ورقيهم فيها، وتفرُّغ المستشرقين وتفرُّدهم بدراسة البحوث اللغوية العربية التراثية، وهي نتيجة للعامل السابق، ولقد حذَّر الحاجّ صالح الباحث من التسليم لدعاوى بعض المستشرقين غير المنصفين حيال علماء العربية إلى حدِّ التأثر بكلامهم حتى يصير منهم من" لا يَرى في

[1]– محمد بن إسماعيل البخاري، المرجع نفسه، ج: 8، 7.

[2]– ينظر: أنيس فريحة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، ط 2، بيروت، 1981م، 122.

[3]– ينظر: أنيس فريحة، المرجع نفسه، 75.

سيبويه إلا الرجل الفارسي الذي تأثر بمنطق اليونان الذي كان يُدرَّس في جنديسابور، وينكِر أن يكون أبو الأسود وأتباعه ممن ساهم في وضع النحو مع اعترافه واعتراف غيره أنهم أول من نقط المصحف، وهذا تناقض صارخ"[1].

إنَّ لكلِّ لغة من الخصائص ما يميزها عن غيرها من اللغات لتسلم به من الذوبان فيها، لذلك لم يكن التأثر في اللغة أمرا اعتباطيا بل إن له ضوابط وحدودا وشروطا لا ينبغي إغفالها، فـ" إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يَلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحَكما لهم وعليهم، ما شهد لهم قبلوه، وما أنكره رفضوه؟"[2].

المطلب الرابع: تعدد المدارس اللغوية بعد كتاب سيبويه

أ/ المدرسة البغدادية:

ما إن أخرج سيبويه للعربية كتابها الأم أو الإمام الجامع المانع حتى ازدهت اللغة العربية واكتملت بصدوره؛ كونه جمع عامة أصولها، ثم لم يلبث نشاط التأليف أن قوي بعدئذ، فقد تمرد الناس على دعوة الاستحياء من محاولة مضاهاة كتاب سيبويه أو الاستدراك والتعقيب عليه، وتلك سمة العلم وسمة الفكر البشري عامة أنه في تجديد وتطوير مستمر، فقد ارتقى الفكر اللغوي العربي ليتجه نحو الصناعة اللغوية بفنونها وفروعها المختلفة، فما لبثت الكوفة أن أنشأت حاضرتها اللغوية لتضاهي قطب اللغة الأوحد آنذاك في البصرة مذ عهد أبي الأسود الدؤلي، ثم ما فتئت الجهود اللغوية تبرز ممثلة في مؤلفات الأفراد وآرائهم، فسايروا مدرستي البصرة والكوفة أحيانا وخالفوهما في أحايينَ أخرى كثيرة جدا، فخدم ذلك الدرسَ اللغوي العربي أجل خدمة، واستفادت العربية من ذلك الصراع المذهبي اللغوي أيما استفادة.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، 17.

[2]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، ط 1، بيروت، 1424هـ، 91.

ولم تزل العناية بلسان القرآن الكريم متواصلة حتى تعددت الأقطاب اللغوية في الدرس العربي واتسعت، فظهرت في كل مصر مدرسة لها أعلامها ولها منهجها وأدواتها ولها نظراتها وتأملاتها، وإن كان قد اختُلِف في معيار تقسيم المدارس وأساسه، بين الجغرافي والتاريخي والمذهبي، وهي كلُّها في الغالب امتداد لكتاب سيبويه ومن عاصره، فقد كانت تلك المدارس أو المناهج اللغوية إما شروحا لمؤلَّف سيبويه أو تعقيبا عليه، وقلما وجدنا ناقدا له بعمل علمي مفرد له ومستقل.

وتمامًا كقيام الحضارات والدول وتبدلها تقوم اليوم النظريات العلمية الواحدة إثر الأخرى، وكذلك قامت بالأمس أيضا مدارس اللغة العربية، فأعقب بعضها بعضا، وكأن لسان حالها يقول: لا مقام للفتور، ولا جدوى من القطيعة المعرفية ولا فائدة منها ترجى، ولا مناص من التوسع والتنوع الفكري، بل الواجب إكمال مسار البحث اللغوي العربي، فما إن قارب القرن الهجري الثالث من الانتهاء حتى انقضى بانقضائه عهد مَدرستي البصرة والكوفة، عهد مدرستي سيبويه والكسائي، وذلك بوفاة المبرد إمام البصريين 285هـ، وثعلب شيخ الكوفيين 291هـ، لتنتقل الرياسة في النحو إلى بغداد، أين قامت مدرسة نحوية جديدة لا ترى حرجا في الأخذ عن البصريين والكوفيين على السواء، فاعتبر علماؤها جُمَّاعًا وتوفيقيين بين البصرة والكوفة، مما جعل الدّراسة النحوية فيها تتخذ طابعا جديدا، فكان ذلك التحول إيذانا بانتقال جديد في الفكر اللغوي بعامَّة وفي الدرس النّحوي بخاصَّة[1].

قال العلامة السيوطي وقد تحدث عن نَقْلة علم اللغة العربية من البصرة إلى الكوفة، ثمَّ من الكوفة إلى بغداد:" قال أبو الطيّب: فلم يزل أهل المِصْرَيْن على هذا حتى انتقل العلم إلى بغدادَ قريبا، وغَلب أهلُ الكوفة في بغداد، وخدموا الملوك فقدَّموهم فَأُرْغِب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر، وتباهَوْا بالترخيصات، وتركوا الأصول، واعتمدوا في الفروع،

[1]– ينظر: عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي، (نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري)، عمادة شؤون المكتبات، د ط، جامعة الرياض، الرياض، 1401هـ– 1981م، 6.

فاختلط العلم"[1]، ثم تحدث عن واقع بغداد وحالها تجاه العلم والعلماء، مبرزا مكانها في بلاد العرب من السياسة فقال" وأما بغداد فمدينة مُلْك وليست بمدينة عِلْم، وما فيها من العلم فمنقول إليها ومجلوب للخُلَفَاءِ وأتباعهم، قال أبو حاتم: أهل بغداد حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها مَنْ يُوثق به في كلام العرب، ولا من تُرْتضى روايته، فإن ادَّعى أحد منهم شيئا، رأيته مخلِّطاً صاحبَ تطويل وكثرة كلام ومكابرة، قال أبو الطيب: والأمرُ في زماننا على هذا أضعاف ما عَرَفَ أبو حاتم، قال: فهذه جملة تعرف بها مراتب علمائنا، وتقدمهم في الأزمان والأسنان، ومنازلهم من العلم والرواية"[2].

ولئن كان طائفة من الباحثين قد أنكروا وجود المدرسة البغدادية، فإن كثيرا من العلماء والباحثين يذهبون مذهبا آخر يرون فيه بأن لبغداد مدرسة نحوية على غرار البصرة والكوفة وغيرهما...

ويعد إبراهيم السامرائي من الباحثين الذين وفَّقوا بين المدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية، وفي هذا الخصوص يقول:" وقد نجد أحيانا أن البغداديين ذهبوا مذهبا خاصا، ولا نعرف على وجه مِن العلم الثابت مَن هؤلاء البغداديون، فقد تجد فيهم ثعلب وابن قتيبة وابن السّكّيت وغير هؤلاء، والتحقيق في هذا أن عبارة البغداديين تعني الكوفيين وذلك؛ لأنهم عرفوا في بغداد وشاع علمهم في بغداد"[3]، فقد اعتبر أن علماء بغداد هم أنفسهم علماء الكوفة، فهؤلاء وأولئك يمثلون مدرسة واحدة هي مدرسة الكوفة، فعلماء بغداد هم تَبَع لعلماء الكوفة وامتداد لها، وهم من رواد مدرسة الكوفة نفسها.

ولأن مدرسة البصرة هي المنارة الأولى للغة العربية، ولأن أهم أعلام البصرة كانوا هم أساطين العربية من أمثال أبي الأسود الدؤلي ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي، اقتضى ذلك أن يصطبغ النحو البغدادي بالنحو البصري، فكان" الطابع البصري

[1]– جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج: 2، 351.

[2]– جلال الدين السيوطي، المرجع نفسه، ج: 2، 354.

[3]– إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر، ط 1، الإسكندرية، 1987م، 140.

أغلب على ما يسمى بالمذهب البغدادي في الجملة كما هو الشأن في بقية الأمصار، ولا عجب في ذلك؛ فإن الأصالة التي فيه فرضت نفسها كما يقولون، وكان مما أخذ من المذهب الكوفي مسائل اتجهوا فيها اتجاها أصح وأيسر"[1].

ولعل مما ساعد بغداد على بلوغها دورا رياديا هاما بعد البصرة والكوفة احتفاءُ السياسة بها، فإن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن، والناس على دين ملوكهم، فكان من حظ بغداد أنها وجدت اهتماما كبيرا باللغة من طرف حكامها، حين قربوا العلماء من مجالسهم، وشجعوهم على نشر العلم واستعملوهم على ذلك وأقيمت لأجله المناظرات والمساجلات، ولا عجب إذا كان ذلك من صنيع نبي الهدى إذ شجع الشعراء على قول الشعر منافحة عن الدين، فأقام البغداديون المدرسة النظامية، وقد كان لهذه المدرسة" الأثر الحسن في توجيه العلماء إلى التعليم فنبغ بفضلها عدد وفير من العلماء، وهي أول مدرسة بنيت ببغداد، خاصة بالتدريس فكان قبلها في المساجد الجامعة وجعلت فيها الرواتب للمدرسين وللطلبة، وأجريت عليهم الجرايات"[2]، فنشطت حركت التأليف في اللغة، وكثر العلماء، وكانوا في اللغة أقطابا ثلاثة فمنهم ناصر للبصريين ومنهم مؤيد للكوفيين، ومنهم من جاوز البصريين والكوفيين إلى مذهب ثالث هو المذهب البغدادي، فكان من علماء المدرسة البغدادية: الزجاج، ونفطويه، وأبو علي الفارسي، والرماني، وابن قتيبة.

ب/ المدرسة المصرية:

لما نشبت وقعة بغداد الكبرى، من جراء اجتياح المغول لها ونسفهم علومها وتقتيلهم علماءها، عندئذ حمل المماليك في مصرَ وكذا في الشامِ، والأندلسُ تلفظ نفسها الأخير، حملوا على عواتقهم هَمّ استعادة مجد العربية الزاهي فتجشموا صعابه واقتحموا أبوابه، فأحيَوا بعض مواتها وأدركوا بعض نفائسها فصانوه وحفظوه، فقد" مضت الحقبة الطويلة التي ولي

[1]– سعيد الأفغاني، مرجع سابق، ج: 1، 94.

[2]– محمد الطنطاوي، مرجع سابق، 161.

فيها المماليك القطرين وكأن الله أراد أن يعيد إلى المسلمين فيهما بعض ما رأوه في العراق إبان مجده الزاهي، فقامت القاهرة مقام بغداد، وكما ورثتها في الخلافة العباسية نابت عنها في النهوض بالثقافة العلمية"[1]، يُضاف إلى ذلك دور المغاربة والأندلسيين في نشر العلم واللغة في مصر والشام؛ وذلك عند فرارهم من بطش الإسبان وتنكيلهم، فهبت إلى المشرق ثلة من العلماء من الأندلس والمغاربة محملين بزاد وفير من العلم الذي استمدوه بدورهم عند هجرتهم إلى الأندلس وفي زمن نهضتهم من المشارقة، وقد اصطبغ بصبغة مغاربية وأندلسية، ومن ذلك ألفية ابن مالك التي أتت على نسقٍ لغوي أندلسي، وإن كان استمدادها الأول من لدن علماء العربية الأُوَل من البصرة والكوفة، ومن نحاة مصر الذين كانت لهم اليد الطولى في نشأة المدرسة النحوية المصرية: أبو جعفر النحاس ووالَّد وابن بابشاذ وعبد الله بن بري وابن ولاد، وغيرهم

ج/ المدرسة الأندلسية:

إنَّ بداية النهضة اللغوية ببلاد الأندلس سُجِّلت مع الفاتحين المسلمين للأندلس، فجنود المسلمين الذين هاجروا من المشرق إلى الأندلس ففتحوها كانوا مُحمَّلين بالعلوم الشرعية المختلفة كالفقه والأصول والعقيدة والقراءات والحديث وكذا باللغة والأدب، وبمختلِف العلوم الوضعية الأخرى كالطب والرياضيات والفلسفة...إلخ، فحملوا على عواتقهم مع الجهاد مَهمَّة تعليم الناس، فمضَوا في ذلك متفانين فيه، باذلين في سبيله المهج، فلم تكن مَهمَّة نشر العلم في الأندلس يسيرة، ومن أبرز عوامل تأخر الأندلس عن ركب العلم واللغة إلى أزمان متلاحقة: تباعد الشقة بين هذه البلاد والعراق مهدِ علوم اللغة والنحو، وعجمة بلاد الأندلس قبل فتحها لكونها واقعة تحت الحكم الإسباني نتيجةٌ طبيعية لعدم نقل العلوم الإسلامية إليها؛ لأنها كانت آنذاك دار كفر، لا سبيل إلى نقل العلم إليها، وبقيت الأندلس على ذلك حتى فتحها المسلمون، ثم انشغل الفاتحون عن اللغة والعلم بادئ الأمر بتوحيد البلاد وفض

[1]– محمد الطنطاوي، المرجع نفسه، 269.

نزاعاتها الداخلية، وإخضاعها إلى حكم المسلمين، وفرض الجزية على أهل الذمة، كما نشطت حركة هجرة شباب الأندلس إلى المشرق مهد العلم ومنبعه الأول ليَتلَقّوا علوم دينهم واللغةَ.

وقد كان أهل الأندلس يُجِلُّون حفظ القرآن الكريم ويقدمونه على ما سواه من العلوم" فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك ورأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب"[1]، وقد كان أبو موسى الهواري لسعة علمه من أشهر علماء القراءات في زمانه، وهو كما يقول الزبيدي:" أولُ من جَمَع الفقهَ في الدين وعلمَ العرب بالأندلس، ورحل في أول خلافة الإمام عبد الرحمان بن معاوية رضي الله عنه، فلقي مالكا ونظراءه من الأئمة ولقي الأصمعي وأبا زيد ونظراءهما، وداخَلَ الأعراب في مَحالّها"[2]، فقد قيض الله للأندلس من يخدم لغة دينها الجديد ويُعلي مقامها لتُنافِح ذلك الخليط الكبير من اللغات الأعجمية، ولتصير الأندلس بفضل تلك الجهود منارة علمية عظيمة، وقطبا لغويا متميزا يضاف إلى المدارس اللغوية من بعد سيبويه والكسائي.

وقد عَدَّ شوقي ضيف العالمَ الأندلسي جودي بن عثمان المَوْرُوري" أوَّلَ نحاة الأندلس بالمعنى الدقيق لكلمة نحوي"[3]، وقد" كان في تاريخ غرناطة، كان نحويا عارفا، درس العربية وأدَّب بها أولاد الخلفاء، وظهر على من تقدمه، وقال الزبيدي: رحل إلى المشرق، وأخذ عن الرياشي والفراء والكسائي؛ وهو أول من أدخل كتابه إلى الأندلس، وولي القضاء بإلبيرة،

[1]– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة: (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط 2، بيروت، 1408هـ– 1988م، 741.

[2]– محمد بن الحسن الزبيدي، مرجع سابق، 352.

[3]– شوقي ضيف، مرجع سابق، 288.

وصنف كتابا في النحو سنة ثمان وتسعين ومائة، وكان مولى لآل يزيد بن طلحة العبسيين"[1].

ولقد بدأت علوم اللغة في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري امتدادا لجهود علماء بغداد... وبدأت علوم اللغة في الأندلس تأخذ شكلها الواضح تحديدا بهجرة أبي علي القالي، ت 356هـ، بعد أن درس علوم اللغة في بغداد، وبذلك نقل أبو علي القالي دراسة كتاب سيبويه وتدريس اللغة والأدب إلى الأندلس، وبه بدأت المدرسة الأندلسية في علوم اللغة[2]، وقد اهتم الأندلسيون اهتماما مميزا بكتاب "الجمل" للزجاجي فألفوا عليه أكثر من عشرين شرحًا.

وكان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ حيث مرّ بشبه الخطوات التي سارها في المشرق، فبدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شعراً ونثراً فكانت دراستهم فيها اللغة والأدب والنحو والحديث والقرآن، ثم بدأت الفنون تتميز مع الزمن، وإن أول كتاب دخل الأندلس من كتب النحو كتاب الكسائي، ثم كتاب سيبويه؛ فلما دخل كتاب سيبويه عكف عليه الأندلسيون دراسة وحفظاً، واشتهر بحفظه عدد منهم ثم تولوه تدريساً وشرحاً وتعليقاً، فطبع نحو الأندلس بالطابع البصري في أغلب مسائله، ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف.

وكان من سعة علم علماء الأندلس وفائق مقدرتهم على علوم اللغة أنهم صاروا يتبارون في المعرفة بكتاب سيبويه، وما ذاك إلا لحذق علماء الأندلس و نبوغهم في علم النحو، حتى إنهم برعوا في كتاب سيبويه وحذقوا في علمه، فكان " لكتاب سيبويه عندهم منذ فجر النهضة العلمية بينهم المكانة المقدسة، فجددوا وتحملوا المشاقَّ والأخطار في ارتحالهم من بلادهم إلى المشرق للحصول على صورة منه"[3].

---

[1]– جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، د ط، صيدا – لبنان، د ت، ج: 1، 490.

[2]– محمود فهمي حجازي، مرجع سابق، 91، بتصرف.

[3]– محمد الطنطاوي، مرجع سابق، 178.

وجعل الأندلسيون على غرار المشارقة ركوب بحر سيبويه والغوص فيه دليلا على إتقان علوم اللغة العربية وفقهها، " فكان حفظه عندهم شارة النبوغ في العربية، فمن حَفَظَتِهِ حمدون النحوي القيرواني، وخلف بن يوسف الشنتريني وغيرهما، وعُنوا بشرحه والتعليق عليه، فشرحه منهم أبو بكر الخشني وابن الطراوة وابن خروف وابن الباذش وغيرهم، وما انفكت العناية به تزداد تترى حتى انتهت رياسة النحو إلى ابن الضائع، فقد شرح كتاب سيبويه، وأبدى مشكلات فيه عجيبة"[1].

[1]– محمد الطنطاوي، المرجع نفسه، 178.

الفصل الثاني

منجزات سيبويه اللغوية في مقابل علم اللسانيات الحديث

الفصل الثاني: منجزات سيبويه اللغوية في مقابل علم اللسانيات الحديث

تمهيد:

المبحث الأول: المناهج اللسانية الحديثة في كتاب سيبويه

المطلب الأول: سيبويه والبنيوية الوصفية لدي سوسير

المطلب الثاني: سيبويه والسلوكية لثورندايك وواطسون

المطلب الثالث: سيبويه والتوليدية التحويلية لتشومسكي

المطلب الرابع: تصاقب الوصفية والمعيارية في الكتاب

المبحث الثاني: إضاءات سيبويه ونظراته النحوية وأثرها في علم اللسانيات

المطلب الأول: منهج السماع والقياس اللغويين في كتاب سيبويه

المطلب الثاني: تصوُّر الحاج صالح لنظرية الوضع والاستعمال عند سيبويه

المطلب الثالث: خصائص العربية والفارسية وذكر ما بينهما من فروق على ما جاء في كتاب سيبويه

المطلب الرابع: صيحات تيسير نحو سيبويه

المبحث الثالث: مستويات التحليل اللغوي في الكتاب في ضوء اللسانيات الحديثة

المطلب الأول: المستوى الصوتي في الكتاب

المطلب الثاني: المستوى الصرفي في الكتاب

المطلب الثالث: المستوى النحوي في الكتاب

المطلب الرابع: المستوى الدلالي في الكتاب

لا بد من التنويه بداية على أن محاولة التقريب والمقارنة وعرض التراث اللغوي العربي كفكر سيبويه ومنجزاته اللغوية في كتابه على اللسانيات الحديثة وبالأخص منها الغربية، ليس لغرض جعل اللسانيات الحديثة المحكم والمعيار والميزان الذي نزن به أعمال أسلافنا، ولا هو الاعتراف بسبقها وكمالها وأفضليتها على تراثنا اللغوي العربي، وإنما هو أسلوب علمي حضاري ومنحى في البحث العلمي تفرضه أية دراسة علمية يؤمل لها النجاحُ، حتى تسهل الانطلاقة ويُعْلم فضْل السابق على اللاحق من ابتكار اللاحق واستدراكه على السابق، وما نجاحات الحداثيين والمحدثين على حد السواء في اللسانيات إلا نتاج لتراكمية العلوم والمعارف القديمة وبالأخص منها العربية، بل إن الشرط في الدراسات العلمية الموضوعية أن يعلم جهد السابق وفضله إن وجد، وقد وجد السبق بالفعل فكان للعرب ولسيبويه الدور الرائد، ليس في الدراسات اللغوية فحسب، وإنما في شتى صنوف العلم والمعرفة، وقد شهد على ذلك شهود من أهلها منصفون عادلون – أي من الغرب–، وقد دأبنا في أي علم من العلوم بل وفي أي منجز من المنجزات على أن اللاحق مولع بتقليد السابق، إن لم نقل بأنه عالة عليه كما قيل عن كتب اللغة العربية من بعد سيبويه، وأن السلف لم يَتركوا لخُلُوفهم من شيء.

إنَّ التأثر أو التقارب أمر طبيعي وبالأخص في العلوم المتسمة بشيء من الثبات إن لم نصف طائفة منها بالجمود... ولا يعني التشابه والتماثل التطابق التام والمتابعة في كل شيء؛ لأنَّه من الخطإ المنهجي والمعرفي إخضاع لغتنا وأساليبنا إلى مناهج الغرب إخضاعا تامًّا يفرغها من محتواها ويفسدها ويلوي عنقها، ومن التحامل عليها كذلك اتهامها بالتبعية والتقليد التامين الأعميين، ولقد حذر من ذلك العلامة عبد الرحمان الحاج صالح في كتابه السماع اللغوي، معتبرا إياه انسلاخا من الهوية والمرجعية العربية الإسلامية وانغماسا في هوية الآخر واغترارا به، ونظرا إلى لغتنا بنظَّارة الغرب كما وصفه هو بلفظه إذ قال:" لا بد هاهنا أن أوضح مرادي من ذلك: فالمقصود من هذا ليس هو أن نأخذَ كل ما يقوله المحْدَثون من علماء اللسانيات، وننطلقَ منه كأصول ثم ننظرَ ما الذي يوافق ذلك فيما جاء به العلماء القدامى من أقوال فنحكم على بعضها بالصحة لموافقتها لها وبعضها بالخطأ،

فهذا تعسف محض؛ لأن النظريات والمذاهبَ ليست هي الحقائق العلمية التي يجتمع على صحتها كل العلماء"[1].

وكرد على المنكرين والمتّهِمين للدارسين المحدَثين لكتاب سيبويه وللتراث العربي بأن بحوثهم محض ادعاءات وأحكام شخصية متعسفة وغير معللة، فإننا نسعى جهدنا إلى إعطاء أحكام صادقة معللة عن درس الماضين من جهة دونما تحيز أو عاطفة، وإلى إعطاء أحكام عن اللسانيين الغربيين دون اتهام أو إجحاف أو تقليل من شأنهم، فإنما هي محاولة للمقارَبة لا للمطابَقة وفق ما خلَّف هؤلاء وهؤلاء، إذ" إن إعادة قراءة هذا التراث اللغوي عند العرب أمر واجب على الدارسين والباحثين الغيورين من أبناء العربية في كل مكان وزمان، لتبقى هذه الأعمال منبعا ثرًّا، ومعينا لا ينضب، وتأصيلا للدراسات اللغوية العربية المعاصرة، وإحياء لهذه الدراسات ولأصحابها الذين نهضوا بها على مدار الزمان"[2].

غير أن الواجب علينا اليوم كباحثين في حقل اللسانيات هو أن ننهض بدراساتنا اللغوية ونطورها لا أن نقعد بها عن التغيير فتقعد عن المواكبة، ولا أن نبقى رهائن الأمس نتبجح بمآثر أسلافنا دون أن نواصل المسير، " فالمطلوب هو أن نستوحي لنخلق الجديد سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين"[3]، ولا يزال باب التجديد في النظريات اللسانية العربية مفتوحا لمن أراد خدمة العربية والنهوض بها، وفي التفتيش في مكنونات وغوامض كلام علمائنا السابقين ما يضمن ذلك، فهذا" المنهج السلفي أو قُل العودوي كما يصطلح زكي نجيب محمود هو بمثابة البحث في خبايا التراث اللغوي

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 8.

[2]– حسام البهنساوي، التراث اللغوي العربي وعلم اللغة الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، د ب، 1425هـ– 2004م، 09.

[3]– عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، د ب، 1986م، 12.

بغية إدراك أسرار العالم الحديث من جهة، وتقييم التفكير التاريخي في الظاهرة اللغوية بمنظور حديث من جهة أخرى"[1].

والحقيقة أنَّ الغربيين سعوا على مر القرون الماضية إلى النيل من تراثنا اللغوي العربي، لطمسه وإيهام الناس بسبقهم في علم اللغة، لذلك ينعدم ذكر العرب عند التأريخ للتفكير اللساني البشري بما يُحْدث القطيعة في تسلسل التاريخ الإنساني... وهذه القفزة الاعتباطية أو ما يمكن أن نسمِّيَه بالثَّغرة العربيَّة في تأريخ اللِّسانيات، لا يُفسِّرها جهل المؤرِّخِين للُّغة العربيُّة بما أنَّهم يستعرضون ثمرة حضارات لا يعرفون لغتها، بل تراهم يقفون بالحدس والتَّخمين على عصور انقرضت لغة الأمم التي عاشت فيها[2]، فما هذه الازدواجية في المعايير وما هذا الشرخ والانعطاف في درس اللُّغة العربية في الحقيقة إلا كيدٌ مدبَّر ومكر مُبَيَّت، وازدواجية في المعايير وكيل بمكيالين، و" إنَّ هذه الثَّغرة في تواصل التَّفكير اللُّغوي عبر الحضارات الإنسانية لا يمكن أن تكون عفوية ولا يجوز أن تخلو من مؤشرات تاريخية تفسرها وإن لم تستطع تبريرها، وقد يسعنا أن نستشفَّ حوافزَ هذه الظاهرةِ بالعودة إلى مميِّزات عبور الحضارة الإنسانية من العرب إلى الغرب، فالنهضة اللاتينية قامت أساسا على مستخلصات الحضارة العربية بعد أن أقبلت على ترجمة أمهات التراث فيها"[3].

[1]– عبد السلام المسدي، المرجع السابق، 14.

[2]– ينظر: عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، 22.

[3] – عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، 22.

المبحث الأول: المناهج اللسانية الحديثة في كتاب سيبويه

المطلب الأول: سيبويه والبنيوية الوصفية لدي سوسير

المطلب الثاني: سيبويه والسلوكية لثورندايك وواطسون

المطلب الثالث: سيبويه والتوليدية التحويلية لتشومسكي

المطلب الرابع: تصاقب الوصفية والمعيارية في الكتاب

المطلب الأول: سيبويه والبنيوية الوصفية لدي سوسير

إنَّ عماد الدِّراسة البنيوية للغة هو دراستها في ذاتها ولذاتها دراسة علمية مجردة عن العوامل الخارجة عن اللغة من انطباع وميول ومن عامل الزمن أو المجتمع، وغير ذلك كله، وقد كان سيبويه في كتابه دارسا أمينا موضوعيا شديد الحذر، أبعد ما يكون عن التعسف في الحكم على الظواهر النحوية، حتى إنه ليقول في الحض على العمل بمعهود العرب ولو بدا للنفس فيه شيء من الغرابة فاستنفرته:" فأَجْرِهِ كما أجرتْه العربُ"، في إشارة إلا أن عمله النقل الأمين وواجب المتعلمين والعلماء من بعده العمل وفقا لما سمعوا فلا يصحُّ أن يقدِّموا أقيستهم على سماعاتهم ونقولهم؛ لأن تلك الهيئة أو الصفة في التلقي هي نقل عن العرب الفصحاء، وهم أعلم بها.

وتُولي البنيوية بالمقابل لتلك العوامل والطبائع والميولِ الوصفَ العناية البالغة، وتجعله صميم دراستها ومنطلقها ومحورها، وقد قامت الدراسات الوصفية عند العرب على مبدأين اثنين هما: الوصف والتصنيف، فأبعدت النظر في أولويات اللغة المدروسة وتأريخها وتطورها، وعلاقتها بتأريخ الناطقين بها[1]، ولعظيم أهمية المنهج الوصفي في دراسة اللغة يرى كثير من العلماء أنه منهج قديم راسخ القدم في ثقافة الدارسين للغة منذ الأمم القديمة كالهنود، يقول تمام حسان:" ولعل أقدم فروع الدراسات اللغوية في العالم هي الدراسات الوصفية، بل هي كذلك خير ما أنتجه العالَم القديم، وأوضح مثال على ذلك ما قام به الهنود القدماء في دراسة اللغة السنسكريتية"[2].

وإن مثل هذا الزعم هو ما يزيدنا يقينا بأن منهج سيبويه وعلماء العربية من قبله في دراسة اللغة العربية كان منهجا وصفيا خالصا، طالما كان المنهج الوصفي منهجا قديما، ثم هو

[1]– ينظر: رشيد عبد الرحمان العبيدي، البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات، مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب، العدد: 12، جامعة بغداد، العراق، 1985م، ج: 1، 54.

[2]– تمام حسان، اللغة العربية بين المعيارية والوصفية، 90.

ضرورة ملحة في دراسة اللغة، وشرط لعلميتها وصدق نتائجها، وهو ما تحقق لكتاب العربية الأول ممثلا في الكتاب لسيبويه.

وتولي البنيوية الشكل العناية البالغة في دراسة اللغة؛ لأنه عماد النص وركنه الأساسي في النص، ولا يبنى الخطاب أو النص البناء اللغوي الجيد إلا بانتظام كلماته الانتظام المناسب والحسن، فالشكل من هنا أولى الشروط وأولها في دراسة اللغة، وقد عُني به المتقدمون عناية بالغة في مؤلفاتهم وأبحاثهم اللغوية، ويعد الإمام الجرجاني صاحب نظرية النظم في العربية خير من تمثَّل ذلك الجانب، ولا ينبغي أن نغفل عن إنجازات من تقدمه كسيبويه و وغيره، بل إن العناية بالشكل بدأت مع أبي الأسود الدؤلي في تأسيسه لعلم التراكيب، ولما كان الشكل أو البنية السطحية من أهم ما نادت به النظرية البنيوية وجدنا هذه الدعوة صميم عمل علماء العرب الأولين، فقد " أرسى مؤسس علم اللغة في التراث العربي الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن بعده تلميذه سيبويه دعائم نظرية لغوية؛ تعنى بالأشكال دون المعنى، وتبعهم في ذلك البصريون والكوفيون والبغداديون والأندلسيون، وفي هذا رد على من قال بنشوء هذه المدارس خارج المكان"[1].

ومن أهم ما ينبغي التحرز منه عند تطبيق النظريات اللسانية الحديثة في الأبحاث اللغوية العربية مراعاة ما بين اللغات من خصائصَ وسماتٍ تمييزيّةٍ، فإن للغة العربية خصوصيّتُها المتفردة ووضعها المميز الذي يجعلها مختلفة عن غيرها من اللغات، ومن هنا لم يكن ممكنا " قياس تحولها بما حدث في الغرب من انتقال منهجي من اللسانيات الوصفية إلى اللسانيات التوليدية، فما حدث في اللسانيات العربية مختلف تماما، إذ تشكلت لسانيات بنيوية وصفية عربية في سياق معرفي وتاريخي مختلف عن السياق المعرفي والتأريخي الذي عرفته اللسانيات الوصفية الغربية"[2].

[1]– فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، 10.

[2]– فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، إيتراك للنشر والتوزيع، ط 1، مصر، 2004م، 3.

ولعل من أهم المثالب الظاهرة لهذه النظرية اللسانية وهي التي تحسب عند أهل اللغة أجود ما جاء به دي سوسير وعصارة أبحاثه اللسانية وجوهرها قضية إهمال المعنى وإيلاء الأهمية القصوى للشكل الظاهري للكلمات، فلقد" كان كثير من البنيويين يستبعدون المعنى من دراستهم للغة استبعادا كليا، ويهتمون بالشكل الخارجي للغة، ويرى" ديفيد كريستال" أن الكلام عن التحليل اللغوي بلا إشارة للمعنى شبيه بمن يصف طريقة صنع السفن دون الإشارة إلى البحر، ولذلك يَعد التحويليون اعتبار المعنى في التحليل اللغوي أمرا ضروريا في شرح العلاقة بين الجمل، التي تحمل نفس المعنى وتختلف في ظاهر تراكيبها"[1].

ولعل من أعظم المآخذ على البنيويين إمعانهم وإغراقهم الشديد في الوصفية، وإهمالهم لجانب المعيارية التي حكَّمت الدرس اللساني إلى جانب المنهج الوصفي على مر العصور، وما قيام النظريات اللسانية وتدافعها في خدمة اللسانيات وتصادمها في ذلك إلا برهان على عدم اكتمال الدرس اللساني في النظرية البنيوية وعلى عدم كفايتها وقلة استيفائها لقضايا اللسانيات الحديثة.

وعلى الرغم من استماتة العلامة عبد الرحمان الحاج صالح في بيان سبق العرب إلى المنهج البنيوي، فإنه بالموازاة لذلك أبان عن أغلاط البنيويين وإخفاقاتهم الذريعة في الدرس اللساني الحديث بسبب إهمالهم بل وإقصائهم الممنهج واللامنطقي للوصفية، وقد" تمكن من المقارنة الموضوعية بين البنوية الغربية والنحو العربي في زمان الخليل وسيبويه، ووقف عند الفروق الجوهرية بينهما، ووجّه نقدًا صارما للبنوية في نزعتها الوصفية المغالية، كونها تعارض الاحتكام إلى المعيار وترفض كل محاولة إلى تعليل الظواهر اللغوية"[2].

ويُعدُّ المنهج التزامني synchronique، في دراسة اللغة، من أهم ما أحدثه دي سوسير ونادى به في تاريخ علم اللغة الحديث كسبيل لعلمية اللغة ويقينيتها، ولقد شدد دي سوسير

[1]– رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1417هـ-1997م، 188.

[2]– الشريف بوشحدان، مرجع سابق، 102.

بالمقابل لذلك على ضرورة الابتعاد عن المنهج التاريخي" الزماني" Diachronique، الذي كان سائدا في الدراسات الفلسفية والدينية اللاتينية في العصور الوسطى، وعلى النقيض من المنهج الزماني يقوم المنهج التزامني على دراسة كل لغة على حدة دراسة علمية وصفية آنية، أي بعيدا عن الفلسفات والميول والانطباعات، مجرَّدة عن الظروف التاريخية لظواهرها اللغوية، وبمعنى آخر – وهو مصطلح دي سوسير– دراسةُ اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها[1]، حتى تكون الدراسة أقرب إلى العلمية والموضوعية منها إلى الذاتية والانطباع والأحكام المسبقة، وهذا ما نجده مطبَّقاً عند سيبويه؛ فالناظر في درسه اللغوي يجده قائما على مبدأ التزامنية التي تعد صميم المنهج الوصفي وأساسه.

فلم يعتمد سيبويه في دراسته على التتبع الشديد لمفردات اللغة وظواهرها على خطى المنهج التاريخي ليقف طويلا عند تلك التحولات الدلالية والصوتية والصرفية التي تطرأ على الكلمة عبر تاريخها الطويل مثلا، ولو اتفق له هذا النوع من الدراسة في بعض الأبواب فيسيرا بغرض المقارنة بين اللغة القدمى كما وصفها بنفسه وبين اللغة مطردة كما يصفها في كتابه أيضا، وإنما قام بدراسة ظواهر اللغة في الاستعمال مراعيا ثنائية أو عنصري الزمان والمكان، وذلك من خلال نقله لمشاهد ووقائع خطابية حقيقية في بيئاتها اللهجية العربية الفصيحة المختلفة في زمنها الحاضر ووضعها الراهن، وقد يقارن أحيانا بين مختلف الاستعمالات في بعض الأزمنة على خطى المنهج المقارن، فيقارن الاستعمالات الحقيقية التصورية التي طغت على النظريات الحديثة؛ أي دون مجرد التخييل والافتراض أو الميول والانطباعات النفسية البعيدة عن الحقيقة العلمية، وذلك سر الجلال والجمال في تفكيره اللغوي العظيم.

كما امتاز كتابه بالتجريد العلمي التام والحياد الإيجابي حيال نصوص الدين، على خلاف المناهج الغربية القديمة التي كانت تقصي العقل وتقدم اللامعقول على المعقول في دراسة النصوص الدينية، فتتيه في غياهب الأوهام والأخيلة والأساطير والخرافات الزائفة الكاذبة

[1]– ينظر: عمارية حاكم، اللسانيات العربية من خلال كتاب سيبويه في ضوء اللسانيات الغربية الحديثة– دراسة مقارنة–، مجلة أنساق، كلية الآداب والعلوم، دارُ نشرِ جامعةِ قطر، العدد: 1 و2، قطر، 2018م– 2019م، المجلد: 3، 69.

بفعل تسلط الكنيسة[1]، ما نتج عنه ركود وقطيعة قاتلة مع المعرفة اللغوية العلمية الحقة التي تداركتها أوروبا أخيرا منذ مجيء اللسانيات الحديثة، وعلى وجه الدقة مذ ظهرت النزعة البنيوية على يد ديسوسير.

إنَّ الدارس المنصف لكتاب سيبويه ليدرك غاية الإدراك أنَّ هذا السفر اللغوي العلمي قد قام على منهجين اثنين هما: المنهج الوصفيّ والمنهج المعياريّ، وهذا السبب الوجيه من أجلِّ ما انماز به فكر سيبويه اللغوي عن النظرية البنيوية، وبه أربى الكتاب عليها، كون النظرية البنيوية قد أغفلت المنهج المعياري في دراسة اللغة، في حين أقامه سيبويه وسار عليه لِما عرفه من أهميته البالغة، فقد علم سيبويه – ووافقه على ذلك اللسانيون المحدثون– أن إعماله لا ينفي عن أبحاث اللغة صفة العلمية بل هو سمة كل الدراسات الناجحة قديما وحديثا، ذلك وإن احتمال تأثر دي سوسير بالمنهج الوصفي عند العرب قائمٌ إن لم نجزم بأنه آكدٌ، وذلك لعامل السبق الذي امتاز به سيبويهُ والعرب، ويظهر المنهج الوصفي في دَرَج حديث سيبويه وإخباره ووصفه لكلام العرب وفي تحليله له، في حين يظهر المنهج المعياري عنده في تصويبه وتخطئته لمرويات اللغة وظواهرها وفي أحكامه عليها بالفصاحة والاستقامة والجواز حينا، أو بالفساد والضعف والامتناع حينا آخر.

المطلب الثاني: سيبويه والسلوكية لثورنديك وواطسون

تبنَّى كل من واطسون وثورندايك المذهب السلوكي في تحليل الكلام، فقلب به أفكار البنيوية وقوض به جانبا كثيرا مما بنته؛ لكونه أبان عن جانب هام في الدراسة اللغوية أغفلته البنيوية وهو جانب السلوكيات الفطرية عند الإنسان، فكانت السلوكية ردا على البنيوية التي بالغت في نصرة العقلانية وفي تمجيد العقل، ويقوم هذا المذهب على ملاحظة واستكشاف سلوك الإنسان، وهو مذهب مستوحى من نتائج سلوكيات الحيوان، حتى إذا وَجد الكائن الحي

[1]– ينظر: أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط 1، القاهرة، 1429هـ– 2008م، ج: 1، 1532.

مثيرا أو منبها كالجرس مثلا كان ذلك دليلا على حضور الطعام، فكذلك الإنسان[1]، فمهما رأى أو شعر بأمر ذي بال فإنه يتفاعل مع ذلك الموقف ويستجيب له إما بسلوك معين، وإما بفعل لغوي أو كلامي مناسب لهذا المقام، وهذه الطريقة في استكشاف السلوك دليل حصول الاستجابة من الكائن محل أو عينة الاختبار متى وجد المنبه أو المثير.

وذهب واطسون إلى حد الزعم بأن جميع تصرفات الإنسان وسلوكياته ناشئة عن مبدأ الفطرة، وأنها شكل من أشكال السلوك الجسماني؛ بحيث إن الوضع الطبيعي لكلام الإنسان لا يكون مناسبا إلا في وجود داع يكون بمثابة المنبه في النزعة السلوكية عند بدعاة السلوكية المحدثين، وقد قال العرب في ذلك:" لكل أو مقام مقال"، أو" مناسبة مقتضى الحال"، وأفضل نموذج يقدمه ليونارد بلومفيلد أحد أقطاب المدرسة السلوكية لهذا التصور هو سيناريو"جاك وجيل والتفاحة" الذي يمثل نظرية في التواصل قائمة على المثير والاستجابة، وذلك" لا يفترق إطلاقا عن فعل حيوان ما، ولكن العملية يمكن أن تجري على نحو آخر أيضا: يمكن لـ A أن يخاطب B (الشخص الثاني)، فيصعدَ B من أجل A على الشجرة ويحضر التفاحة"[2].

وإلى نحو من نظرية المؤسِّسين الأولِين ذهب" جثري" في نظرية التعلم التي عرف بها، وهي" تقوم على عامل واحد، فهو يرى أن جميع ظواهر التعلم تندرج تحت مبدأ واحد، الارتباط بين المثير والاستجابة، ومع احترام تأكيده على تعليمة واحدة فهو في ذلك لا يختلف عن بافلوف أو واطسون"[3]، وقد تناول علماء اللغة وعلماءُ نفسِ التعلم قضية الارتباط بين المثير والاستجابة، وكشفوا عن جوانب هامة وغامضة منها مكنت من تحسين طرائق التعلم، وأسهمت في تطوير اللسانيات التعليمية.

[1]– ينظر: صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومه، د ط، بوزريعة– الجزائر، 2000م، 22.

[2]– جرهارد هلبش، تاريخ علم اللغة الحديث، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، مصر، 2003م، 121.

[3]– جون جي كارلسون، (مقال بعنوان: نظرية جثري في التعلم)، مجلة عالم المعرفة، تر: علي حسين حجاج، المجلس الوطني للثقافة والفنون، العدد: 108، الكويت، د ت، ج: 2، 16.

وإذا كان بلومفيلد قد أورد نموذجا واحدا لنظريته هو نموذج جاك الشهير، فإن في الكتاب شواهدُ كثيرةٌ يُصور فيها سيبويه مشاهدَ من الأحداث الكلامية يُتوقع أن تنتج عن مثيرات لغوية وغير لغوية، وقد استدل سيبويه بنماذج لغوية لأفعال كلامية سلوكية في باب:" ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي"، ومن هذه الأمثلة:- وهي بمثابة أحداث عملية سابقة على الكلام-: رؤيتك الحاج قاصدًا بيت الله الحرام: مكةَ وربِّ الكعبة"[1]، أو" مكةَ واللهِ"[2]، فقوله" مكة ورب الكعبة أو مكة والله" هو رد الفعل اللغوي في هذا المثال.

مقصد المتكلم عند سيبويه في هذا المثال: أنَّ الحاج متوجِّه إلى مكة لأداء فريضة الحجّ، ويبرِّرُ سيبويه ذلك الهتاف أو الكلام بالمثير الذي استدعى انتباه المشاهد وهو:" هيئة الحاج"، فقد قابلها المتكلم المشاهد بذلك الفعل الكلامي البليغ، وقد عُني علماء البلاغة قديما بمثل هذه الأوجه التعبيرية، فبسَّطوا مسائلها وبسطوا فيها أقلامهم ومثلوا لها بكثير من الأمثلة، كفعل من يرى خطرا داهما: غريقا أو حريقا مثلا:" النار" أو" الغريق"، فلا تخفى فوائد الإيجاز والحذف والتقدير في أمثلة هذه التعابير، فيضيف سيبويه في ذلك المثال قائلًا:" زَكِنت أنه يريد مكة"[3]، أي أيقنت أنه متوجه بالفعل إلى مكة؛ لأن لديك دليلا على فعلك الكلامي الذي أصدرت، إذ إنك رأيته" قاصدًا في هيئة الحاج"[4] ، كما وصف سيبويه.

وقد ساوى سيبويه بين هذا الأسلوب اللغوي الناتج عن الملاحظة وبين الأسلوب اللغوي الناتج عن الكلام والسماع الصريح باعتباره المثير الطبيعي والمألوف، وهو ما يزيد النظرية السلوكية قربًا من اللغة العادية والنمطية المعتادة التي لا تقوم على مجرد التخمين، والتي انتقد روادها واتهموا بالتقليل من شأن اللغة الإنسانية إذ وازنوا بينها وبين لغات الكائنات الحية الأخرى إذ إن هذه النظرية في اللغة برمتها مستمِدَّة نتائجَها من هذا المنطلق الأساسي

[1]- سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[2]- سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[4]- سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

عند السلوكيين ومبنية عليه، فقد وازن سيبويه في هذا السياق بين هذين الضربين من الكلام، بين العادي وبين السلوكي، وذلك يُفهم من سوقه المثال الموالي في هذا السياق، وهو قوله: ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ آ 135 س البقرة، أي بل نَتَّبعُ ملّةَ إبراهيم حنيفا، كأَنه قيل لهم: اتَّبِعوا، حين قِيل لهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ آ 135 س البقرة"[1].

ومن أمثلة الأفعال السلوكية التي جاء بها سيبويه في كتابه:

" إبصارك رجلا يسدد سهما قِبل القرطاس"[2] فتقول:" القرطاسَ والله"[3]، فجملة" القرطاس والله" فعل سلوكي ناتج عن مشاهدة السهم مصوبا نحو القرطاس.

أي والله إنَّ الرامي لسوف يصوب قِبل القرطاس حتمًا، فتلك وجهة سهمه، ولذلك أُعِدَّ القرطاس، فقولك إنَّما هو فعلٌ كلاميٌّ ناتج عن علم ويقين حاصل بالملاحظة، ويصدِّق ذلك الظنَّ ويقّويه سماعُك" وقْعَ السَّهم في القرطاس"[4]، فتقولُ من جديد جازمًا كالسابق:" القرطاسَ والله"[5]، بمعنى يمينًا بالله لقد سمعت صوت وقع السهم الذي رأيت في قرطاسه كما توقعتُ إذ رأيت السَّهم أول مرة، فهو فعل كلامي وسلوك تعبيري ناجم عن مثير خارجي حقيقي.

وقال سيبويه في سياق آخرَ نحويٍّ تحدث فيه عن جواز حذف الفعل من عبارة الترحيب بالضيف المعروفة:" زعم الخليل رحمه الله حين مثّله، إنّه بمنزلة رَجُلٍ رأيتَه قد سدَّد سهمه فقلتَ: القِرطاسَ، أي أَصَبتَ القرطاسَ، أي أنت عندي ممن سيُصِيبُه، وإن أَثْبتَ سهمَه قلت: القرطاسَ، أي قد استَحقَّ وقوعَه بالقرطاس، فإنَّما رأَيتَ رجلاً قاصدا إلى مكانٍ أو طالبا أمرًا

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

فقلتَ: مَرْحَباً وأَهْلاً، أي أدركتَ ذلك وأُصبتَ، فحذفوا الفعلَ لكثرة استعمالهم إيّاه، وكأَنّه صار بدلاً من رَحُبَتْ بلادُك وأَهِلَتْ"[1].

ومن الأمثلة التي ساقها سيبويه في كتابه تأكيدا لهذا الفكر أو التصور السلوكي" رؤيتك أناسًا يترقبون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: الهلالَ وربِّ الكعبة"[2].

وللسياق الخارجي وللملابسات الخارجية أيضا دورها في إقرار حكم كهذا الحكم، فلا بد أن السياق الذي يمكن أن يُقال فيه مثل هذا الكلام هو سياق توجس وترقب واستطلاع لنبأ الهلال، الأمر الذي ساعد المتكلم على سلوك هذا النوع من الكلام، وإقرار هذا الحُكم المدعم والمقترن بالقسم، ولا يأتي الفعل الكلامي ولا التأكيد بالقسم إلا عن يقين جازم بحصول الشيء.

ومن الأمثلة في الكتاب:" رؤيتك رجلا وهو يضرب بشيء في يده فقلت: عبدَ الله، أي يقعُ بعبدِ الله أو بعبدِ الله يكونُ"[3]، " ومثلُ ذلك أن ترى رجلاً يريد أن يوقِعَ فِعْلا، أو رأيتَه في حالِ رجلٍ قد أَوْقَعَ فعلا، أو أُخبرتَ عنه بفعلٍ، فتقول: زيداً، تريد: اضربْ زيداً، أو أَتَضربُ زيداً؟"[4]، وفي هذا الأسلوب البلاغي الجيد من الإيجاز والاقتصار في العبارة من جهة، ومن إجمال المعنى وإتمام فائدته من جهة أخرى، ما تتحقق به عناصر الجمال والحسن الكلامي، وقد أتت عبارته مناسبة لمعناه مؤدية إليه، وتلك هي غاية ما يصبو إليه المتكلمون في خطابهم وتواصلهم.

إلا أن ما يميز تصور سيبويه ونظرته إلى الأفعال السلوكية عنه عند دعاة السلوكية الغربيين أنه لا يغفل دور العقل ولا يقصيه ليحصر المعرفة والتواصل اللساني عند مجرد السلوك النفسي فالمعرفة عند هذا الرعيل من أهل العربية نتاج تكامل بين الوظائف والقدرات

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 295.
[2]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.
[3]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.
[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 257.

الإدراكية عند الإنسان، بل إنه لو جاز عند هؤلاء العلماء أن يفرقوا بين تلك القوى أو الأدوات الإدراكية كالحواس وغيرها لغلبوا دور العقل على النفس وعلى الحواس، وفي هذا العنصر تحديدا انتقد السلوكيون الغربيون؛ لأن نظريتهم ترتكز بالأساس الأول" على عدم الاهتمام بالجوانب الذهنية مثل: العقل، والتصور، والفكرة، ودحض كل تحليل نفسي يعول على الاستبطان"[1].

المطلب الثالث: سيبويه والتوليدية التحويلية لتشومسكي

التوليد والتحويل في اللغة العربية وفي كل اللغات ظاهرتان أصيلتان ومتأصلتان وثابتتان؛ إذ لا غنى للغة عنهما؛ لأنهما مظهران من مظاهر المرونة في الكلام والتنوع في الأساليب، ولولا أساليب اللغة البلاغية المتنوعة في الكلام من تقديم وتأخير وحذف وإيجاز وإجمال وتفصيل وتوليد وتحويل لما تحقق للكلام الانسجام ولما حصل للنَّظم الوُسع والتنوع؛ لأنَّ من شروط الصواب اللغوي وسلامة السياق أن تكون التراكيب اللغوية طَيِّعة للتغيير والتحويل داخل الكلام بمقتضى السياق اللغوي.

ولا بد أنَّ كلاًّ من مبدَأي البنية العميقة والبنية السطحية في الفكر النحوي العربي القديم مبدآن أصيلان في العربية، وأن" هذه الفكرة نفسَها – وهي التي أدت إلى ضرورة" التحويل" في المنهج التحويلي الحديث– قد وُجدت بشكل أو بآخر في الفكر النحوي العربي القديم"[2]، إلا أن مبدأ التحويل لم يظهر عند اللغويين العرب القدامى بهذا المصطلح اللساني الحديث وكذا المعاصر، وتلك إحدى أكبر إشكاليات المنهج العربي القديم، و" ليس من الادعاء القولُ بأن هذا المصطلح قد ظهر في الدرس النحوي العربي قبل ظهوره في النظرية التحويلية التوليدية بمئات السنين"[3]، ولكن بتعابير واصطلاحات لغوية أخرى موحية بهذا الغرض مؤدية إليه، " وإني لواثق أن نحوي البصرة لن يلحظ غرابة في كتاب تشومسكي " الأبنية

[1]– أحمد حساني، مرجع سابق، 283.

[2]– محمد حماسة عبد اللطيف، من الأنماط التحويلية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، ط 1، القاهرة، 1990م، 21.

[3]– محمد حماسة عبد اللطيف، المرجع نفسه، 09.

النحوية" لو سنحت له الفرصة بالإطلاع عليه، بل إنه سيجد فيه حججا وطرقا في التفكير مألوفة، ولن يعترض على القواعد التحويلية التي وردت فيه"[1]، فما التحويل بالعنصر اللغوي الغريب عن سيبويه، فقد تناول أدواته وقواعده وأساليبه في جميع المستويات اللغوية كل ما دعاه المقام إلى ذلك في كتابه، ولئن كان هذا هو مجمل ما يقرره صاحب النظرية التحويلية الحديثة فإنه يتشابه مع كثير مما قدمه النحويون العرب القدماء في معالجتهم لتفسير الجمل في العربية[2].

و" تصنف العربية ضمن اللغات الصرفية، في حين تندرج الإنجليزية تحت فصيلة اللغات التركيبية، ومنظومة الصرف هي رابطة العقد في منظومة العربية، في حين يطغى النحو على منظومة الإنجليزية، فالتركيب هو محور منظومة اللغة الإنجليزية، وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلت تشومسكي يبني نظريته اللغوية على مبدأ استقلالية النحو"[3]، وذلك ما يجعل من الكلام مجرد عمل آلي بحت، تحكمه المعيارية المطلقة والعقل والقانون، فلا يبقى فيه مجال للوصف، وهنا يُهمَّش الجانب الدلالي أو الفونولوجي باعتماده على الجانب النحوي، وفي مثل هذا تتجلى مزية سيبويه وفضله على الدراسات اللسانيات الحديثة، ويظهر تفوقه من حيث إنه على خلاف ما ادعاه بعض الباحثين بأن نحوه معياري آليٌّ، فإنه على النقيض من ذلك نحو علمي متعال يجمع بين الوصفية والمعيارية، ويولي الدلالة اهتماما خاصا جدا مع اهتمامه بالجانب الشكلي أو التركيبي، فاللغة أو الكلام عنده تراكيب لغوية خاضعة للقانون النحوي مع مراعاة الجانب الدلالي.

ولئن كان تشومسكي قد اهتم بالمقدرة والكفاءة اللغوية في نظريته التحويلية فإن سيبويه بدوره قد أولاهما الاهتمام نفسه في كتابه، وإنَّ ذلك لظاهر في مجمل دراسته فيه، في تفريقه

---

[1]– هاينس فروتسفلد، خواطر هيكلية، تعريب: عبد الجبار بن غريبة، حوليات الجامعة التونسية، العدد: 18، تونس، 1980م، 265.

[2]– ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف، المرجع السابق، 26.

[3]– نبيل علي، اللغة العربية والحاسوب – دراسة بحثية–، دار تعريب، د ط، القاهرة، 1988م، 82.

بين نوعين من المستخدمين للغة، بين المجيد للغة العارف بها، وبين كثير اللحن ضعيف المقدرة فيها، فكتابه منجز لغوي علمي فريد هدفه الأساس تعليم الناس اللغة وإنشاء مقدرة لغوية جيدة لديهم، وقد فرق سيبويه في حديثه في غير ما موضع بين الفصيح المقتدر على التعبير بلغة جيدة وهو ما يمكن أن يقابَل بالمتعلم الجيد ذي الكفاءة والمقدرة اللغوية العالية عند تشومسكي، وبين غير الفصيح أو الأقل فصاحة، وهو الذي تقابله اللسانيات الحديثة بالمتعلم الضعيف وغير الكفء لغويًّا[1].

وفي حديثه عن القبائل العربية في استعمالاتها اللغوية أكد بأن من القدرة والكفاءة اللغوية ما يولد مع المرء بحيث يصبح مطبوعًا عليه فلا يقدر على التكلم بغير لغته التي تشرَّبها من بيئته فقال:" وليس شيء يضُطَرّون إليه إلا وهمْ يحاوِلون به وجها"[2]، وقال:" واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه، فينصب بعضَ ما يميل صاحبه ويميل بعضَ ما ينصب صاحبه، وكذلك من كان النصب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأوَّلين في الكسر، فإذا رأيت عربيا كذلك فلا تَرَيَنَّه خلط في لغته، ولكن هذا من أمرهم"[3].

ولم يكن الفرق بين البنية العميقة والبنية السطحية ليخفى على سيبويه، ولا بدَّ أنه قد ورد وتردد في حديثه مرارا ولو ضمنا، وذلك يُؤخذ من منهجه في إيراد معنيين اثنين فيثبت واحدًا وينفي الآخر أو يقلل من احتمال وروده؛ وهو إنما يشير إلى المعنيين كليهما من حيث لا يصرح بهما معا في كل الأحوال؛ لأن الكلام أو السياق قد يحتمل الوجهين معًا، يقول سيبويه في مثال على ذلك، أي في مثال على احتمال وجود معنيين للتعبير أو السياق الواحد، معنى سطحي مباشر ومعنى آخر عميق غير مباشر:" وأما قولهم: عور يعور، وحول يحول، وصيد يصيد فإنما جاءوا بهنّ على الأصل؛ لأنه في معنى ما لا بد له من أن

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 300.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 32.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 125

يخرج على الأصل نحو: اعوررت، واحوللت، وابيضضت، واسوددت، فلما كان في معنى ما لا بد له من أن يخرج على الأصل لكون ما قبله تحركن، فلو لم تكن في هذا المعنى اعتلت، ولكنها بنيت على الأصل إذ كان الأمر على هذا"[1]، ويقول:" وكذلك: احتوشوا واهتوشوا، وإن لم يقولوا تفاعلوا فيستعملوه؛ لأنه قد يشرك في هذا المعنى ما يصح، كما قالوا صيد؛ لأنه قد يشركه ما يصح، والمعنى واحد"[2].

ويؤخذ اهتمامه بالبنية العميقة والبنية السطحية أيضًا من منهجه في التأويل والتقدير، وهو منهج البصريين عمومًا، فكثيرًا ما كان سيبويه يصرح بالمعنى الظاهر للكلام ويوحي بباطنه أو بمقاصده الخفية القريبة في غير تكلف أو تعسف، ومثال ذلك قوله:" ولو سمَّيت رجلاً لأعدت الهمزة والألف فقلت: هذا إرَأُ قد جاء، وتقديره: ادعي، تلحقه بالأسماء بأن تضم إليه ما هو منه"[3]، وقوله:" ولو سميت رجلاً بأب قلت: هذا إبٌ، وتقديره في الوصل: هذا آبٌ كما ترى، تريد الباء وألف الوصل من قولك: اضرب، وكذلك كلُّ شيء مثله لا تغيره عن حاله؛ لأنّك تقول: إبٌ، فيبقى حرفان سوى التنوين"[4].

ويَعرض سيبويه أنواعا من التغيير أو التحويل في الكلام عرفها من العرب في استعمالاتهم منها: التقديم والتأخير والحذف والزيادة، والبدل والإضراب، وكذا قواعد الاشتقاق... فبيَّن أن العرب كانوا يستخدمون هذه الأساليب في كلامهم متى دعاهم المقام أو الضرورة فقال بأنهم:" يغيرون الأكثر في كلامهم عن حال نظائره"[5]، وقال:" ... فلما كثر وكان الأول في كل موضع، حذفوا منه تخفيفا؛ لأنهم مما يغيرون الأكثر في كلامهم، حتى جعلوه بمنزلة الأصوات وما أشبه الأصوات من غير الأسماء المتمكنة، ويحذفون منه، كما فعلوا في لم

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 344.
[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 347.
[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 318.
[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 324.
[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 196+ ج: 2، 414.

أُبَلْ، وربما ألحقوا فيه كقولهم: أُمَّهاتٌ"[1]، ويراهن سيبويه في منهجه التحويلي على الحفاظ على المعنى مهما تغير البناء أو الشكل، إلا ما أدى إلى خلل أو فساد في المعنى بسبب الأبنية اللغوية التي لم تستقم نحويا شأنه في ذلك شأن باقي النحاة التحويليين وذلك في قوله:" ألا ترى أنّك تقول ضربتُ زيداً، فلا تُجاوِزُ هذا المفعولَ، وتقولُ ضُربِ زيدٌ فلا يَتعدَّاه فعلُه؛ لأنَّ المعنى واحدٌ"[2].

التحويل بطريقة البدل:

ساق سيبويه نماذج لغوية كثيرة عن التحويل بالبدل في كتابه، وهو ما يثبت سبقه العلمي لهذا المنهج اللغوي، كما استدل لذلك من القرآن الكريم بشواهد كثيرة، يقول سيبويه:" وأما قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ آ 3 س الأنبياء، فإنما يجيء على البدل، وكأنه قال: انطلقوا، فقيل له: من؟ فقال: بنو فلان، فقوله عز وجلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ آ 3 س الأنبياء، على هذا فيما زعم يونس"[3]، فقد عدل سبحانه وتعالى عن اللفظ الأول – والمؤدَّى واحد فيه وفي الذي وليه أيضا– ثم أتى بالبدل عن الأول، والغرض هو التعريف بالمبدل منه ووصفه وزيادة التقريع والتوبيخ وحصول النذارة عن طريق الإخبار عن الظالمين، وهذه اللغة على طريق لغة" أكلوني البراغيث".

ومن التحويل عن طريق البدل أيضا أن تقولَ: هذا زيدٌ رجلٌ منطلقٌ، فهي على البدل[4]، فجملة" رجل منطلق"، هي جملة محولة عن الجملة الأولى وبدل منها.

وذهب سيبويه ببراعته إلى أبعد من الإبدال الكلمي الذي يكون على مستوى الجمل والتراكيب، حين ذهب إلى الإبدال الحرفي الذي يكون على مستوى الصرف والأصوات بالبحث عن دلالة الأحرف، فتحدث عن تحويل حرف إلى حرف آخر لأغراض دلالية وأخرى

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 208.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 42.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 41.

[4]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 2، 86.

بلاغية مختلفة في باب" تحقير كل حرف كان فيه بدل"[1]، فأبدل الياء واوا وهو يحكي ذلك عن العرب ويعزوه إليهم، وذلك حين قال:" فمن ذلك ميزانٌ وميقاتٌ وميعادٌ، تقول: مُويزين ومُويعيد ومُويقيت"[2]، وأمثلة الإبدال على مستوى الأحرف في الكتاب كثيرة جدا.

التحويل بطريقة الحذف:

تعد قاعدة الحذف من أهم القواعد التحويلية التي نادى بها باتش Bach، وقد استخدمها في استعمالاته التخاطبية وكذا في أمثلته الكثيرة حول تحويل الأبنية العميقة فكانت هذه القاعدة اللغوية المشتركة من أهم أدوات التحويل في اللغات، وذلك بما تؤديه من عديد الوجوه البلاغية الجيدة، وهي واحدة من قواعد التحويل الهامة التي يكثر ورودها في القرءان الكريم سواء أكان الحذف إجباريا أم اختياريا، كما هو الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ آ 1 س النساء، حيث اقتضت ضرورة البيان والإعجاز فيها استخدام هذا الحذف الإجباري أو الضروري[3].

ويؤكد ابن جني بأن الحذف ظاهرة لغوية بالغة الأهمية في اللغة، وأنه من أهمِّ مظاهر الإيجاز والإعجاز في القرءان الكريم، فقال يرحمه الله:" ألا ترى إلى ما في القرآن وفصيح الكلام من كثرة الحذوف كحذف المضاف وحذف الموصوف والاكتفاء بالقليل من الكثير كالواحد من الجماعة، وكالتلويح من التصريح، فهذا ونحوه – مما يطول إيراده وشرحه– مما يزيل الشك عنك في رغبتهم فيما خف وأوجز عما طال وأملّ، وأنهم متى اضطُروا إلى الإطالة لداعي حاجة أبانوا عن ثقَلها عليهم، واعتدُّوا بما كلفوه من ذلك أنفسهم وجعلوه كالمنبهة على فرط عنايتهم وتمكن الموضع عندهم، وأنه ليس كغيره مما ليست له حرمته ولا النفس معنية به"[4].

---

[1]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 2، 86.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 457.

[3]– ينظر: حسام البهنساوي، مرجع سابق، 105.

[4]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 87.

ويُعدُّ الحذف من أهم مظاهر التغيير في الكلام عند العرب على حد سيبويه، على غرار الحذف للترخيم، وحذف الزوائد، أو الحذف لأجل تخفيف المثقَّل؛ لأن العرب" لا يتكلمون بذلك إلا مخففاً، فراراً من الاستثقال والتغيير"[1] في بعض الأسماء أو الأفعال، فالحذف أسلوب كلامي هامٌّ يحقِّق للمتكلم المرونة في التعبير، ويمَكِّنُه من التخاطب مع غيره ومن إيصال فكرته بعبارات قليلة بغير ما تكرار مخل ممل للفظة الأولى، ولا إفساد للمعنى الأول.

والحذف في كتاب سيبويه كثير وليس باليسير استقصاؤه جميعا في هذا العمل، إلا أنه ليس في وُسع المرء أن يُضمر على غير منوال من العرب والنحويين، لقول سيبويه:" ولكنّك تُضمِر بعد ما أَضمرتْ فيه العربُ من الحروف والمَواضِعِ، وتُظهِرُ ما أظهروا، وتُجْرِي هذه الأشياءَ التي هي على ما يَستخفُّون بمنزلة ما يَحذفون من نفس الكلام ومما هو في الكلام على ما أَجرَوْا"[2]، ثم قال:" فقف على هذه الأشياء حيث وقَفوا ثم فسّرْ"[3]؛ أي الزم ما أثر عن العرب في استعمالاتهم، وانح نحوهم في أساليب خطابهم.

كما أثبت سيبويه بأن الحذف في بعض الأحيان يكون أبلغَ من إعادة الكلام نفسه ومن تكرار جمل أو مفردات بعينها، وقد لا نبالغ عندما نقول: بأن سيبويه قد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه تشومسكي ووُفق في دراسة الحذف أكثر منه بحديثه عن أساليب تغيير الكلام عموما، وعن نوع آخر من الحذف هو حذف الحركة حين قال:" واعلم أن الآخِرَ إذا كان يسكن في الرفع حُذف في الجزْم، لئلا يكون الجزم بمنزلة الرفع، فحذفوا كما حذفوا الحركة ونون الاثنين والجَمِيع"[4]، وقال:" واعلم أنَّ العرب يَستخفّون فيحذفون التنوينَ والنون، ولا يتغير من المعنى"[5].

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 265.
[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 265.
[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 266.
[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 23.
[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 165.

وفي هذا المنوال يتجلى التقارب في الفكر اللغوي بين سيبويه وتشومسكي، فقد كانت نظرية التحويل عند تشومسكي قائمة على التغيير والتحويل الشكلي ولو على حساب التغيير الدلالي، والعرب كما قال سيبويه:" يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطًا"[1]، لبعض الأغراض فيحذفون كلمة أو عبارة في نحو عبارة الترحيب المعروفة، والتي من صيغها:" مَرْحَباً، وأَهلاً، وإن تأتِني فأَهْلَ اللَّيل والنهارِ"[2]، وتقدير الكلام فيها أنك:" رأَيتَ رجلاً قاصدا إلى مكانٍ أو طالبا أمرا فقلتَ: مَرْحَباً وأَهْلاً، أي أدركتَ ذلك وأُصبتَ، فحذفوا الفعلَ لكثرة استعمالهم إيّاه، وكأَنّه صار بدلاً من رَحُبَتْ بلادُك وأَهِلَتْ، كما كان الحَذَرَ بَدَلا من احْذَرْ، ويقول الرادُّ: وبكَ وأَهْلاً وسَهْلاً، وبك أَهْلاً، فإذا قال: وبك وأهلاً، فكأَنّه قد لَفَظَ بمرحبًا بك وأهلًا"[3].

وللحذف عند سيبويه شكل آخر يقوم على حذف أحد أحرف الكلمة مع بقاء المعنى الأصلي للكلام قائمًا، إلا أنه جعل له قواعد تضبطه وتنظمه، وفي ذلك يقول:" فليس كل حرفٍ يُحذف منه شيء ويُثْبَتُ فيه، نحوُ: يك ويَكُنْ، ولم أُبَلْ وأُبالِ، لم يَحملهم ذاك على أن يَفعلوه بِمثله، ولا يحملهم إذا كانوا يُثْبِتون فيقولون: في مر أُومُر، أن يقولوا: في خُذْ أُوخُذ، وفى كُلْ أُوكُل"[4]، ويحذف الحرف من الجملة وتبقى الدلالة الأولى تحدث في باب" إذن" عن جواز حذفها مع بقاء المعنى واحدًا فقال:" وإن شئت ألغيت إذن كإلغائك حسبتُ إذا قلت: زيدٌ حسبتُ أخوك"[5].

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 25.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 295.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 295.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 266.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 13.

التحويل بطريقة التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير مظهران هامان من مظاهر التحويل لدى تشومسكي، وطريقة التقديم والتأخير على أهميتها بالغة اليسر في نظر النحاة، وهي من الأبواب النحوية الأكثر بحثا ودراسة عند سيبويه وفي كتب النحو عمومًا، يكشف عن ذلك ورودُها وتداولها بكثرة هائلة في جزئيات البحث اللغوي عامة، والنحوي على وجه الخصوص، ويؤكد ذلك امتدادها وتناولها لكل المؤثرات المختلفة في الترتيب بين الصيغ[1]، وقد تناولهما الدارسون العرب كثيرا في كتب اللغة بلاغةً ونحوًا، وأولاهما سيبويه أيضًا اهتماما كبيرًا في كتابه، وبين أهميتهما في الكلام من حيث حصول الفائدة الدلالية للكلام ومن حيث لفت المتكلمِ المخاطَبَ إلى غرضه ومراده من الكلام على الرغم من تحويله عن موقعه الأصلي ورتبته فيه.

ويعرف التقديم والتأخير في الدرس اللغوي الحديث بالتحويل الموضعي وهو من سمات المنهج الوصفي لدى سيبويه[2]، وقد مثَّل سيبويه للتقديم والتأخير بجملة" ضَربَ عبدُ اللهِ زيدًا" فأخبر بأن هذه الصورة أو الشاكلة للجملة الفعلية هي الصورة الأصلية وترتيبها هو الترتيب الأصلي، لكنَّ بعض الغايات والضرورات قد تبيح تحويل بعض العناصر من الكلام مع الحفاظ على المعنى الأول له فقال سيبويهُ:" فإن قدمتَ المفعولَ وأخَّرتَ الفاعل جرى اللفظُ كما جرى في الأوّل، وذلك قولك: ضَرَبَ زيداً عبدُ الله؛ لأنّك إنَّما أردت به مُؤخّرا ما أردت به مقدَّمًا، ولم تُرد أن تَشغلَ الفعل بأوَّلَ منه وإنْ كان مؤخراً في اللفظ"[3].

ولم يقف سيبويه عند هذا الحد من بيان الأحكام اللغوية، النحوية والدلالية، لهذه الأداة التحويلية، بل إنه أشاد بالفائدة البلاغية لها وأثبت بأنها أداةُ تغيير شكلي كلامي عربي أصيلة فقال:" فَمِن ثمَّ كان حدُّ اللفظ أن يكون فيه مقدَّما، وهو عربيٌّ جيِّد كثير، كأنّهم إنَّما

[1]– ينظر: علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب، د ط، مصر، 2007م، 289.

[2]– ينظر: نوزاد حسن، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، دار الكتب الوطنية، ط 1، قان يونس، 1996م، 283.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 34.

يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعًا يُهِمَّانهم ويَعْنِيانهم"[1]، ويضرب مثالا آخر للتحويل عن طريق التقديم والتأخير مع بقاء المعنى الأول قائما بجملة:" ولو قلت أيُّ مَن في الدَّار رأيتَه زيدٌ، إذا أردت أن تجعل في الدار موضعا للرؤية لجاز، ولو قلت: أيُّ مَن رأيتَ في الدار أفضلُ، قدّمتَ أو أخّرتَ سواء"[2].

وقد وضع سيبويه للتقديم والتأخير ضوابط ينبغي على المتكلم مراعاتها لكي ينتظم بها كلامه منها أنه:" كلما طال الكلام ضعف التأخير إذا أَعْملتَ"[3]، وضرب لذلك مثالا فقال:" وذلك قولك: زيداً أخاك أظنُّ، فهذا ضعيفٌ كما يضعُفُ زيداً قائماً ضربتُ؛ لأنّ الحدَّ أن يكونَ الفعلُ مبتدأً إذا عَمِلَ"[4].

التحويل بطريقة الزيادة:

عدَّ سيبويه الزيادة في الكلم العربي عنصرًا تحويليا هاما فتوسَّع في بيان موضوع الزيادة في العربية، فبين طرائق الزيادة وأحرفها وشروطها وغاياتها والمعانيَ الناتجة عنها، وهو بذلك يسير وفق أفكار لسانية تحويلية شبيهة بأفكار تشومسكي، ما يدعونا لحد افتراض اطلاع تشومسكي على دراسات سيبويه للغة العربية في كتابه وافتراض اقتباسه منها، ويمثِّل سيبويه للزيادة في العربية مع حفظ الدلالة الأولى فيقول:" الباء دخلت على شيء لو لم تَدخل عليه لم يُخِلَّ بالمعنى ولم يُحْتَجْ إليها وكان نصبا، ألا ترى أنَّهم يقولون: حسبُك هذا وبحسبِك هذا، فلم تغير الباء معنى"[5]، ففي هذا المنوال دليل على تفريق سيبويه بين نوعين من الزيادة هما: الزيادة لأجل تغيير المعنى، والزيادة مع الحفاظ على المعنى الأول، وقد تخدم الزيادةُ في المباني المعانيَ وتزيدها قوة ووضوحًا، فهي أسلوب عربي فصيح وجيد، وذلك في الأفعال

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 34.
[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 405.
[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 120.
[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 120.
[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 68.

والأسماء والحروف، وحدَّد شروط الزيادة وقواعدها لئلا يقع المرء في اللحن ويخل على العربية ما ليس منها، فكان من بين ما بينه سيبويه أنه لا يزاد في كل موضع ولا عند كل حرف فقال:" ألا ترى أنك لم تجعل الواو في ورنتلٍ زائدةً؛ لأنها لا تزاد أولاً، ولا الياء في يستعورٍ؛ لأنَّها لا تزاد أولاً في الأربعة، فإنَّما تَنظر إلى الحرف كيف يزاد وفي أي المواضع يكثر"[1]، وبيَّن ما ينجم عن الزيادة من ثقل في الكلام" وقد ثَقُل في الكلام ما أوَّلُه زيادة"[2]، فلعل في ذلك كراهة للثقل ونفور منه، وهو فعل العرب في تَخاطبِهم.

المطلب الرابع: تصاقب الوصفية والمعيارية في الكتاب

ما من شك في أن اللغة العربية التي عاشت زمنا طويلا هو عند أكثر الباحثين أطول الأزمان والمُدد، وحافظت فيه على أصالتها وعلى خصائصها المتنوعة، قد عرفت ألوانا كثيرة من الأساليب اللغوية في عهودها المبكرة، وعرفت أيضا أنواعًا شتىَّ من المناهج اللغوية كتلك السائدة في هذا العصر، ودليلٌ على ذلك مرونتها في تطبيق هذه المناهج اللسانية الحديثة، وطواعيةُ هذه المناهج وقابليتها للتطبيق والاستخدام اللغوي في العربية، وسنحاول في هذا الباب أو العنصر البحثي أن نتعرف على منهجين اثنين من هذه المناهج الدراسية في الكتاب لإثبات تمثلهما فيه كأهم المناهج اللسانية الحديثة، ونحن هنا لا نسعى للدفاع عن منهج لندحض آخر غيره بل إننا نترك ذلك للبحث وسنثبت للكتاب ما كان قد حكمه في وضعه لدرس العربية.

إنَّ الغرض من البحث في المناهج اللغوية الغالبة في كتاب سيبويه هو استجداء إنجازات وأبحاث سيبويه اللغوية في هذه المناهج لإثبات مدى تقدمها وإدراك مدى علميتها فيه، وللتعرف على تلك الآليات التي اعتمدها سيبويه في هذه المناهج في ذلك الزمن السحيق بالنظر إلى اللسانيات الحديثة التي تعتبر أبحاثها متأخرة جدا بالنسبة للكتاب، ولأجل الوقوف

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 318.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 313.

على جهود الرجل في خدمة الدرس اللغوي العربي، فبعض الباحثين مع إثباتهم لسبق العربية إلى بعض المناهج اللغوية السائدة في العصر الحديث يرون في مجرد الموازنة بين الدرسين اللغويين العربي والغربي تكلفا غير مجْدٍ، وتجنّيا على العربية، وتعسفا في التعليل والتمثيل والتأويل.

وأجاد تمام حسان إذ أجمل القول في هذا الباب اللغوي الهام الذي خص به هو الآخر البحث في الدرس اللغوي العربي التراثي عامة، وجعلناه في هذا العمل للبحث في الدرس اللغوي عند سيبويه خاصة، فقال كاشفا عن علاقة التكامل بين الوصفية والمعيارية:" فالمعيار أداة التعليم، والوصف أداة البحث"[1]، ففي هذا الحكم اللساني العلمي على وجازته تتكشف ماهية المنهج البحثي اللغوي عند سيبويه والمتقدمين من أهل هذا اللسان، ذلك بأن عماد أية دراسة علمية تروم الحقيقة وتسعى إلى النجاح أن تبدأ بالوصف لأوليته وأولويته في العمل العلمي والدراسي، ثم أن تجنح إلى استعمال معيار الصواب والخطأ وإلى إعمال الأقيسة والأحكام العقلية بعد اكتمال الوصف، دون أن تستغني عن أي من هذين المنهجين الضرورين المتلازمين.

ويجدر بنا في هذا الخصوص أن نقدم تعريفا للمنهج مما ورد في كتب أصحاب المعاجم والباحثين، فممَّا جاء في تعريفه قولهم:

أ/ لغة:

" نهج: طريقٌ نهْجٌ: بيِّن واضح، وهو النَّهج؛ وطُرق نهْجَة، وسبيل منهج: كنهج، ومنهجُ الطريقِ: وضَحُهُ، والمِنْهاج: كالمَنهج، وفي التنزيل: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ آ 48 س المائدة، " وأَنهَجَ الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ وَصَارَ نَهْجاً واضِحاً بَيّناً"[2].

[1]– تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، 9.

[2]– محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج: 2، 383.

ب/ اصطلاحا:

هو" الطريق التي يعالِج بها الباحث المادة العلمية في بحثه، والتي يحقِّق عن طريقها الوصول إلى النتائج العلمية بيسر وسهولة"[1].

أو هو" مجموعة من القواعد التي تهدف إلى الكشف عن الحقيقة العلمية أوَّلًا، وإقامة البرهان على صحتها وفسادها ثانيًا"[2].

ولفظ المنهج في التراث اللغوي الإنساني كما يكشفُ عن ذلك المعجم الإنجليزي الشهير" Webster's dictionary" في مقابل لفظ المنهج" method" ينص على أن اللفظ الإنجليزي يعود إلى اسم في الفرنسية الوسيطة هو: MF، ويرجع إلى اللّفظ اللاتيني" methodus" المأخوذ من اللّفظ اليوناني" Methodos" المؤلَّفُ من مكوِّنَين اثنين هما:" meta +hodos... [3].

ولا شكَّ أنَّ المناهج اللسانية الحديثة التي اختارت أن تدرس اللغة دراسة علمية هي امتداد للدراسات اللغوية القديمة الإغريقية أو العربية أو الهندو أوروبية التي بدأت منذ قرون وأمم كثيرة خلت، ولقد صدَّق وجودَها وأثبت سبقها العالم اللساني وليم جونز باكتشافه اللغة السنسكريتية، فكان ذلك إيذانا ببدإ الدراسات والبحوث اللغوية على خطًى من تلك الدراسات اللسانية القديمة، فأثمرت دراساته هو ومن تلاه زخما كبيرًا من المناهج اللسانية الحديثة التي تتابعت في ظهورها في العصر الحديث، وكان أولَها ظهورا المنهج البنيوي الذي أرسى دعائمه العالم اللساني " فرديناند دي سوسير" ومثل حينها تحولا جديدا وجذرياً في مجال الدراسات اللسانية.

[1]– محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، دار الهدى، د ط، الجزائر، 2009م، 68.

[2]– محمد علي عبد الكريم الرديني، المرجع نفسه، 69.

[3]– ينظر: محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، القاهرة، 1427هـ– 2006م، 22.

وللوقوف على هذين المنهجين عند سيبويه مفصلين بحسب ما جاء في كتابه في ضوء اللسانيات الحديثة لزم التأمل والتمعن فيهما من خلال هذا السِّفر اللغوي العظيم؛ من أجل حسن بيانهما:

1/ المنهج الوصفي:

أثبتت دراسات اللسانيين المحدثين بأن المنهج الوصفي قد عرف على خلاف غيره من المناهج نجاحًا باهرًا في تطبيقاته على ظواهر اللغة، وأنه قد حظي بقبول واستحسان كبيرين من طرف الدارسين في حقل اللسانيات، وذلك بفضل سلامة نتائجه ودقتها، وبفضل قيام هذا المنهج على أسس علمية يصعب ويندر أن تطبق على غيره من المناهج اللسانية الأخرى لجنوحها إلى العوامل الذاتية المختلفة، وإذا تأمَّلنا خصائص المنهج الوصفي أيقنَّا بأنَّه لا يهتمُّ إلا باللغة المتكلَّمة، وأنَّه يتجنب الاعتماد على المادة المكتوبة والقواعد النحوية القديمة؛ لأنها أسست على معايير يرفضها هذا المنهج من أمثلة التعليل والافتراض والتأويل وغيرها[1].

ولقد واجهت الدارسين العرب المحدثين في تطبيقهم المنهج الوصفي على الظواهر اللغوية للغة العربية عدة عقبات، تعلقت بخصوصية اللغة فاتهموها بالقصور تارة وبالمغالاة في المعيارية تارة أخرى، واللغة العربية من كل تلك التهم براء وإنما هي الخصوصية والتميز، وهي مع ذلك كله منفتحة على غيرها من اللغات طيعة لكثير من المناهج، والناظر في تراثنا اللغوي القديم يجد المنهج الوصفي مجسدا بحذافيره في الدرس اللغوي العربي القديم، بل إن الأسس الحقيقية لهذا المنهج عند الغربيين أنفسهم" إنما ترجع إلى فكر العرب، ونظريات المسلمين أو قل: مساهمتهم الكبرى في بناء هذا الصرح الشامخ في الحضارة اللغوية الإنسانية"[2]، وكتاب سيبويه نموذج هام عن الدراسات اللغوية القديمة، فقد طبق فيه

[1]– ينظر: صلاح الدين صالح حسنين، مرجع سابق، 99.

[2]– عبد الله ربيع، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، مجلة كلية اللغة العربية، العدد: 9، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، د ت، المجلد: 1، 79.

صاحبه المنهج الوصفي ووظفه توظيفا علميا بارعا، فكانت صنعته مثالا يُحتذى ويُهتدى به وعملا علميا بديعا لا يجارى ولا يبارى.

ولئن كان الدكتور تمام حسان من أبرز المدافعين عن الموقف اللغوي النقدي القائل بمعيارية الدرس اللغوي العربي فإنه يعود ليستثني قلة قليلة من أولئك اللغويين وأبرزهم سيبويه والجرجاني، وأما القائلون بمعيارية الدرس اللغوي العربي فقد دعاهم إلى ذلك التأثر" بالبنوية إلى أبعد حدٍّ ولم يحاولوا أن ينظروا فيما تركه لنا العلماء القدامى النظر المجرد من كل حكم سابق، وتعسفوا باتخاذهم المذاهب الحديثة كمبدأ وكمنطلَق يُجوِّز الحكم على كل شيء بما تَقرَّر فيها وعلى مقياسها"[1].

بل لقد ذهب الدكتور نوزاد حسن أحمد إلى أن السبب الرئيس وراء انتهاء البحث اللغوي بعد سيبويه هو أنَّ مؤلَّفه الكتاب كتاب علمي وصفي بامتياز الأمر الذي جعل عجلة التأليف اللغوي تتوقف عند سيبويه إذ لا حاجة ولا مجال بعده للتأليف فقال:" إنَّ من أهم أسباب توقف البحث عند كتاب سيبويه هو أنه كتاب موضوعه اللغة، ويضم المستويات اللغوية كلها من أصوات وأبنية وتراكيب ودلالات، ثم إنه يمثل النبع الصافي للمنهج الوصفي عند العرب إذ وقف صاحبه عند الظواهر اللغوية طويلا يصف حقائقها ويتأمل أسرارها، ويحلل بنيتها ليصل إلى أحكام تمثل غاية في النضج"[2]، وقد كان العلماء من قبله يستدركون على كتب غيرهم بالحواشي والتعليقات والردود والمؤلفات، فلما أن جاء كتاب سيبويه لم يستطيعوا الإتيان بمثله كما وصف ذلك المديني إذ قال:" من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي"[3].

---

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 246.

[2]– نوزاد حسن أحمد، مرجع سابق، 14.

[3]– علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط 1، القاهرة، 1406هـ– 1982م، ج: 2، 348.

والحق أن جميع المضطلعين باللغة ودعاة الوصفية المحدثون الثائرون على التراث اللغوي العربي المتهمون إياه بالإيغال والإغراق الشديد في المعيارية عاجزون أشد العجز عن أن يأتوا بمثل كتاب سيبويه، وقد حاولوا ذلك كثيرا خائبين، والواقع أن آليات المنهج الوصفي وتقنياته حاضرة في الدرس اللغوي العربي عموما بصفة جلية تقف بنا كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين عند حد افتراض سبق الحضارات القديمة إلى المنهج الوصفي، فتاريخ النحو العربي يدلّ على اتّخاذه منهج الوصف في تحليل الظواهر اللغوية بدءا بالاستقراء الذي برز بشكل جلي في كتاب سيبويه.

2/ المنهج المعياري:

ذهب كثير من الدارسين المحدثين إلى الزعم بأنَّ النحو العربي كان نحوا معياريًا صرفًا لا حظَّ فيه للمنهج الوصفي، لينفوا عنه بذلك صفة العلمية التي اصطبغت بها الدراسات اللسانيات الحديثة باعتمادها على المنهج الوصفي منذ ظهور كتاب ديسوسير " محاضرات في علم اللغة العام".

ولعبد الرحمان الحاج صالح رأي سديد يخالف به أصحاب هذا المذهب أو الزعم، يثبت فيه اعتماد النحاة العرب كسيبويه والخليل على المنهج الوصفي، ويبين فيه بأن مجرَّد الحكم بأنَّ هذا جيد أو قبيح لا ينفي عن النحوي صفة العلمية والموضوعية، وهذه في الحقيقة نظرة علمية جيدة في هذا الطرح من الأستاذ اللساني، أتت للحكم بأن الدرس اللغوي العربي عند سيبويه وغيره من نحاة العربية كان نحوا علميا متكاملا (وصفيا معياريا)، يقول الأستاذ:" وقد قالوا بأن الحكم بالصواب أو الخطأ ليس مما يعتبر موضوعيا، وقول سيبويه وكل نحاة العرب كما قلنا، بأن هذا الضرب من الكلام حسن وذاك قبيح، وكذلك قولهم: هذا حد الكلام ووجهه، أو ليس بحد الكلام، لا يأتي مثلُه في العلوم؛ لأنَّه ليس بوصفٍ للظواهر كما هي عليه"[1].

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 247– 248.

وكان اختلافهم في بيان المنهج العلمي الذي حكم الدرس اللغوي العربي سببا في اختلاف نتائج دراساتهم وأبحاثهم، فانقسموا لذلك فهم بين منصف في ذلك قائل بازدواجية المنهج في الدرس اللغوي العربي، إلى مجحف في حق أولئك الدارسين الأُول، قاصرٍ لجهودِ العرب على المنهج المعياري فحسْب، فهو يُرجعِ السّبب في ذلك إلى طريقة تأليف القدامى لكتبهم النحوية واللغوية، وإلى أسلوب بسطهم لعلوم اللغة وتعليمهم النشء هذا العلم الجديد وهو علم النحو أو التراكيب من خلال مؤلفاتهم الغزيرة ومن خلال حِلقهم التعليمية، وهو ما أوجب عليهم تطبيق المنهج المعياري في أثناء دراستهم للغة، ووضعهم لقواعد العربية، ولم يكن من بين كل هؤلاء من يثبت للعرب الوصفية وحدها وينفي عنها المعيارية بالجملة؛ إذ لا خلاف بينهم في معيارية الدرس اللغوي العربي وإنما الخلاف في وصفيته.

وأمَّا التوفيقيون القائلون بثنائية المنهج في الدرس اللغوي العربي، فقد وافقوا الصواب في حكمهم.

ويفاضل عبد الرحمان الحاج صالح بما أوتيه من ناصية النقد العلمي الدقيق بين الدرس اللغوي العربي وبين والدرس اللغوي عند الغرب، ليسجل بذلك ملاحظاته وتعقيباته على ما انبنت عليه اللسانيات الحديثة فينقدها في أصولها وفي نشأتها الأولى؛ إذ بيَّن رحمه الله بأن معيار العربية:" لم يكن معيارا تحكميا وذاتيا؛ إذ مرجعه الموضوعي هو لغة القرآن، ولغة العرب الناطقين بهذه اللغة قبل ظهور الإسلام، وبعده ممن لم تتغير لغتهم، ولم يكن هذا المعيار لغة فئة طبقية منهم، كما كان معيار النحوي الفرنسي فوجولا" Vaugalas" في القرن السابع عشر بالنسبة للغة الفرنسية"[1].

إنَّ عناية النحاة العرب بالمنهج المعياري دفعت بكثير من الباحثين إلى التجني على النحو العربي حين حكموا عليه بأنَّه نحو معياري محض بهذا المعنى السلبي، وأطلقوا ذلك الحكم

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 247.

على كل النحاة العرب القدامى، واستدلوا على ذلك بطرف من كلام سيبويه وغيره[1] بأن:" هذا جَيِّد أو حسن"[2]، و" ذاك قبيح"[3]، و" أن هذا جائز وذاك لا يجوز"[4]، ولا شك أنَّ الدراسات اللسانيةَ الحديثة قد قامت على مثل ما قام عليه النحو العربي أوَّل أمره، لقد قامت على" المنهج المعياري فإنه أقدم المناهج المعروفة في الغرب، حيث بدأت الدراسات اللغوية عندهم معيارية، واستُعمل لها عبارة اللغة المعيارية أو المصطلح التحكمي، وهو بخلاف المنهج الوصفي ينأى عن وصف اللغة المستعملة"[5]، فكيف ينقِمون على الدرس اللغوي العربي وينكرون عليه صفة العلمية، وكأنهم قد نصبوا أنفسهم ووقفوها حكما على العربية، وأهلُ العربية هم أساتذة العالم وأساطينه في كل العلوم.

ويقف عبد الرحمان الحاج صالح موقفا وسطا في موضوع تصاقب المعيارية الوصفية ليثبت بأن الدرس العربي بدأ معياريا ثم جنح إلى الوصف حين تمت مرحلة المشافهة عن العرب، وقد برَّأ سيبويه من تهم المغالاة في المعيارية ومن مخالفة الطرق العلمية والموضوعية التي يكفلها المنهج الوصفي للنحاة ليقول الأستاذ" فأما ما يخص النحو العربي فقد حكم عليه بعضهم بأنه معياري بهذا المعنى السلبي، وصفوا بذلك موقف كل النحاة القدامى واستدلوا على ذلك بقول سيبويه وغيره بأن هذا جيد أو حسن وذاك قبيح، وأن هذا جائز وذاك لا يجوز، ولذلك لا يمكن أن يُعد النحو العربي علما من الناحية الموضوعية بل هو نحو تعليمي كما هو كذلك النحو التعليمي في سائر اللغات، وليس الأمر كذلك أبدا"[6].

ويمضي الأستاذ في دفع الشبهات عن سيبويه وعن نحاة العربية في مسعى للتأكيد على علمية اللغة العربية، ولأجل بيان تفوقها على اللسانيات الحديثة ومناهجها المختلفة فيقول

---

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 246.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 69، ج: 2، 378.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 379.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 383.

[5]– نوزاد حسن أحمد، مرجع سابق، 30.

[6]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 246.

على إثر ذلك:" فقد تأثر هؤلاء بالبنيوية إلى أبعد حد ولم يحاولوا أن ينظروا فيما تركه لنا العلماء القدامى النظر المجرد من كل حكم سابق، وتعسفوا باتخاذهم المذاهب الحديثة كمبدأ وكمنطلَق يُجَوِّزُ الحكم على كل شيء بما تقرَّر فيها وعلى مقياسها"[1]، وإلى قريب من هذا المعنى أشار تلميذ العلامة الحاج صالح وهو الدكتور صالح بلعيد فقال:" يطعن البعض في قانون المعيار الذي تحتكم إليه العربية وكأنه خاصية العربية دون غيرها من اللغات، ونحن نعلم أنه لا توجد لغة دون قانون ومعيار"[2].

ويضيف عبد الرحمان الحاج صالح إلى ما سبق وفي ذات السياق في مناسبة أخرى ليؤكِّد ويراهنَ على صفة العلمية في كتب اللغويين الأولين جميعا، وفي كتاب سيبويه بدرجة أعظم وأظهر من خلال انتقال سيبويه في كتابه من المنهج المعياري إلى المنهج الوصفي ليقول:" وكان النحو عند نشأته علميا وتعليميا في الوقت نفسِه، فقد كان علميًّا؛ لأنه كان تدوينا لأول مرة في التاريخ لأصول العربية... ثم احتاج الباحث فيه أن يبرر ما يجيزه من الكلام فاضطر أن يأتي بأدلة علمية من قبيل التفسير العلميّ، وظهر ذلك في زمان عبد الله بن أبي إسحاق حتى بلغ الغاية في كتاب سيبويه"[3].

وللتمييز بين المنهج المعياري والمنهج الوصفي يمكننا إعمال أداتين اثنتين هما:" كيف"، و" لماذا"، وإذا كانت إجابة" كيف" وصفاً، وإجابة" لماذا" غرضاً وهدفاً، رأينا بين هاتين الأداتين من الفرق ما بين الوصف والمعيار، وإذا كان الوصف في إجابة الأداة الأولى واضحا في شرح الكيفية، فإن المعيار في إجابة الأداة الثانية واضح في جعل الهدف أو الإرادة أو الغرض هو المقياس الذي يجب أن تخضع له الحوادث"[4]، وقد وقفنا على جميع

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 246.

[2]– صالح بلعيد، مرجع سابق، 21.

[3]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 14.

[4]– تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، 51– 52.

ذلك في الكتاب فألفيناه كثيرا واضحا لائحا لا سبيل فيه لدفع أي من هذين المنهجين اللازمَين المتلازمَين.

وللمجتمع أيضا دوره البارز في سن القوانين التي يشاء مما يمكن أن تنتظم به مصالح الأفراد وشؤونهم، وهو الذي يضع اللغة التي يشاء ويختار لأفراده، فما أجازه منها فهو الجائز وما منعه منها فهو الممتنع، فمن أجل ذلك كان معيارا للصواب اللغوي من الخطأ وهو ما توليه النظريات الاجتماعية اليوم الاهتمام البالغ، وقد سبقها بن خلدون إلى ذلك بقرون عندما بين أن الأفراد إنما يكتسبون لغتهم من المجتمع فقال:" إنَّما هي ملَكة في ألسنتِهم يَأخذُها الآخِر عن الأوَّل كما تَأخذ صبيانُنا لهذا العهد لغاتِنا"[1]، وإلى ذلك أشار سيبويه قبلهم جميعا عندما قال:" استحسن من هذا ما استحسنت العرب، وأجزه كما أجازته"[2]، ولقد كانت جميع أحكام سيبويه المعيارية على لغات العرب بالصواب من عدمه أحكاما موضوعية ولم تكن أحكاما ذاتية غير مستقرأة ولا متعسفة؛ إذ هي مستمدة من المجتمع ونابعة منه، فهو لا يقول عبثا:" ليس من كلام العرب"[3]، ولا:" لأن من كلام العرب أن يحذفوا ولا يعوضوا"[4].

دلَّ كل ما سبق من أقوال هؤلاء على ما للمجتمع من حظوة وسلطة لوضع المعايير التي يريد لأفراده، " فهل من لغة في الدنيا لا يخضع الناطقون بها لما تواضع عليه المجتمع الذي ينتمي إلى هذه اللغة؟ وهل هذا المتواضَع عليه من نظام نحوي صرفي ونظام معجمي إلا المعيار الذي اختاروه وتوارثوه؟ فالمعيار الموضوعي هو أيضا ظاهرة يجب الاعتداد بها ككل الأوضاع الاجتماعية الأساسية"[5].

---

[1]– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة: (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، 754.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 69.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 259.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 83.

[5]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 246– 247.

إنَّ المجتمَع هو الذي يحدد لأفراده الاستعمال الصائب ويحدد له المدلولات المناسبة أيضا، فإن ألفاظا من أمثلة:" تكييف هواء، مظاهرة، نُصب تذكاري، أستاذ بكرسي، نقابة المعلِّمين، مجلة الإذاعة، البنط العريض، قانون المرور؟ إننا لو تصورنا أن أحد أبناء الجيل الذي قبل الماضي قد بعث، وطُلب إليه أن يُحدد مدلولات هذه العبارات، لكان من المؤكَّد أن يفشل في تحديدها؛ لأن تجارب مجتمَعنا غيرُ تجارب المجتمَع الذي عاش فيه؛ ومن ثمة كانت لغتنا غيرُ لغة ذلك المجتمَع"[1]، فلا يمكن العلم بمدلولاتها إلا عن طريق ذلك المجتمع، فله بحسَب علماء الاجتماع السلطة المطْلقة في التواضع على الاصطلاحات المناسبة للمدلولات والمعاني المختلفة التي تستجد في كل حين وتطرأ، ثم إن هذه الظاهرة – ظاهرة التعدد أو الاختلاف في الاصطلاح– قديمة مشتهرة في تاريخ الآداب واللغات العربية، بل هي إحدى خصائص اللغة العربية في قبائل العرب المختلفة؛ إذ بها تتماز كل قبيلة عن غيرها، وكثيرا ما نبَّه سيبويه على ضرورة التزام مصطلحات قبائل العرب، وعلى مراعاة أزمنتها وبيئاتها وظروف نشأتها وسياقاتها المختلفة.

لكنَّ ثلَّة من الباحثين أو المثقفين لم يرعهم ذلك الصنيع العظيم من علماء العربية ولم يُرضهم، فانبرَوا لذلك يتعسفون في توجيه التهم للنحاة العرب بدعوى مجانبة أبحاثهم للعلمية وخلوها من الوصفية وبعدها عن الموضوعية واتصافها بالذاتية، يقول الحاج صالح:" ومع ذلك فقد اتُّهم اللغويون العرب بانشغالهم فقط بإصدار الأحكام على أساس الصواب والخطأ، وهو أسلوب غير وصفي بل تقريري"[2]، فهم في ذلك غير منصفين؛ لأنهم لم يعللوا ادعاءاتهم واتهاماتهم بعلل علمية رصينة ودقيقة، بل إنَّ عللهم نفسَها يغلب عليها الانطباع والميول.

ولقد أنصف الدكتور تمام حسان سيبويه إذ استثناه وطائفةً من النحاة من بين علماء العربية الذين بالغ في اتهامهم – على أي حال– بالمعيارية المحضة في دراساتهم فقال:" لا نكاد نستثني منها إلا قلة ظهرت في أول عهد العرب بهذه الدراسات، فقامت على الوصف

[1]– تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، 16.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 250.

في الكثير من أبوابها، ولم تقع في المعيارية حين وقعت فيها إلا من قبيل التوسع في التعبير، من ذلك كتاب سيبويه، وكتابا عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز"[1].

ويستخدم سيبويه في منهجه المعياري جملة من المصطلحات والمفاهيم تميز المنهج المعياري عن غيره من المناهج منها" الصواب" في قوله:" فقال النحويّون: أمّا العِلْمَ والعَبيدَ فذو علم وذو عبيد، وهذا قبيح؛ لأنَّك لو أفردتَه كان الرفعُ الصوابَ"[2]، والخطأ في مثل قوله:" فهذا اضطرار، وهو في الكلام خطأ"[3]، والكثرة والاستعمال من أمثلة قوله:" الكثير الاستعمال من الأسماء وغيرها الذي تكلم به العامة؛ لأنه أشد تفسيراً"[4]، والقياس في مثل:" قال الأخفش: فهذا رديء في القياس"[5]، والغلبة في مثل قوله:" وإلى الغالب في كلام العرب"[6]، والجواز والحُسن نحو:" كان هذا في الجواز والحسن بمنزلة تأخير الاسم إذا أردت معنى أيهما"[7]، والقبح كقوله:" فهو في القبح وأنه لا يجوز"[8]، والشذوذ في قوله:" الشاذ المنكَر في القياس"[9]، والصحة في قوله:" وهو كلام صحيح"[10]، والفصاحة في نحو قوله:" وأنشدناه هكذا هكذا أعرابي من أفصح الناس، وزعم أنه شعر أبيه"[11]، فهذه نماذج من الاصطلاحات والقوانين العلمية للمعيارية عند سيبويه سبق إليها الغربيين بعدة قرون، فكان الأولى أن يكونوا فيها تبعا له.

---

[1]– تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، 12.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 389.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 62.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 235.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 80.

[6]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 431.

[7]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 179.

[8]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 364.

[9]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 406.

[10]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 405.

[11]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 300.

المبحث الثاني: إضاءات سيبويه ونظراته النحوية وأثرها في علم اللسانيات

المطلب الأول: منهج السماع والقياس اللغويين في كتاب سيبويه

المطلب الثاني: تصوُّر الحاج صالح لنظرية الوضع والاستعمال عند سيبويه

المطلب الثالث: الاطراد والشذوذ في الكتاب في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

المطلب الرابع: صيحات تيسير نحو سيبويه

المطلب الأول: منهج السماع والقياس اللغويين في كتاب سيبويه

أ/ منهج السماع في كتاب سيبويه:

ليس بالمجازفة الزعم بأنَّ عماد الدراسات اللغوية الأولى عند علماء العربية ومنطلقها كان من السماع اللغوي، وهذا بديهي ومسلم به عند جميع الباحثين العرب المحدثين تقريبا على غرار المتقدِّمين، وإنما مكمن الخلاف ومداره حول عموم بحوثهم وحول المنهج الغالب على أسلوب دراستهم، فكان ذلك محل خلاف كبير بينهم خصوصا إذا تعلق الأمر بالنحو البصري الذي اتهم بالمعيارية والإغراق والإيغال الشديدين في القياس والصورنة والتجريد.

وقد بيَّن أنيس فريحة بأنَّ السماع اللغوي:" مبدأ لغوي يعتمد النقل أو سماعَ ما ورد في نص ثابتٍ معترَفٍ بفصاحته وبلاغته، أو ما سُمِع عن عربيّ فصيحٍ شعراً كان أم نثرًا"[1]، ويعد السماع عند أهل اللغة بمثابة النموذج اللغوي الأول والأصلي الذي تنبني عليه القاعدة اللغوية، فالمسموع هو المنوال الذي يهتدي به العالم لينسج على منواله ما يشاء من الكلمات والجمل، وتستمد القاعدة من المعطيات الأولى مجردة من الأقيسة العقلية، أي من السماع لا من الفروض والتجارب، فلا اجتهاد مع السماع.

ويقوم مبدأ السماع في اللسانيات الحديثة على تسجيل اللغة من الناطقين الأصليين بها؛ لأنهم أوثق وأأمن على لغتهم وأعلم بها ممن سواهم، شرط أن يكون الراوي الذي اعتمد في ذلك أميا لئلا يقع في التكلف والتصنع ويدخل على اللغة ما ليس منها، وهو ما التزمه سيبويه في تدوينه درس العربية، "وإن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية، حيث يمكن تزويد البحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، وهو الذي يعرف فنيا باسم الراوي اللغوي" Informant"، ودرجةُ الثقافة المطلوبة في الراوي اللغوي أمر نسبي"[2].

---

[1]– أنيس فريحة، مرجع سابق، 126.

[2]– ماريو باي، أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط 8، القاهرة، 1419هـ– 1998م، 120.

وجعل سيبويه وعلماء العربية قاطبة السماع في المقام الأول من علم اللغة العربية، فكان هو الأصل الأول عندهم، وجعلوا القياس فرعا عنه تاليا له، إلا أن سيبويه على ما كشف عنه عبد الرحمان الحاج صالح كان أشدّ تحرّيًا في النقل عن العرب، يقول الأستاذ:" وأشدُّ النحاة تحرجًا فيما يخص السماع والاعتداد به أولا قبل اللجوء إلى القياس هو سيبويه، فإنه كان لا يجيز أن يقاس شيء لا تعرفه العرب، فقد تكون تستعمل شيئا آخر بدلا منه، أما ما لا تعرفه أصلا ولم تستعمل فيه شيئا فهذا وحده يجوز عنده أن يلجأ فيه إلى القياس"[1].

والتزم سيبويه في كتابه النقل عن العرب، فلم يأت بقاعدة في النحو ولا ببناء في اللغة إلا في ضوء ما سمعه من العرب أو من أئمته في علم العربية، فكان يبحث في أقيسته وتعليلاته في كتابه عن الأصل أو المنوال اللغوي ليقيم عليه قاعدته، وذلك كثير في كتابه، وفي هذا المثال يتجلى تسليم سيبويه للعرب في أمر القياس، ويظهر عظيم التزامه بمبدأ السماع عنهم قبل أن يقيس شيئا، يقول سيبويه:" ولو سمّيت امرأة بشفةٍ أو أمةٍ ثم كسّرت لقلت: آمٍ، وشفاهٌ وإماءٌ، ولا تقل: شفاتٌ ولا أماتٌ؛ لأنَّهن أسماء قد جمعن، ولم يفعل بهن هذا، ولا تقل إلاّ آمٍ في أدنى العدد؛ لأنه ليس بقياس، فلا تجاوز به هذا؛ لأنَّها أسماء كسّرتها العرب، وهي في تسميتك بها الرجال والنساء أسماء بمنزلتها هنا، وقال بعض العرب: أمةٌ وإموانٌ، كما قالوا: أخٌ وأخوانٌ"[2]، فقد جعل السماع عن العرب شرطا أولا للقياس.

ثم أكد ذلك غير بعيد في هذا السياق ذاته قائلا:" وإذا سميت رجلاً أو امرأة بشيء كان وصفا، ثم أردت أن تكسِّره كسّرته على حدّ تكسيرك إيّاه لو كان على القياس، فإن كان اسماً قد كسّرته العرب لم تجاوز ذلك"[3].

وقد أفرد عبد الرحمان الحاج صالح السماع اللغوي العربي الذي راهن على وصفه بالعلمية بكتاب مستقل، واعتبره أعظم إرث لغوي حضاري وأوسعه فقال في ذلك:" إن المدونة اللغوية

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 103.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 402.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 402.

التي اختصت بها اللغة العربية، وهي ما يسميها القدامى بالمسموع أو السماع كاسم هي كما رأينا أعظم مدونة لغوية شهدها تاريخ البشرية"[1]؛ لأن ما بقي من مرويات العرب إلى اليوم شعرا ونثرا مما امتلأت به خزائن العلوم في الأرض مثَّل أكبر خزانة لغوية في العالم، وهو بالقياس إلى ما فُقد من كتب اللغة العربية نزر يسير، ومع ذلك فقد فاق من حيث الكم والكيف جميع لغات العالم، وقد هيأت تلك الخزائن لصناعة لغة عالمية عظيمة حملت للإنسانية جميع علومها عندما لم تكن كثير من اللغات كاللغة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية وغيرها شيئا مذكورا، ويتنبأ جميع العلماء بأن تكون في المستقبل اللغة الغالبة والباقية والسائدة.

وأشاد عبد الرحمان الحاج صالح في سياق آخر جعله مخصصا للحديث عن ظاهرتي الاطراد والشذوذ في العربية بجهود سيبويه وعلماء العربية الأولين في السماع اللغوي العلمي العربي، فعدها أفضل صور البذل والبحث والتحري في تاريخ الدرس اللغوي العربي، فقال وقد استطرد في بيان فضل سيبويه وجهوده في هذا الباب:" ولا يمكن أن يخبرنا عن ذلك إلا من نزل إلى الميدان هو بنفسه، وتتبع استعمال العرب لكل كيان لغوي، ويظهر ذلك بوضوح في أوصاف الكثرة أو القلة التي وصف بها سيبويه وشيوخُه وتلاميذه ما شاهدوه بالفعل، وفي عين المكان لشتى النُّحُوِّ، أي لمختلِف أضرب الكلام، وهذه ميزة لهؤلاء امتازوا بها عن من جاء بعدهم بعد انتهاء التحريات الميدانية، ولذلك يفوق فضلهم فضل كل من جاء بعدهم"[2].

الفرق بين سماع اللغويين وسماع المحَدِّثين:

لكل علم منهجه وطريقته في تناول القضايا العلمية ودراستها، وقد فرق عبد الرحمان الحاج صالح بين سماع اللغويين وسماع المحدثين، فبين أن علماء اللغة إنما يأخذون اللغة غضة طرية حديثا عهدها بصاحبها بسند قصير يقرب أن يكون بلا واسطة، أي من مصدرها أو

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 251.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 203.

قائلها الأول، فلا يحتاجون إلى طول سند أو كثرة رجالات، فغالب مروياتهم تنتهي إلى أبي زيد أو الأصمعي أو أبي عمرو بن العلاء مع عدد قليل جدا من الرواة قد لا يزيد في الغالب عن اثنين، أي عن الراوي والسامع بلا واسطة ولا طول عنعنة أو طول زمان بينهما، فقال الأستاذ الحاج صالح:" هذا ولا بد أن نتنبه إلى الفوارق التي يفترق فيها سماع اللغويين والمحَدِّثين، فسيبويه وكل العلماء... وكل ما كان يروى من قديم الشعر ينتهي غالبا إلى أبي عمرو بن العلاء، بينما كان أصحاب الحديث مضطرين إلى ذكر أسانيدهم الطويلة في ذلك الزمان بالذات إلى التابعين ثم الصحابة"[1]، ثم قال في موضع آخر مشيدا ومنوها بهذه المزية وهذا الفضل لأهل اللغة ألا وهو قصر السند وقرب الرجال وقلتهم في السند فقال:" ولم يحتج النحوي منهم في ذلك الزمان إلى إسناد؛ لأنه أو شيخه المصدر الأول لما سمعه فإذا روى عن شيخه يكون له إسناد إلى عالم واحد فقط بينه وبين العرب، فهم بالنسبة إلى كلام العرب كالصحابة أو التابعين بالنسبة للحديث الشريف"[2]، ولا ريب أن لهذه الميزة في السماع أهمية بالغة في نقل العلوم والمعارف صحيحة سليمة من التحريف والسقط والنسيان، فكلما قصر السند وتقارب زمان رُوّاته وقلت رجالاته كلما صحت الرواية وقويت، وقوي العمل والاحتجاج بها، وكلما طال وبعد وكثرت رجالاته كلما داخله النقص والخطل، فضعف العمل والاحتجاج به.

ويُصطلح على السماع النقل، كما يصطلح على القياس العقل، وهما وجهان لعملة واحدة هي" اللغة العربية الفصيحة"، ذلك أنَّ هو تسجيل النقول على اختلاف أنواعها، لغة كانت أو قرآنا أو حديثا، وإيصالها إلى المتلقين، أو تدوينها في الكتب، وأنَّ القياس متمِّمٌ للسماع؛ لأنَّه يقوم على إعمال العقل في فهم السماعات المختلفة والنصوص المنقولة وتعليلها منطقيًّا، ونسج ما أمكن من الأمثلة اللغوية عليها، وقد نوَّع علماء العربية في بداية تدوينهم للغة بين المنهجين فاعتمدوا السماع في الوقوف على العادات النطقية للمتكلمين؛ وذلك من أجل ربط

[1] – عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 257.

[2] – عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 258.

الدرس اللغوي بالاستعمال الواقعي للغة، فالسماع اللغوي من هنا هو التلقي المباشر عن الناطقين الفصحاء كالأعراب، واعتمدوا القياس في الوقوف على سماعاتهم اللغوية عن العرب فدرسوها دراسة علمية، وذلك من خلال تطبيق قواعد وقوانين الصناعة النحوية والدراسات اللغوية المختلفة على نصوصهم المعرفية اللغوية الثلاثة المعتمدة في الاستدلال في العربية.

ويروى أنَّ الحسن بن قحطبة جمع" عند مقدمه مدينة السلام الكسائي والأصمعي وعيسى بن عمر، فألقى عيسى على الكسائي هذه المسألة: همك ما أهمك، فذهب الكسائي يقول: يجوز كذا ويجوز كذا، فقال له عيسى: عافاك الله، إنما أريد كلام العرب، وليس هذا الذي تأتي به كلام العرب"[1]، قال أبو العباس ثعلب:" وليس يقدر أحد أن يخطئ في هذه المسألة؛ لأنه كيف أعرب فهو مصيب، وإنما أراد عيسى من الكسائي أن يأتيه باللفظة التي وقعت إليه"[2]، وقد قدَّم سيبويه المشافهة والسماع على الكتابة والقراءة في جمعه للغة وتقعيده لها، " فلم يأت في هذا الكتاب ولا مرة واحدة كلمة: قرأت في، أو أخبرني فلان في كتابه وغير ذلك، بل يلجأ سيبويه من أول كتابه إلى آخر سطوره إلى عبارة سمعت وحدثني، مما يدل على أن مصادره هي كلها شفاهية"[3].

ب/ منهج القياس في كتاب سيبويه:

1/ تعريف القياس اللغوي عند اللسانيين:

يقصد بالقياس اللغوي عند اللسانيين" مقارنة كلمات بكلمات أو صيغ بصيغ أو استعمال باستعمال، رغبة في التوسع اللغوي، وحرصا على اطراد الظواهر اللغوية"[4].

---

[1]– محمد بن الحسن الزبيدي، مرجع سابق، 42.

[2]– محمد بن الحسن الزبيدي، المرجع نفسه، 42.

[3]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 254.

[4]– إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 08.

كما يعني القياس" دراسة وتحليل الظاهرة اللغوية في مستوياتها اللغوية شكلا ووظيفة ودلالة"[1].

2/ عمل سيبويه بالقياس في كتابه:

يعد القياس اللغوي الطبيعي أسلوبا علميا هاما في الأبحاث اللغوية؛ لأنه يقوم على ضوابط اللغة ويرفض التأمل العقلي القائم على التفلسف، ومع كونه سمة من سمات المنهج المعياري الذي يعد نحوه نحوا تعليميا يحتاج فيه إلى المثال والقاعدة، إلا أنه لا يتعارض مع المنهج الوصفي الذي يغلب عليه إعمال العقل لأجل الوصف.

وعلى الرغم من اشتهار البصريين بمنهج القياس كمنهج أول في الاستدلال والتقعيد للغة، إلا أن السماع هو المنهج الغالب على سيبويه، وهو العالم البصري الأبرز من خلال صنعته النحوية العلمية البديعة المعروفة، يقول عبد الرحمان الحاج صالح:" وقد رأينا في دراستنا السابقة للسماع اللغوي أن سيبويه يتحرَّجُ كثيرًا في إجراء القياس إذا لم يسمع العرب تقوله"[2]، وفي ذلك برأينا احتذاء واقتفاء واقتداء بمنهج العرب وانتحاء لسمتهم في الكلام، فقد كانوا سماعيين أكثر من كونهم قياسيين، ومتى ما سئل أحدهم عن ظاهرة لغوية لجأ إلى السماع وهو أقدر الناس على القياس وأعلمهم به، فترْكُه القياس مع الاقتدار عليه وجنوحه إلى السماع مع إمكانه الاستغناء عنه دليل قوي لأولوية السماع وأوَّليتِه على القياس، فذلك هو منهج سيبويه في كتابه، وهو ما يتفق مع المنهج الوصفي وما تدعوا إليه اللسانيات الحديثة، وقد سمَّاه سيبويه بالقياس اللازم، أو المتلئب أو المستمر؛ لأنه مادي مستنبَط من المسموع[3]، ومتى ما سئل العربي والأعرابي القياس استدل من سماعه وترك القياس، وإذا رأى في الخطاب لحنًا وبعدا عن الصواب استنكر ذلك التوجيه ومجه ورده، وعلل نكيره ورفضه بالمخالفة لسماع العرب، وبالبعد عن معهودهم.

---

[1]– نوزاد حسن أحمد، مرجع سابق، 29.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 99

[3]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 337.

ومع أنَّ الزمن والوضع الذي عاشه سيبويه وأقام لأجله مشروعه العلمي العظيم المتمثل في كتابه يحتم القياس، إلا أن السماع كان مقدما عنده على القياس التزاما بمنهج العرب في التخاطب، يقول عبد الرحمان الحاج صالح" لا يريد سيبويه طبعا أن يمنع القياس في أكثر الأحوال، بل يريد أن لا يتجاوز في ذلك ما يتكلم به العرب في نفس الموضوع، ولهذا لا ينبغي أن يعتبر سلوكه هذا بداة من البدوات أو مجرد تطرف في التمسك بالسماع، بل سلوك العالم المتمسك بالأصول العلمية البحتة"[1].

وأما اختياره القياس في كثير من المواطن من كتابه على شاكلة الكثير من أساتذته فقد كان بداع من الإصلاح للسان العرب؛ لأن رقعة السماع الفصيح وزمنه قد ضاقا وولَّيا، فقد غلب الفساد على كلام الناس فلم يبق فيه ما يصلح أن يكون سماعا فصيحا في مجمله إلا قليلا، حتى لقد ضاقت رقعت الفصاحة وقصَّرت عن الاحتجاج فاكتفى علماء العربية بعدد قليل من القبائل العربية الفصيحة التي حدَّدوها للاحتجاج بسماعاتهم عنها، فتلك هي التي يقاس عنها، فقد أيس سيبويه من أن يبقى في الناس سماع عربي فصيح، وعلم أن سيمضون في القياس ويحتاجون إليه في أزمنتهم الطويلة المقبلة.

وإننا اليوم في عصر ضعف العربية لأحوج ما نكون إلى القياس، بل إننا نرى القياس منهجا علميا عصريا جيدا ولازما، فلما علم سيبويه أنه لا يُصلح الناس إلا تعليمهم القياس، استعمل عقله بحكمة بالغة في كتابه، فلم يدع للناس مجالا للاستدراك والزيادة على ما وضعه وبينه من القياس، وليس القياس بالأمر اليسير حتى يكون شأن العامَّة من الناس فيخوضون فيه دون إحاطة وإلمام بمهمات المسائل والقضايا التي اشتملت عليها علوم العربية، فقد كفاهم سيبويه وأشياخ العربية – من سبقه ومن تلاه منهم في تلك الأزمنة الفاضلة– أمره وهمَّه.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 104.

المطلب الثاني: تصوُّر الحاج صالح لنظرية الوضع والاستعمال عند سيبويه

لا أدل على اهتمام عبد الرحمان الحاج صالح وعنايته البالغة بهذه النظرية اللسانية الهامة التي ينسبها إلى سيبويه وشيوخه في أصل وضعها الأول من إفرادها بكتاب خاص سماه:" الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال"، وأفرد لأجلها عددا من العناوين خدمة للسانيات الحديثة عامة وتيسيرًا على الباحثين، من بينها عنوان هام بعبارة:" ما سُمّي بعد سيبويه بالوضع والاستعمال"، وقد رأيناه يَعتب على المحدثين في عجب شديد إهمالهم لهذا الموضوع على أهميته في البحث اللغوي، إذ يصرح بأنه" من العجيب أن أكثر ما اكتشفه العلماء العرب وما أثبتوه من الحقائق العلمية لم يحظ إلا قليلا باهتمام الباحثين، وذلك كالمقابلة بين الوضع والاستعمال، وما يتصف به كل واحد منهما من الصفات والمزايا، والتمييز بين ما ينتمي إلى الأول وما لا يخرج من الثاني، ولماذا يمتنع أن يسوى أحدهما بالآخر، وما الكلام كبنية، وبما يجب أن لا يختلط بما يخص الكلام كخطاب، وغير ذلك"[1].

ولأن قضية الربط والتكامل بين العلوم اللغوية من أجود ما اشتهرت به الدراسات العربية الأولى، وهي طريقة في التحليل اللغوي تعتمد المزج بين جميع المستويات اللغوية فتدرس الظاهرة اللغوية الواحدة من عدة جوانب لغوية في آن واحد أكّد الأستاذ الحاج صالح بأنَّ تكافؤَ" واتحاد البلاغة والنحو في الاهتمام بالتراكيب، وخاصة في تنوعها بالنسبة للمعنى الواحد قد أثبته النحويون في إطار مقابلتهم بين اللغة والكلام، أي بين اللغة واستعمالها، وهي أساس نظريتهم اللسانية التي بنيت عليها علوم العربية، فهي من وضع النحاة الأولين مثل الخليل وسيبويه، واشتهرت هذه المقابلة بعدهم باصطلاح خاص وهو الوضع والاستعمال، وذلك ابتداء من الزجاجي في القرن الرابع"[2]، فقد تناولها علماء العربية بالدراسة منذ البدايات الأولى لتدوين اللغة وفق اصطلاحات أخرى غيرِ مصطلح الوضع والاستعمال الذي ظهر

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – وحدة الرغاية– الجزائر، د ط، 2012م، 17.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 12.

تحديدا في حديث الزجاجي، ثم زاد الاهتمام بهذا المصطلح كمصطلح علمي ونظرية علمية قائمة مستقلة متكاملة في تلك القرون التالية لزمن سيبويه، على خلاف الدارسين العرب المحدثين الذين قد أغفلوا دراستها في العصر الحديث، فلم يوَفُّوها حقها من البحث بحسب الأستاذ رحمه الله.

ويُقصد بالوضع في عُرف أهل اللغة اختيارات العرب الفصحاء وكذا العلماء اللسانيين الذين تلقوا عنهم العربية مشافهة، واصطلاحاتُهم واتفاقهم على وضع المصطلحات اللسانية بإزاء مدلولاتها، ويقصد بالاستعمال عندهم أيضا اختيارات المتخاطبين في تخاطبهم وانتقاؤهم من أوضاع اللغويين، وسمى الحاج صالح الوضع تقريبا للفهم لغة وسمى الاستعمال كلاما.

وتعد نظرية الوضع والاستعمال العربية موضوعا لغويًّا بالغ الأهمية، لتعلقها بأهمِّ أداة إنسانية تواصلية، ولمكانها منها، إذ هي تبحث بالأساس طريقة وضع واختيار المتكلمين للألفاظ في تعابيرهم، ما يستقيم منها وما لا يستقيم، وبحسب الحاج صالح فإن هذه النظرية مستمدة من فهوم سيبويه وشيوخه واجتهاداتهم، وإذا كان فلاسفة الغرب قد جعلوا للوضع معنى واحدا فحسب هو آلية وضع الألفاظ في اللغات، وبمعنى آخر قضية نشأة اللغات، فإن العرب قد تفطنوا إلى نوع آخر هام من الوضع، وهو الذي يختص بغايات ومقاصد المتكلم في تعبيره؛ أي على أية جهة وضع المتكلم كلامه، يقول عبد الرحمان الحاج صالح:" ولهذه الكلمة ومشتقاتها معنى آخر، لا جعل اللفظ المعين لمعنى بل جعل الكلام على صورة معينة وتركيب معين، وهو من معاني وضع أيضا كما سنراه"[1]، وهنا يستدل العلامة بقول سيبويه في كتابه:" لأنك إنما تسألهم على ما وضع عليه المتكلم كلامه"[2].

وأمَّا مسألة أصل اللغة فهي قضية خلافية قديمة متجددة، ويرى اللسانيون المحدثون أن المبالغة والمغالاة الشديدة في البحث فيها والانتصار لرأي دون آخر فيها لا يحقق للسانيات

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 23.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 407.

الحاضرة العلمية المنشودة، وأن البحث والعناية بقضايا النحو والصرف والبلاغة والمعاجم والدلالة أولى من البحث الزائد فيها، على أهميتها البالغة، ولا شك أن أصل اللغة ومصدرها عند كثير من علماء العربية وعلماء الدين توقيفي سماوي، لا يد للإنسان فيه.

ولم يجعل سيبويه هذا الموضوع من اهتماماته الكبرى في كتابه فيما يظهر، فلذلك لم يتبين موقفه منه صراحة كمثل ما تبين عند ابن جني في كتابه الخصائص في" باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح"، حين بين موقف جمهور أهل اللغة منه ثم استدل برأي البعض ممن خالفهم كأستاذه أبي علي فقال:" هذا موضِع محوِج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف"، إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يومًا: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه:" ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ آ 31 س البقرة، وهذا لا يتناول موضع الخلاف"[1].

في حين أن أصلها عند عموم أهل اللسانيات الحديثة وبصفة أكبر في اللسانيات الغربية هو أحد أمرين إما الطبيعة وإما الاصطلاح، على خلاف بين الرأيين، فالطبيعة تعني محاكاة أصوات الكائنات والموجودات الحية وغيرها، والاصطلاح يعني تواضع العلماء واتفاقهم بشأن اللغة، وشتان بين القول بتوقيف الله وبين القول بمحاكاة الموجودات، وبين القول بتواضع البشر واجتهاداتهم، فهذه نقائض ثلاثة لا تجتمع وإن بدا التوفيق فيها ممكنا.

ولمَّا تيقَّن عبد الرحمان الحاج صالح بأنَّ سيبويه قد استوفى هذا المفهوم حقه من الدراسة في الكتاب أخذ على نفسه ضرورة البحث فيه في محاولة لقراءته وتصوره في فكر سيبويه، حتى لقد أفرد له كتابا خاصا في سلسلته اللغوية التي اقتطعها من عمره المبارك للبحث في لغة العرب – كما سلف–، ليقرِّر فيه بأن الوضع والاستعمال في اللغة العربية وجهان لعملة واحدة هي التداول أو التخاطب، ذلك بأن وسيلة المخاطِب العربي - مثلما هي وسيلة غيره من المتخاطبين من كل أجناس البشر- ليحقِّق التعايش والتواصل اليومي وكذا التعارف

[1]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 41.

والتقارب الحضاري هي الوضع، وأنَّ غايته منه هي الاستعمال اللغوي الفصيح وكذا العلمي والمنظم، وتحقق هذا المقصد الأسمى المتمثل في التعايش والتفاهم بين المتخاطبين، فذلك قول الحاج صالح:" الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ".

إذا، فقد كان من نتائج أبحاث الحاج صالح وقراءاته لأعمال وأبحاث سيبويه اللغوية تبنيه أو إثباته لنظريَّة الوضع عند سيبويه، وهو يرى بأنها قد استوفت حقها من الدراسة الجادة والمعمَّقة في الكتاب كغيرها من المواضيع والظواهر اللغوية الأخرى، كما يقرِّرُ أيضا بأنَّها قد تفوَّقت على ما في اللسانيات الغربية، لذلك فـ" النظريةُ اللسانية التي بنيت عليها علوم العربية مقابلتُهم بين اللغة واستعمالها، وهي من وضع النحاة الأولين مثل الخليل وسيبويه، وهم بهذا يُعدّون أول من أثبت في التاريخ الفرق بين الكلام المستعمل بالفعل وأصل الوضع، أي بين الوضع والاستعمال، ولئن كان هذا هو الأساس الذي بنى عليه دي سوسير مقابلته بين langue و parole فإن النظرية العربية هي أعمق وأوسع من نظرية العالم السوسيري"[1].

كما يرى العلَّامة بأنَّ هذه النظريَّة قد" وردت في كتاب سيبويه بمعناها الأصلي في العربية؛ إذ لم ترد كمصطلَح من مصطلحات النحو، إلا أن تطبيقها على ألفاظ العربية كان جاريا عند أقدم النحاة، وهو المنطلق الحقيقي لتطورها وتخصصها على أيدي نحاة القرن الرابع كمصطلح لغوي معيَّن"[2]، وهو يعني بقوله:" بمعناها الأصلي" المعنى اللغوي، فكان ممكنا – بحسَب العلامة– تغلب المعنى أو المنطلق النحوي على المعنى اللغوي، وكأنه كان يتوقع من سيبويه وهو النحوي المبرّز تغليب المعنى النحوي على المعنى اللغوي؛ وذلك لولعه الشديد والعميق بالنحو، فكأن الاهتمام بالمنظور النحوي وتوجيه الألفاظ التوجيه النحوي كان أولى عند سيبويه بالنظر إلى اهتمامه البالغ بالنحو، لولا أنه آثر الحفاظ على

[1]– عبد السلام السيد حامد، النظرية النحوية عند عبد الرحمان الحاج 147،
Volume 5 (10) Agust 2018 ،Social Science Journal Educational & Route.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 21.

البعد أو الأساس اللغوي الذي يعطيه سيبويه كما يعطيه العلامة الأولوية القصوى، ويرى فيه الاختيار الصائب الخليق بالتغليب، على دأب علماء ذلك القرن، وكذا على معهود الفلاسفة الماضين.

ففي كتب كثير من العلماء غير سيبويه تتجلى العناية بالمعنى اللغوي الطبيعي والأصلي للفظة الوضع، في دلالة على أن التوجه إلى المعاني والاعتبارات الأخرى هو اختيار وتوجه لغير الأصل، ولقد عني الأولون بالوضع والتواضع في اللغة، إنْ في التعابير أو في إطلاق الأسامي بإزاء المسميات، واشترطوا لذلك شروطا محددة تضبطه وتنظمه حتى لا يُعبث بألفاظ اللغة فتصبح معانيها نشازا، يدل على ذلك قول أحد أعلام ذلك العهد الفاضل في دراسة اللغة:" ولا تجعل اللفظة قلقة في موضعها، نافرة عن مكانها؛ فإنك متى فعلت ذلك هجّنت الموضع الذي حاولت تحسينه، وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه؛ فإن وضع الألفاظ في غير أماكنها، وقصدك بها إلى غير مصابها، إنما هو كترقيع الثوب الذي إن لم تتشابه رقاعه، ولم تتقارب أجزاؤه خرج عن حدّ الجدّة، وتغيّر حسنه"[1]، ويدل عليها قول عَلَم آخر:" فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدلّة على المعاني، فإذا أوردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأولى أن تُحْمل تلك اللفظة على معنى، فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل: هذه زائدة، دخولها في الكلام كخروجها منه"[2]، فهذا معنى المواضعة، وهذه بعض شروطها وضوابطها.

ورأى الحاج صالح بأن مصطلح الوضع يتكرر كثيرا في كتاب سيبويه بصيغتي الفعل والمصدر الميمي، ويقصد به عند علماء اللغة الاصطلاح على الأشياء والمسميات، وتعليق الأسماء على المسميات لتعرف بها، ويسمى الاصطلاح والتوافق والاعتباط والتحكم والعلاقة غير الطبيعية أو غير الضرورية بين الدال والمدلول، ويطلِق عليه بعضهم توسعا في المعنى

[1]– أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، د ت، ج: 8، 269.

[2]– نصر الله بن الأثير الكاتب، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، 1420هـ، ج: 2، 152.

العشوائية والتعسفية، وربما جيء بهاتين التسميتين الأخيرتين على ما تحملانه من معنى التحرر من ضوابط اللغة بغرض التهكم أو التهجم على رواد مذهب المحاكاة والضرورة، وكذا على أنصار مذهب التوقيف.

فمن ألفاظ الوضع التي وردت في كتاب سيبويه قولُه:" الشِّعر وُضع للغناء والترنم"[1]، أي أنَّه جُعِل لأجل إراحة للنفوس، وقد ضبط ديننا الحنيف استعماله وقيده بجملة من الأغراض المحمودة، وحض على الاستكثار منه فيها، ومنها قوله أيضا:" فهذا أمر النكرة، وهذا أمر المعرفة، فأجرِه كما أجروه، وضعْ كل شيء موضعه"[2]، ومنها قوله:" إنما تسألهم على ما وضع عليه المتكلم كلامه"[3]، ومنها قولُه:" وما جاء على حرفين مما وُضع مواضع الفعل أكثر مما جاء من الفعل المتصرف"[4]، وقوله:" الكلام الذي لم يوضع للغناء"[5]، وقد أتت لفظة وضع ومشتقاتها جميعا بمعنى جُعِل، أي أُتِّخذ الشعر أو الكلام وجُعل لغرض محدَّد، ومما يدلنا عليه أيضا قوله:" لا يضعه على التأنيث، بل يجعله اسماً مذكرًا"[6]، فالظاهر أنهما أتيا بمعنى واحد.

فتلك هي الدلالة الحقيقية لمصطلَح الوضع، وهي" إثبات شيء لشيء أو نفي هذا الإثبات"[7] كما أشار إلى ذلك الحاج صالح.

وعدَّد سيبويه ونوَّع من استعمال الألفاظ الدالة على الوضع كالفعل جاء في ثلاثة مواضع من كتابه كلِّه، وقولُه:" وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعلٍ فنحو: ثُمَّ، وسَوْف، وواو

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 206.
[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 114.
[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 407.
[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 227.
[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 206.
[6]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 206.
[7]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 21.

القسم، ولام الإضافة، ونحوها"[1]، أحدُ تلك الثلاثة مواضع، فهو بمعنى: ما وُضِع لمعنى وليس باسم ولا فعل، أو كالفعل اختص، وقد أتى بمعنى الفعل:" وضع"، وأفاد مفاده في أمثلة قول سيبويه:" فاختُصّ هذا المعنى باسم عَلَم يلزم هذا المعنى، ليُحذف الكلام وليخرج من الاسم الذي قد يكون نكرة ويكون لغير شيء بعينه؛ لأنك إذا قلت: هذا الرجل فقد يكون أن تعني كماله، ويكون أن تقول: هذا الرجل وأن تريد كل ذَكَر تكلم ومشى على رجلين فهو رجل، فإذا أراد أن يُخلِص ذلك المعنى ويختصه ليُعرَف من يُعنى بعينه وأمْرِه قال: زيد ونحوه"[2]، وقولِه:" فإنما اختُصّ النداء بهذا الاسم أن الاسم معرفة، كما اختُص الأسد بأبي الحارث إذ كان معرفة، ولو كان شيء من هذا نكرة لم يكن مجرورا؛ لأنها لا تُجرّ في النكرة، ومن هذا النحو أسماء اختُص بها الاسم المنادى، لا يجوز منها شيء في غير النداء، نحو: يا نومانُ، ويا هناء، ويا فلّ"[3]، فكلمة اختص في هذه المواضع تفيد مفاد كلمة وَضَعَ.

فهذه بعض الأمثلة لما جاء في نظرية الوضع في الكتاب، وهي جميعها تبين" أن سيبويه قد استعمل بالفعل كما مر بنا فعل وضع في الميدان اللغوي، وجعل معناه الأصلي الذي هو تخصيص الشيء للشيء ينطبق على تخصيص اللفظ لمعنى، ومع ذلك فلم يأت في كلامه بالمصدر أي الوضع كما يُستعمَل في زمان ابن السراج ولو بمعنى آخر، إلا أنه استخدم الفعل وضع في نفس السياق الذي استعملت مشتقات وضع عند من جاء بعده"[4].

وتأكيدا وتصديقا لسيبويه في موقفه من مصطلح الوضع ومن الأفعال الدالة عليه في الكتاب اجتهد الحاج صالح في التأصيل لهذه الأسماء عند عدد من علماء العربية، في مسعًى لإثبات التقارب مع التوجيه اللغوي الحديث لنظرية الوضع والاستعمال وبيان سبق سيبويه وعلماء العربية لها، فوجد بأن مصطلح الوضع ومفهومه ومرادفاته قديم عند علماء

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 12.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 94.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 198.

[4]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 22.

العربية كالأخفش تلميذ سيبويه وكالفراء، وغيرهما من علماء العربية، الذين أتوا من بعد سيبويه، وقد عرض لكثير منهم جهودهم في نظرية الوضع والاستعمال العربية.

المطلب الثالث: الاطراد والشذوذ في الكتاب في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

خصَّ ابن جنيٍّ ظاهرتي الاطراد والشذوذ في العربية بباب مستقل في كتابه الخصائص استطرد من خلاله في بيانهما، ففصل فيه مسائلهما بواسع بيان، وكان مما تناوله في هذا الباب حديثه عن الأصل الأول لهاتين الكلمتين:" الاطراد والشذوذ"، وقد قدم لهما تعريفا رائعا نقله عنه أكثر الذين جاءوا من بعده كالإمامين السيوطي ومرتضى الزبيدي وغيرهما، يقول ابن جني رحمه الله:" أصل مواضع" ط ر د" في كلامهم التتابع والاستمرار، من ذلك طردتَ الطريدة إذ اتَّبعتها واستمرَّت بين يديك، ومنه مطاردةُ الفرسان بعضُهم بعضًا، ألا ترى أن هناك كرًّا وفرًّا فكلٌّ يطْرد صاحبَه، ومنه المطَّرد: رمح قصير يُطرد به الوحش واطَّرد الجدول إذا تتابع ماؤه بالريح، أنشدني بعض أصحابنا لأعرابي:

مالك لا تذكر أو تزور ... بيضاء بين حاجبيها نور

تمشي كما يطرد الغدير

ومنه بيت الأنصاري:

أتعرف رسمًا كاطراد المذاهب"[1].

ولا بدَّ أنَّ ابن جني أخذ هذه النظرة اللغوية لهذا الباب من تقسيم أبي علي الفارسي، وإن كان خالفه في التقسيم، إذ زاد عليه بابا رابعا هو باب:" المطرد في القياس والاستعمال معا"، وإنما جعل أبو علي أقسام المطرد ثلاثة فحسب، فهي على رأيه كما في قوله:" هذا باب معرفة ما كان شاذًا من كلامهم: اعلم أنَّ الشاذ في العربية على ثلاثة أضرب:

[1]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 98.

شاذ عن الاستعمال مطرد في القياس.

ومطرد في الاستعمال شاذ عن القياس.

وشاذ عنهما.

وهذا قول أبي بكر (رحمه الله)"[1].

ويرى عبد الرحمان الحاج صالح أن كتاب سيبويه من أوفى الكتب في العربية تفصيلا وبيانا لظاهرتي الاطراد والشذوذ في اللغة العربية واستعمالاتها، وقد أفرد الحاج صالح نفسه هذه القضية بفصل كبير مستقل في كتابه:" منطق العرب في علوم اللسان" سماه:" الاطراد في مقابل الشذوذ ومشكلة القياس على الأكثر"، فكان فيه على خطى سيبويه الذي سمى هو بدوره -وقد تقدم هؤلاء جميعا وهو أسبق من ابن جني نفسه- أحدَ فصول كتابه بـ:" باب الاطراد في الفارسية"[2]، وكما أثبتنا مرارا فقد بنى سيبويه كتابه الذي جمع فيه للعرب درسهم اللغوي على المطرد الكثير الشائع، وبين بأن الأولى والأصوب في باب اختيار اللهجات العربية وفي اختيار الألفاظ هو اعتماد الشائع المطَّرد عند العرب، مع إمكان استخدام الشاذ عند الحاجة، ومن أدلة تفضيله المطرد على الشاذِّ في كتابه قولُه:" كما أن التنوين والنون عربي مطَّرد"[3]، فهذا دليل تبجيل وتقديم للعربي الفصيح الكثير، ومنها أيضا قولُه:" وقد قال بعض العرب:

ما بالُ عيني كالشعب العَيَّنِ

فإنما يحمل هذا على الاطراد حيث تركوها مفتوحة فيما ذكرت لك؛ ووجدت بناء في المعتل لم يكن في غيره، ولا تحمله على الشاذ الذي لا يطرد، فقد وجدت سبيلاً إلى أن يكون

[1]- ينظر: أبو علي النحوي الفارسي، المسائل العسكريات في النحو العربي، تح: علي جابر المنصوري، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، د ط، عمان، 2002م، 76.

[2]- سيبويه، الكتاب، ج: 4، 305.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج: 1، 197.

فيعلًا"[1]، على أن معيار الاطراد والشذوذ في هذا الباب لا يعني الصحة والسلامة اللغوية، ولا يحتكم إلى شروطها، بل إنه يستند إلى الكثرة والقلة، فالقول بأن" استحوذ قليل شاذ" لا يعني الشذوذ عن اللغة مطلقا، وإنما يعني الشذوذ عن ذلك الباب اللغوي الذي أتى فيه، أو عن تلك القاعدة اللغوية، كما أن الكثرة لا تعني السلامة والصواب التامين مطلقا، مثلما أن القلة لا تعني بدورها ذلك دائما.

وقد ثبت لنا في إحصائنا للألفاظ الدالة على الاطراد في الكتاب – وهي كثيرة– وتبين عظيم حرص سيبويه على العمل بالمطرد في كتابه؛ لأن العربية الفصحى لا يمكن أن تتنزَّل و تتَّضع لتبنى على الشاذ إلا في القليل النادر، والشاذ على قلته في الكتاب وفي جميع ما سواه من الكتب يؤخذ بقدَره المعلوم النادر، وهذا في الحقيقة من أبرز عوامل القوة والعلمية لا في كتاب سيبويه وحده وإنما في العربية بأسرها، ومع ذلك فقد بيَّن العلامة اللساني الجزائري بأن هاتين الظاهرتين تستندان إلى السماع اللغوي الفصيح عن العرب من جهة أولى، وإلى القياس اللغوي العلمي من جهة ثانية، فهو يميز في هذا الباب بين أمرين اثنين، بين ما كان صحيحا سماعا (أي في أصل استعماله وفي أصل نقله الأول عن العرب) وبين ما كان صحيحا قياسا (أي بعد نظر النحاة فيه وبعد تطبيقاتهم على ظواهره حملا على لغة العرب)[2].

ولمَّا كان أغلب استدلال عبد الرحمان الحاج صالح واعتماده في كتبه وأعماله العلمية على الكتاب وعلى آثار الخليل جمعا وتأصيلا وتفصيلا لمسائل اللغة كان تعريفه للمطرد والشاذِّ حملا على كلام سيبويه بصريح لفظه، وقد كان بوسعه أن يقدم لهما تعريفا آخر حملا على تعريفات غيره ممن سبقه وبالأخص من تبعه، لكن وكما نوَّهنا طويلا وكثيرا فإن عنايته بعلم سيبويه هي عنايةُ تبجيل وتفضيل من أجل أن كتاب سيبويه هو الدعامة الأساسية

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 366.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 190.

الأولى التي شدَّت بنيان العربية وأعلت صرحها، وهو أقرب الكتب إلى الخليل بن أحمد زمنا وأصحها نسبة (أقوال الخليل بلفظه على لسان سيبويه، وهي في الكتاب كثيةر) كما أحصاه العلماء وهو أيضا صريح لفظ سيبويه.

فأمَّا المطرد فبعد أن صدَّر العلامة كلامه بتعريفي سيبويه وأستاذه الخليل له قدم له بدوره تعريفا آخر ثالثًا بلفظه وبمعنى كلام هذين الإمامين فقال:" يتضح من السياق أن الاطراد هو الاتفاقُ، وعمومُ هذا الاتفاق"[1].

وأمَّا الشاذ، وهو أيضا بلفظ العلامة وبمعنى إمام النحاة:" وأما الشاذ فسننطلق أيضا من نص آخر لسيبويه... وعلى هذا فالشاذ في هذا النص هو ما خرج عن مجموع نظائرِهِ وهو بابُه بصيغة أخرى انفرد بها أو مُجرًى آخر، ففي ذلك مفارَقة ومخالَفة لنظائره؛ أي لأفراد بابه الذي ينتمي إليه"[2].

ثم لما فرغ الأستاذ العلامة من تعريفه المطردَ والشاذَّ شرع في بيان كل منهما، فمثل لهما بأمثلة من كلام العرب على ما جاء عند ابن جني، وعلى ما جاء عند سيبويه لو تأملنا في ذلك مليًّا. وأكد الحاج صالح أن كلام العرب وظواهره اللغوية عند النحاة وعند اللغويين ينقسم عند علماء العربية وفقا لمعيار القلة والكثرة إلى أربعة أقسام، هذا بيانها إجمالا واختصارا:

القسم الأول: مطرد في القياس مطرد في الاستعمال

القسم الثاني: مطرد في القياس شاذ في الاستعمال

القسم الثالث: مطرد في الاستعمال شاذ في القياس

القسم الرابع: شاذ في القياس شاذ في الاستعمال

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 191.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 192

ويقارب الأستاذ في أغلب السياقات اللغوية العلمية التي يتناولها بالبحث بين رؤية سيبويه وبين رؤية شيخه الخليل، وذلك في الحقيقة سبيله العلمي الجيد في وضع نظريته الخليلية التي بناها، وقد عُلم أنه أقامها بما استلهمه من كتب الخليل وآثاره كالعين ثم بكتاب سيبويه، مكثرا من الاستدلال بكتاب سيبويه في بناء نظريته الخليلية، وذلك أيضا ظاهر في هذا السياق الذي خصه للحديث عن ظاهرتي الاطراد والشذوذ عندما يقول:" فلننظر ماذا كان يقصد منهما الخليل وسيبويه انطلاقا من مقابلة نقيمها بين النصوص كعادتنا؛ إذ قد لا نجد لها تحديدا في هذه النصوص"[1]، ثم استدل العلامة بكلام سيبويه حين قال:" فهذه الأشياء تجيء مختلفة ولا تطرد"[2]، ولم يكن للخليل في هذا الباب من قول صريح ظاهر على لسان سيبويه في كتابه، ولكن لا بد أن الحاج صالح قد فهمه من اطلاعه ومن استقراءاته الواسعة للخليل في بنائه لنظريته الخليلية وفي تأصيله وأبحاثه الكثيرة حوله.

فأمَّا القسم الأول وهو" المطرد في القياس المطرد في الاستعمال"، فقد عده ابن جني أساس الاستدلال والاستعمال الأولَ في العربية ووصفه كما في لفظه بأنَّه" الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة"[3]، – وهو أيضا؛ أي هذا الباب في نظر عبد الرحمان الحاج صالح على ما وقف عليه عند سيبويه– الأَولى والأهم، وعليه أكثر العمل لانتفاء الحرج العلمي من العمل به، وذلك لموافقته كلام العرب وقوانين علماء العربية وأقيستهم اللغوية العلمية.

ويمثل الأستاذ لهذا الباب بأمثلة نحوية نقلها عن ابن جني يَتضح فيها مفهوم الاطراد في القياس والسماع جليا، ويؤكد بأنها نموذج لأحكام سمعت عن العرب فصيحةً ثابتة في كل مكان وزمان عند من يوثق بعربيته، كثيرة مطردة عند العرب، ثم وقع عليها إجماع العلماء من حيث الصحة اللغوية، ومن حيث موافقتها للقياس، ولقواعد النحاة واللغويين[4]، وقد

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 191.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 42.

[3]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 98.

[4]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 193.

ثبت عند أهل اللغة أن" السماع الصحيح والقياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الشاذة"[1]، وأما سيبويه فقد توصل بتدقيقه وتمحيصه الجيد زيادة على ذلك إلى أن في المطرد في القياس والاستعمال نوعا ثانيا دائم الاطراد في الزمان والمكان فكان نوعا مميزا جدا سماه المتلئب[2]، وقد تحدث عنه الحاج صالح لكنه اعتبره غير كاف على هذا القدر من الاطراد، ليميز بين نوعين من الاطراد:

الأول: اطراد الاستعمال، وهو الذي يتميز بكثرته هو بعينه في الزمان والمكان وهو شيوعه وانتشاره.

والثاني: اطراد الباب عامة، ويتميز بكثرته في داخل الباب.

وأمَّا القسم الثاني وهو المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال، فإنه النوع الذي يتصف بالاستقامة النحوية، وبالمقابل لذلك فإن استعماله عند أهل العربية قليل، فذلك معنى الاطراد في القياس والشذوذ في الاستعمال، (فهو أقل منزلة من الأول واعتماده في العربية يأتي بعده لاختلال الركن الثاني منه وهو المتعلق بالاستعمال؛ لأن اللغة تؤخذ بحسب العادات النطقية عند العرب، فلا تخرج عن معهودهم) وقد مثل له علماء العربية سيبويه وابن جني وغيرهما ببعض الألفاظ المطردة المتناظرة في بنائها، وكان بناؤها للزمان الماضي، ومثَّلوا للفاعل أيضا، وعن سيبويه نقلها عبد الرحمان الحاج صالح[3]، ومن هذه الأمثلة:" ماضي يدع، فإن قياسه وبابه أن يقال: ودع يدع، إذ لا يكون فعل مستقبل إلا له ماض، ولكنهم لم يستعملوا ودع، استُغنِي عنه "بترك"، فصار قول القائل الذي قال: ودعه شاذًّا، وهذه أشياء تحفظ"[4].

---

[1]– محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3، 1417هـ-1997م، ج: 1، 33.

[2]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 3، 554+ ج: 4، 417.

[3]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 193.

[4]– أبو بكر بن السراج، مرجع سابق، ج: 1، 57.

وبسط عبد الرحمان الحاج صالح القول في هذا القسم اللغوي تبيينا له فقال بأن:" معناه أن العنصر الموصوف بذلك يقتضيه بابه (مجموع نظائره) إلا أن هذا الذي يقتضيه هو نفسه غير موجود في المسموع إلا قليلا جدا ولا يكاد يُعرف أو لم ينقله أحد"[1].

وأمَّا القسم الثالث فمعناه كسابقيه متضح من مسماه، وهو نازل عن مستوييهما في اللغة وفي اعتبار العلماء والمتخاطبين لنقيصة تتعلق بشروط قياس العلماء عليه، ولا ريب أن اختلال شرط في الاطراد علة قادحة عند أهل اللغة والمتخاطبين بها، ويمثل العلماء لهذا النوع بالمثالين المشتهرين في كتاب ربنا، وهما: استحوذ، وأكنْ: فالثانية أتت في أصلها في القرءان الكريم عطفًا على الفعل المضارع المنصوب المبتدئ بلام التوكيد، المنتهي بنون التوكيد الثقيلة، ولكنها جاءت مخالفة لها في بنائها، لكن حكمها النحوي مثلُ حكم ما عُطفت عليه وهو" لَأَصَّدَّقَنَّ"، وإنما نزل هذا القسم عن سابقيه لعلة تعلقت بقياسه عند النحويين وهي أنه قليل عندهم غير موافق لإجماعهم وقانونهم النحوي، " والشاذ على ثلاثة أضرب: منه ما شذ عن بابه وقياسه ولم يشذ في استعمال العرب له نحو: استحوذ" فإن بابه وقياسه أن يُعلَّ فيقال: استحاذ مثل استقام واستعاذ، وجميع ما كان على هذا المثال، ولكنه جاء على الأصل واستعملته العرب كذلك"[2].

وأما الحاج صالح فاقتضب الحديث عن هذا الباب في هذه المناسبة، لأنه كما صرَّح إنما أرجأه إلى سانحة أخرى اقتضت التوسع في بيان هذا القسم اللغوي الهام[3].

وأمَّا القسم الرابع – وهو الصورة أو المنوال الأخير لهذه القضية اللغوية البارزة في كتاب سيبويه وفي كتب عموم المتقدمين والمتأخرين– فهو أردأ الأربعة أنواع مجتمعة لاختلال شرطيه معا[4]، ما يجعل العمل به ضعيفا، سواء أعند النحويين واللغويين، أو عند

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 194.

[2]– أبو بكر بن السراج، مرجع سابق، ج: 1، 57.

[3]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 194.

[4]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 194.

المتخاطبين، وقد كان من عادة علماء اللغة عامة التنبيه والتشديد على ضرورة اتباع الأفصح الأصح من جميع الوجوه، وكانوا أكثر الناس نفورا من حوشي الكلام والاستعمال وغريبهما، ومن مخالفة سنن العرب ووجوه كلامهم.

المطلب الرابع: صيحات تيسير نحو سيبويه

انبهر الباحثون العرب المحدثون، وبالأخص منهم أولئك الذين اصطبغت ثقافتهم اللغوية بذلك الخليط الواسع من النظريات الغربية التي قوض بعضها بعضا، انبهروا بالنحو العربي القديم وأكبروه أن يكون نحوا عربيا صرفا لا اعتلال فيه ولا خطل ولا تقليد أيضا، فتنكبوا طريقه وحملوا على عاتقهم أمر نقده وتخطئته، وقد عودتهم سذاجة نظريات الغرب ورطانتها اليسرَ الزائد عن الحد في استعمال اللغة، ورأوا فيها ذلك العمل العلمي المتعالي عن النحو العربي.

ومن قصور نظر دعاة تجديد النحو أو من سمَّوا أنفسهم دعاة تيسير النحو ودعاة إصلاحه ادعاؤهم أنَّ النحو العربي قد شابته منذ نشأته شوائبُ قادحةٌ فيه وجب إصلاحها، وارتفعت شكاوى المتعلمين من صعوبته، وتعالت صيحاتهم، وكان من حججهم في ذلك" أن النحويين القدماء حين قعَّدوا قواعدهم أقحموا اللهجات العربيةَ بصفتها وخصائصها المتباينة، ونظروا إليها على أنها صور مختلفة من اللغة المشترَكة، مما خلق مشاكل معقدة أيسرها اختلاف الأقوال في المسألة الواحدة"[1]، فاتخذ الثائرون على التراث العربي ودعاةُ التغريب من دعاوى تيسير النحو العربي ذريعة لنسف اللغة العربية والقضاء عليها، لينشئوا لنا جيلا جاهلا بالعربية الفصحى وبمخزونها الثقافي، مختلفا عن أسلافه، متنكرا لهم ولمآثرهم ولماضيهم التليد، وكان هذا التغيير والتجديد شاملًا لكل ما يَمُتُّ إلى الدين بصلة، وقد تناسَوا الحكم الشرعيّ للخروج عن مثل هذه الثوابت، وتناسَوا عواقبه وأضراره الثقافية والعلمية الوخيمة.

[1]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، 146.

ولو تأملنا بروية وتمعن في أسباب تقهقر الدراسات اللسانية العربية منذ البدايات الأولى للعصر الحديث حتى عصرنا الحاضر لوجدناها أسبابًا ظاهرة متعلقة في المقام الأول بأهل العربية فنحن" لا نتهم اللغة في ذاتها وإنما الذي نستضعفه هو كيفية استعمال المرَبِّين لها، فالكتب المدرسية هي مِن وضعِ هؤلاء، أما كون اللغة العربية لا يوجد فيها ما يكفي للتعبير عن المسميات المبتذَلة في البيوت وفي الشوارع والمعامل فهذا راجع لكسل أهلها وضعف اعتناء منهم لضعفهم في أنفسهم؛ لأن اللغة سماع وقياس خلاق يترآأى في كيفية استعمالها ضعف أصحابها"[1].

ولقد كان من حنق دعاة تيسير العربية وتيسير نحو سيبويه أن أخرج أحدهم أوراقا في هذا الخصوص يدعوا فيها إلى الثورة على كتاب سيبويه وإلى تخطئة وتيسير كتابه، ادَّعى فيها تعقيد سيبويه للنحو، وزعم فيها بأن اللغة العربية الفصيحة التي دونها سيبويه في كتابه ودعا إلى تعليمها وتطبيقها ليست ملزِمة في وجود العديد من اللهجات العربية الفصيحة التي بيَّنها سيبويه في كتابه وصرح بجوازها، وعدل عنها لنزولها عن مرتبة اللغة الأدبية والرسمية المشتركة.

وقد بين عبد الرحمان الحاج صالح بأن المسؤولية في صعوبة فهم الكتاب لا تقع على سيبويه؛ بل على المتعلمين أنفسهم؛ لأن سيبويه قد بذل عند تأليفه الكتاب ما في وسعه لإفهام العرب لغتهم، ولم يكن عليه أن يتنزل في إفهامهم، وكيف يتنزل وهو يسعى إلى الحفاظ على العربية من النزول والفساد والزوال، ثم إن مهمة التبسيط للناس لا تقع على عاتقه هو بل على العلماء الذين يأتون من بعده بحسب بُعد الناس عن العربية وجهلهم بها؛ إذ إن كتاب سيبويه كتاب علمي راق جدا فهو في مستوى العلماء والشُّراح في المقام الأول قبل أن يكون في مستوى العامة من الناس والمبتدئين منهم، ثم إن زمان سيبويه والعقود أو القرون القليلة التي تلت عصره وعلى الرغم مما حكي فيها من لحن العامة والأعاجم هي

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، 160.

أكثرُ فصاحة من زماننا، وأقرب إلى العربية الأولى القدمى بتعبير سيبويه، فلم يكن ذلك الزمن يستلزم هذا القدر العظيم من التيسير، حتى أضحى العلماء يعقدون الكتب الطوال لشرح شروح المتقدمين، ولو تنزل سيبويه إرضاء لدعاة الإخلال بالفصحى وإحلال العامية من أهل هذا العصر لاتهمه العامة من أهل زمانه باللحن فكيف بعلمائهم، وفي بيان بعض من ذلك يقول الحاج صالح:" وقد عاب بعضُهم النحو العربيَّ واتُّهم سيبويه خاصَّةً بأنَّه عقَّد النَّحو، فهذا عند كل عاقل بمنزلة من يعيب الباحث في الرياضيات من المستوى العالي بأنَّه لا يَفهمه من يريد أن يتعلَّم الحساب تعلُّمًا عمليًّا، وشتَّان ما بينهما: فذاك علم وبحث علميٌّ، وهذا اكتساب ومهارة"[1].

فبزعم ذلك المؤلف والكثيرين غيرِه فإن العربية التي اختارها سيبويه لا تصلح لأن تكون النموذج العربي المثالي والوحيد؛ لأنها لا تمثل الغالبية المطلقة من الاستعمال العربي، ولا يخفى ما في هذه الحجة من وهن من عدة وجوه، أحدها أن تلك اللهجات التي عدل عنها سيبويه مع بيانه لجواز استعمالها ولمنزلتها من العربية القدمى الفصيحة التي انتصر إليها ووجه الناس إليها هي أقل فصاحة مما اختاره، ففي العربية فصيح وأفصح كما بينه الحاج صالح، وهذا الاصطفاء للفصحى إنما هو أسلوب لساني علمي، بل لقد كان العرب على عهد الجاهلية يفاضلون بين اللهجات ويجتهدون في انتقاء أفصحها وأجودها، في أشعارهم وفي استعمالهم اليومي، وانتقاءُ الأفصح نهج القرءان الكريم، ولو كان هذا المؤلف وازنا في اختياره لما تنزَّل في الاختيار على عكس نهج سيبويه العلمي المثالي، فلا يصلح هذا القياس بين تلك اللهجات الفصيحة، وبين ما سواها من لهجات ذلك العصر ولا من اللهجات العامية الحديثة البعيدة عن اللغة العربية القديمة الفصيحة.

وإنما دعانا لهذا الباب أو المطلب من عملنا البحثي هذه المزاعم والأحكام الجائرة ضد سيبويه ونحوه، يقول ذلك المؤلف:" وكما نثبت في هذا الكتاب، فإن اللهجات كانت موجودة

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 13.

دائما، واللغة الفصحى التي نَرمُز إليها أحيانًا بلُغة سيبويه لم تكن في يومٍ من الأيام لُغةَ تفاهُمٍ وتعامُلٍ يومي، اللهم إلَّا في فترةٍ وَجيزة جدّا في رُقْعةٍ جُغرافية محدودة بالجزيرة العربية، فما الذي استَجدَّ حتى ننزَعِج اليوم من اقتِحام اللَّهجات لِحَيِّز التَّعامُل اللُّغوي بين العرب؟"[1].

الذي استجد أنه لم يبق لأهل العربية غير أسباب قليلة تجمعهم ثم تبتلى هذه اللغة المشرَّفة بمن يزرع أسباب الفرقة بين أهلها بالدعوة إلى استبدال العربية الفصحى المشتركة بمئات من اللهجات النازلة عن مستوى الرداءة الذي وصف به سيبويه وعلماء العربية صادقين محقين كثيرا من لهجات العربية في عصرهم – فكيف بعصرنا هذا– إلى مستوى الفساد والاتضاع، ثم يقول في فخر واعتزاز بتنكبه ونكوصه عن سبيل اللغة العربية العالمية العلمية الخالدة، موقعا عن عامة أهلها وخاصتهم:" وأنا على ثقةٍ من أنَّني أترجِم المشاعر الدَّفينة في نفوس ملايين العرب، وأنا أهتف قائلا: يسقط سيبويه"[2] !!...

وقد واجه نحو سيبويه واللغة الأولى الفصحى وقواعدُ النحويين الموضوعةُ لها هجمات شرسةً من دعاة العامية والعلمانية الذين تفنَّنوا في الكيد لها، ووسموها باللغة الرجعية لا المرجعية؛ لأنها بحسَبهم تمسُّكٌ بالقديم على حساب الجديد، ولا تساير الحضارة اللسانية الجديدة الوافدة، ورأى كثير من أولئك أنَّه على العربيّ الناضج أن يترك الفصحى إرث أجداده العلمي الثقافي ويتجه إلى لغته العامية ولهجته المحلية صناعةِ الأعاجم وإحنِ الدهر من استدمار ونظم تعليم وسياسات فاسدة جائرة وغيرها، ففيها بزعم أولئك ما يغنيه عن اللغة العربية المعقَّدة[3]، ويُعد المستشرق الألماني " ولهلم سبيتا" أول من دعا إلى إحلال العامية محل العربية الفصحى في لغة التدريس ومناهجه، وفي الخطاب الرسمي للدولة، وفي لغة الخطاب اليومي[4]، ثم تولى كبْر تلك الجناية الفادحة الوخيمة مجموعة من الباحثين العرب

[1]– شريف شوباشي، لتحيا العربية يسقط سيبويه، مؤسسة هنداوي سي آي سي، ط 3، المملكة المتحدة، 2019م، 14.

[2]– شريف شوباشي، المرجع نفسه، 21.

[3]– ينظر: غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المكتبة العصرية الذهبية، ط 1، جدة، 1427هـ– 2006م ج: 2، 741.

[4]– ينظر: محمد بن عبد الله الإمام، مرجع سابق، 41.

الذين أُشربوا من أفكار الغربيين لديهم في جامعاتهم فأُوكلت إليهم مَهمّة الثّورة على العربيّة، تحت غطاء النّهضة بها.

ومن أبرز دعاة التيسر وإحلال العامية إبراهيم مصطفى وقد عُدّ كتابه" إحياء النّحو" أوّل كتاب عربيّ لنقد النحو العربي القديم، ثم تبعه في ذلك دارسون آخرون كعبد الرحمان محمد أيوب، فهم في ذلك بين دعاة إلى تيسير النحو من خلال الحذف فيه والزيادة والإنقاص والتعديل والتبديل، إلى دعاة إلى إحلال العامية محل الفصحى في سائر ألوان الخطاب وأغراضه، وكان الحال أن هؤلاء لم يزيدوا النحو ولا العربية غير تعقيد وتغريب، ولم يزيدوا أهلها إلا خمولا وتوانيا في تعلمها، وزهدا فيها، وإنا اليوم لنجني ثمار تلك الدعوات المحمومة ونحن في بعد عن الفصحى وفي تغريب عنها كبير كالذي نعق به الثائرون على الدرس العربي الأول، فكأننا بمخططات التغريب بالأمس حقائق اليوم، أفما كان كافيَنا أن أهملنا النحو والعربية، واستبدلنا الفصحى في خطاباتنا العفوية العادية بالعامية حتى في خطاباتنا الرسمية، فعمَّ اللحن المعاهد والجامعات، وطمّ في الصِّحافة ووسائل الإعلام، وفي الخطابات الرسمية وخطابات السياسة؟، فهل لمثل هذا يُطبّل التغريبيون ويدعون؟

وعلى الرغم من مخاطر أفكار ومخططات إصلاح نحو سيبويه الداهمة، فإن كل تلك الجهود باءت بالفشل الذريع حينما وجدت حصونا دفاعية متينة من رجال صادقين مخلصين، وقفوا أنفسهم لخدمة العربية فذادوا عنها هجمات أعدائها وتصدَّوا لمحاولاتهم البائسة اليائسة، يقول إبراهيم السامرائي:" إن عامَّة من تصدى للتيسير والإصلاح لم يضرب بسهم صائب في هذا الباب، وكأنهم انصرفوا إلى الدرس التاريخي فبدا لهم أن يكتبوا في الخلاف الذي حصل بين النحاة في العصور المتقدمة، مما حدا بمن جاء بعدهم إلى أن يُصنفوا أولئك النحاة إلى بصريين وكوفيين، ولا نُعدَم أن نجد بينهم من نُعتوا بالبغداديين"[1].

[1]– إبراهيم السامرائي، مرجع سابق، 5.

ولقد أشار عبد السلام هارون في حديثه عن الإملاء في العربية أيضا إلى نحوٍ من هذا الفشل في ما زُعم بأنه إصلاح المحْدثين للعربية فأكد بأن بناء العربية متين وأن نظامها وقواعدها وقوانينها محكمة فقال:" ومن الواضح أنَّ فنَّ الإملاء قد تدرَّج فِي مدارجَ شتَّى، واعتراه إصلاح وتنقيح حتى انتهى إلى الوضع الأخير الذي يتمثل فيما صار إلينا، وهو وضع حاول بعض الناس وبعض الهيئات أن ينال منه فلم يضره شيئا، وذلك؛ لأنه قد بُني على أسس وثيقة مطردة؛ ولأن عوامل التنقيح والإصلاح من قبل لم تدع فيه مجالا لما يزعمونه من تيسير، أو يخالونه من تسهيل، وقديما قالوا: يريد أن يعربه فيعجمه"[1].

لكن إلى أي حد سوف يظل هذا الحض على التمرد على كتاب سيبويه وعلى التراث العربي الأصيل جملة بدعوى التجديد مستمرا؟ فهل سوف نظلُّ في تنزُّل دائم في مستوى اللغة حتى ندرك كل الأجيال فنرضيهم جميعا؟ فإن العربية لا يمكن أن تتحمل أكثر من هذه الجنايات والويلات والنكبات، وإنه لو فُتح باب التجديد في النحو لما كفى الناس منهج واحد ولا رضوا بلهجة واحدة، فلَأفسد اللغة العربية هؤلاء المنتسبون إلى الإصلاح كما أفسد أهل اللاتينية لاتينيتهم، فظهرت فيها لهجات غير فصيحة على لغتهم المرجعية حتى قضي على اللاتينية الأولى، وقد كان – كما تقدم قبل– طريقَ فساد لسانهمُ الأولَ وتفرقهم عنه تحريفُ كتابهم السماوي التوراة، فأي خير جناه أهل اللاتينية وأي فضل حازوه!، ولما أيقنوا خطأهم عضوا أناملهم ندما وحسرة، وأكبروا على المسلمين أن تكون لغتهم لسان العلم الأوحد في عصور الظلام الغربية، واللسانَ القديم الباقي، فوجدوا لها من بني جلدتها أناسا مسخت عقولهم، وفسدت ضمائرهم وماتت قلوبهم، فأوكلوهم لهدم العربية باسم البناء ولقتلها باسم الإحياء ولإفسادها باسم الإصلاح ولتعقيدها باسم التيسير.

إنَّ مخططَ الإماتةِ والطمسِ الذي نعقَ به أنصار التغريب العربُ ودَعَوا إلى تطبيقه على العربيَّةِ وزيَّنوه للناس بثوب الإحياء المزعوم هو جزء من مخطط الثوابت والهوية، – مخطط

[1]– عبد السلام محمد هارون، قواعد الإملاء، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، القاهرة، 1993م، 5.

التذويب والمسخ- الذي جاء به الاستدماريون النصارى بالأمس عندما جثموا على قلوب المسلمين ومقدَّراتهم وصورةٌ من صوره، إلا أنه اتخذ هذه المرة شكلا آخر أكثر تهذيبا، عندما أُلْبِس ثوبا علميا حضاريا، ودُثِّر بدثارٍ عربيٍّ، إذ كان الذين تَولَّوا كبْره منتسبين إلى العربية، فمَوَّهوا حتى الصادقين المخلصين الغيورين على لغتهم ودينهم، لولا أن معادنهم عربية خالصة لم تُشرب بفلسفة الغرب اللغوية الواهية، وأفكاره ومخططاته الدنيئة، فانبروا مدافعين عن لغتهم وقواعدها.

إنَّ التسليم للعرب في معهودها هو تسليمٌ لله تعالى في حكمه وفي تقديره وتدبيره، ورضا وإذعانٌ لمشيئته؛ لأن النموذج اللغوي الذي لم يرضه التغريبيون للعربية هو النموذج الأعلى الذي هيأه الله تعالى للعربية وارتضاه لها، وسخر له جهابذة العرب من قريش ومن فصحاء العرب ليطوروه وينتقوه من أطايب الكلم والألسن، ثم أنزل سبحانه من أجله القرآن معجزا ليصقله ويزيده تهذيبا، فكانت الغلبة لكلام الله سبحانه مع كل تلك الفصاحة والبلاغة التي أوتيها العرب قبل تنزُّل القرآن[1]، ثم إن العربية موكول أمرها إلى ربها الذي رعاها وصانها وأجرى لها أسباب الحفظ كلَّها وتعهد لها بذلك، وحمَّلها خير كتبه وبعث بها أفضل خلقه، فما كان ذلك عبثا؛ فإن القرآن لا يُحفظ حق الحفظ إلا بها، ولا يفهم حق الفهم إلا بها ولا يؤَثِّر في النفوس حق التأثير إلا بها، وإن نفس اللغة العربية من الدين كما ألح على ذلك العدول من علماء هذه الأمة[2]، وإن غالب قواعد اللغة وقوانينها، وأساليبها وتراكيبها وألفاظها مستمد من القرآن الكريم نفسِه.

وقد جرَّأت دعاوى التيسير بالفعل بعض الدارسين كطه حسين ومحمد أركون وغيرهما على الوقوع في سخافات كبيرة، والانزلاق في مناحي نقدية خطيرة؛ إذ توهموا جهلا الخطأ في القرآن الكريم، تعالى الله ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ آ 43 س الإسراء.

[1]- عبد الرحمان بن معاضة الشهري، الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم – أهميته، وأثره، ومناهج المفسرين في الاستشهاد به، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط 1، الرياض – المملكة العربية السعودية، 1431هـ، 188.

[2]- ينظر: أنيس فريحة، مرجع سابق، 124.

ولو كان التوفيق في تغيير معهود العرب في كلامهم أمرًا مقدورًا عليه وممكنا لكنا التمسناه في التمرد على أوزان القصيدة العربية، ولو كان الخير في ما دعا إليه هؤلاء ميسورا ومرجوًّا لهَرَع إليه الغربيون، لقد اخترعوا لغة الإسبرانتو ليجعلوا منها لغة عالمية ففشلوا فشلا ذريعا في تطبيقها وإحلالها محل اللغات الوطنية والعالمية الأخرى، ثم اخترعوا بدلا منها لغة الإيدو ولغات كثيرة غيرها، وأرادوا أن يجعلوا منها لغة عالمية لتوحد الإنسانية فلم يفلحوا؛ لأنها قامت على أسس غير متينة.

إن أهم ما ينبغي لدعاة التغريب التزامه هو تعلم العربية في بيئة عربية في مدرسة علماء العربية الأولين الخليل وسيبويه وابن العلاء وغيرهم، ليحملوا أفكارهم، وليفهموا فهومهم، وليصطبغوا بصبغتهم، فإن تغريب الإنسان وبُعده عن موطنه وعن مقومات مجتمعه وثوابته هو السبب الأكبر وراء تمرده وعقوقه لمعلميه الأُوَل[1]، بل إنه قد يُذهِب المروءة ويفسد الدين إذا لم يكن هذا التغريب لأجل الجهاد أو لطلب علم عزيز أو للطب أو للدعوة إلا أن تحتمي النفس وتحتظر بحظار شديد من الإيمان والعزيمة والصدق في الطلب.

وقد لا نعجب حين نجد واحدا من أهم علماء اللغة في الأندلس وهو الإمام القرطبي يثور على صناع النحو العربي السابقين مخَطِّئا لهم في كثير من القضايا النحوية، وقد كانت ثورته ثورة علمية مؤسَّسة، إلا أن ذلك قد لا يعدُّ بالمقابل للنحو العربي مسوغا للنقد والقدح فيه والثورة عليه عامة؛ لأن نقد القرطبي مع عظيم علمه لا يقوى أمام مدارس لغوية كبيرة تظافرت في بنائها أجيال عديدة، فيجوز أن يكون القرطبي هو الذي قد خالف وجه الصواب في اعتراضاته وآرائه، ولئن جازت آراؤه وأصاب فيها فإنها لا تُحمل على اليقينية المطلقة فهي مجرد آراء لغوية تحتمل الخطأ كما تحتمل الصواب، وكثير منها هو مسائل خلافية معلومة لدى أصحابها من العلماء من المدرستين، إلا أن لكل واحد منهم مذهبا ورأيا كما أن للقرطبي مذهب ورأي، ولقد كان أكثر ما أنكره ابن مضاء عليهم ممثَّلا في نظرية العامل،

[1]– محمد بن عبد الله الإمام، مرجع سابق، 134.

وقد أسهب في تفصيل ذلك في كتابه الرد على النحاة، وهو الكتاب الوحيد الذي بقي من آثاره، ففيه يهاجم نظرية العامل، ويرى أنها السبب في تعقيد النحو والاستكثار من التقديرات والمباحث التي لا طائل وراءها[1].

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن ثورة ابن مضاء على سيبويه ونحاة المشرق لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كانت بدافع ديني بحت هو الثورة على المذهب الفقهي السائد في بلدته، ونصرةً للمذهب الظاهري الذي كان المذهبَ الرسمي لدولة الموحِّدين في المغرب الإسلامي، فالدَّافع إذن دينيٌّ أصولي سياسي[2].

ويكفيه عذرًا أنه لم يكن من دعاة العامية أو تقليد الغربيين على شاكلة كثير من المستشرقين ومن الباحثين اللسانيين العرب المحدثين.

[1]– ينظر: شوقي ضيف، مرجع سابق، 305.

[2]– ينظر: علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامَّة، ط 1، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986م، 16.

المبحث الثالث: مستويات التحليل اللغوي في الكتاب في ضوء اللسانيات الحديث

المطلب الأول: المستوى الصوتي في الكتاب

المطلب الثاني: المستوى الصرفي في الكتاب

المطلب الثالث: المستوى النحوي في الكتاب

المطلب الرابع: المستوى الدلالي في الكتاب

المطلب الأول: المستوى الصوتي في الكتاب

تولي الأبحاث والدِّراسات اللسانية على غرار الشرعية (كعلم التجويد) وكذا العلميةِ اليوم علم الأصوات العناية البالغة لما له من أهمية قصوى في حقل الدراسات اللسانية؛ ذلك بأن الأصوات في اللغة هي المادة الخام لها، أو هي المكون الأساس والأولي لها، فما اللغة إلا تآلف أصوات فيما بينها، مع علائق نحوية وأخرى دلالية تجمعها بعضها إلى بعض، و" لا تكاد تعدو اللغةُ في مظهرها عن أن تكون أصواتًا إنسانية، يحللها عالم الأصوات اللغوية ويصفها، كما يشرح لنا كيفية صدورها، وأعضاء النطق التي تساهم في إخراجها"[1].

ولا ريب أن للعرب على غرار الهنود والصينيين وغيرهم قدمُ السبق في علم الأصوات وهو ما أكَّده عبد الرحمان الحاج صالح عندما قال:" هذا وللعرب أيضا – وخاصة الخليل– نظرة أصيلة فيما يخص الأصوات والنظام الصوتي، فلهم من المفاهيم في ذلك ما لا يوجد إطلاقا في الصوتيات التقليدية الغربية، وذلك مثل مفهومي الحركة والسكون ومفهوم حرف المد، فهذه أشياء لم تُعرف قيمتُها إلا عندما أُختُبِرت المفاهيم اليونانية التقليدية كالمقطع syllabe وغيرها"[2]، ويعدُّ سيبويه من أعظم علماء العربية خدمة لعلم الأصوات من بعد الخليل بما جمعه في كتابه الذي يعتبر باكورةَ الأبحاث في هذا المجال، وأهمَّ ما بلغه الفكر العربي في ذلك الزمن، وقدْر" سيبويه عند العرب مثل قدْر بانيني عند الهنود، ومثل دي سوسير حديثًا في الدرس اللساني، وفي الكتاب مباحثُ كثيرةٌ في الكلام والمعنى، والإعراب والبناء، والأصوات والصرف والنَّحو"[3]، فقد اجتمعت فيه اللغة في مستوياتها الأربع، ومن الباحثين من يُؤثِر التفصيل بين المستويين الدلالي والمعجمي ليجعلها خمسة مستويات لغوية.

[1]– إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 139.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، 226.

[3]– خليفة بوجادي، اللسانيات النظرية دروس وتطبيقات، بيت الحكمة، ط 1، العلمة– الجزائر، 2012م، 110.

وقدم سيبويه وصفا دقيقا ووافيا للحروف العربية، وبصورة لا تقل في مستواها عما وصل إليه العلم اللغوي الحديث بكل منجزاته وبجميع آلاته، إن لم يتفوق عليه[1]، ولا يقل ما توصل إليه سيبويه من نتائج حول الأصوات العربية أهمية عما توصل إليه الباحثون المحدثون في علم اللغة، وقد قاده حسه اللغوي إلى التمييز بين" علم الأصوات phonetic" و" علم وظائف الأصوات phonology"، ويعد بيانه لمخارج الأصوات العربية وصفاتها وتحديده للأصوات الأساسية للغة العربية أقوى دليل على ذلك، ثم إن دراسته للظواهر الصوتية التي تنشأ من خلال التعاملات الصوتية على وفق منهج وصفي دقيق من أهم ما يثْبت ذلك ويدعمه[2]، وبعد مضي حوالى ألف سنة جاء المحْدثون وقد استهدَوا بتلك الجهود المضنية والأعمال الكاملة، فاستطاعوا بعد تجارب طويلة ودراسات مستفيضة أن يجمعوا لنا الكثرة الغالبة من تلك الأصوات الإنسانية وأن يَصفوها وصفا دقيقا ويُسجلوا منها نماذجَ منطوقة فوق أشرطة وأسطوانات[3]، فماذا أضاف علم اللغة الحديث غير أن طور وسائل البحث الصوتي واستعمل تقنيات متطورة من أجهزة تسجيل للصوت وأجهزة تصوير وتكبير وتحكم.

وقد أفادت هذه المنجزات علم الأصوات كثيرا وزادته علمية ويقينية، بل لقد أفادت أيضا علم التجويد، وأعظم بها من فائدة، لكن جميع تلك الاختراعات لم تزد عما أتى به علماؤنا الأجلاء، سيبويهُ في حديثه في كتابه عن الأصوات واللهجات والصرف والقراءات وغير ذلك، وابن جني في سر صناعة الإعراب بالأخص، وابن سينا في تشريحه وتطبيقه على جهاز النطق عند الحيوان، وإخوان الصفا والفارابي في أبحاثهم الصوتية الدقيقة، والخليل بن أحمد الفراهيدي مفجر علوم العربية، في عروضه وفي معجمه، وغير ذلك، فكيف بعلم التجويد وهو البادرة في علم الأصوات العربية من عهد أبي الأسود الدؤلي، بل من لدن

[1]– ينظر: عبد الله أحمد جاد الكريم، سيبويه والمدرسة التوليدية التحويلية، المؤتمر الدولي السادس (سيبويه إمام العربية)، كلية دار العلوم، القاهرة، 8– 9 مارس 2010م، 12.

[2]– ينظر: نوزاد حسن، مرجع سابق، 304.

[3]– ينظر: إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 139.

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ربّ العزّة، حتى مجيء ابن برّي المغربي وابن الجزري الدمشقي والإمام الشاطبي، ثم من تلاهم، فأين مكمن الجدة في علم الأصوات الحديث؟ إنما هي إن وجدت لا تعدوا أن تكون تطويرا في أساليب البحث والدراسة، وتغييرا في المصطلحات، واصطناعا للكلام واستكشافا له باستخدام الأجهزة الإلكترونية، وتفريعا وتقسيما للأبواب[1].

ولأن الصوت اللغوي يمثل الأساس الأول في بناء اللغة وتكوينها ومن ثم في دراستها، فقد أدرك سيبويه أهميته البالغة فأَولاه اهتماما كبيرا في كتابه، فتناوله فيه بواسع بيان، وإن لم يكن مؤلَّفه الكتاب مستقلا بأبحاث علم الأصوات، فقد تناول سيبويه مخارج الحروف العربية وصفاتها، وذهب إلى أكثر من ذلك فتناول الصوت اللغوي من جهة علاقته بالدلالة، والبلاغة، وأساليب الخطاب.

" ولسنا نبالغ ذكر الحقيقة عندما نؤكد أن العلماء العرب قد درسوا الأصوات العربية دراسة وصفية محضة بقطع النظر عن كونها موجودة في سياق لغوي، أي تلك الدراسة المادية الخالصة التي يطلق عليها في الدرس اللغوي الحديث بالدراسة الفوناتيكية"[2]، وقد كانت تلك الصبغة العلمية هي السمة الظاهرة اللازمة والغالبة على كتاب سيبويه، فقد غلب المنهج الوصفي على دراسته فكان قائما على الملاحظات الواقعية البعيدة عن الآراء والفروض المجردة.

ويعد موضوع الإمالة من أهم الأبواب الصوتية وكذا التجويدية على حدِّ السّواء الأكثر عناية في الكتاب، فقد بوَّب له سيبويه وفصله فيه بطول بيان، وتارة يسميها: الإمالة، وتارة الإجناح كما في قوله:" فزعم الخليل: أن إجناح الألف أخفُّ عليهم، يعني: الإمالة، ليكون العمل من وجهٍ واحد، فكرهوا ترك الخفة وعلموا أنهَّم إن كسروا الراء وصلوا إلى ذلك، وأنهَّم

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، 226.

[2]– حسام البهنساوي، مرجع سابق، 6.

إن رفعوا لم يصلوا"[1]، وبين شروط الإمالة ومواطنها فقال في حديثه عن شيء من ذلك:" فلا تكون في المضموم إمالةٌ إذا ارتفعت الباء كما لا يكون في الواو الساكنة إمالةٌ، وإنما كان في الفتح لشبه الياء بالألف، ولا تكون إمالةٌ في لم يعلمها ولم يخفها؛ لأنه ليست ههنا ياءٌ ولا كسرة تميل الألف"[2]، ومن تنبيهاته في باب الإمالة قوله رحمه الله:" واعلم أن الألف إذا دخلتها الإمالة دخل الإمالة ما قبلها، وإذا كانت بعد الهاء فأملتها أملت ما قبل الهاء؛ لأنك كأنك لم تذكر الهاء، فكما تتبعها ما قبلها منصوبة، كذلك تتبعها ما قبلها ممالة"[3]، وأبان عن طائفة من المواطن التي لا تنبغي فيها الإمالة كبعض الحروف، وبين أن علة ذلك هي خوف الاشتباه بألفات الأسماء فقال:" ومما لا يميلون ألفه: حتى، وأما، وإلا، فرَّقوا بينها وبين ألفات الأسماء نحوِ حبلى، وعطْشى"[4].

وفي كل ما ذكره سيبويه في باب الأصوات يقرب أن يكون موقفه مطابقا لعلم اللغة الحديث، لولا بعض الاختلافات اليسيرة، كالاختلاف في عدد مخارج الحروف فلا يقلل ذلك من شأنه ولا من علمه، فلقد" تأثر بكتاب سيبويه كل من جاء بعده من النحاة واللغويين، لا في آرائه النحوية فحسب، بل في آرائه الصوتية كذلك، فأخذوا يرددون كلامه في الأصوات دون أن يزيدوا عليه ما يستحق الذكر، فهذا ابن جني في القرن الرابع الهجري يؤلف كتابا مستقلا في علم الأصوات هو:" سر صناعة الإعراب" لا يكاد يخرج فيه عن كلام سيبويه"[5]، وفي العديد من أبواب الصوتيات وافق سيبويه علماءَ الأصوات وعلماءَ التجويد مِن قبله، ووافقه على ذلك من أتى من بعده، ولا ريب أن مما أعان على توفيقه وعلى صدق مواقفه وصحتها استمدادُه من القرآن الكريم، ثم من فصيحِ لهجات العرب وقد خَبُر بها كخير ما

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 278.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 124.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 126.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 135.

[5]– رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، 16.

تكون الخبرة والدراية والعلم، " إلَّا أنَّ كلام العرب واسعٌ، وأنَّ العربيَّة لا يحيط بها إلا نبيّ"[1]، كما أشار إلى ذلك ابن درستويه، وكذا الشافعي أيضا فيما قيل، وسببٌ آخر لا بد من التأكيد عليه بخصوص اتفاق العلماء وإجماعهم في أمثلة هذه العلوم هو أنها علوم محدودة ثابتة لا مجال للإبداع والاجتهاد وكثرة المخالفات فيها.

ولسيبويه تأملات صوتية صائبة ودقيقة جدا تنم عن طول مراس وواسع استقراء وتتبع لكلام العرب وعاداتهم النطقية، تتجلى في مثل قوله:" وأما الحروف المهموسة فكلها تقف عندها مع نفخ؛ لأنهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر؛ وبعض العرب أشد نفخا كأنهم الذين يرومون الحركة فلا بد من النفخ؛ لأن النفس تسمعه كالنفخ"[2]، فكذلك اللسانيات الحديثة فإنها تسميها أحرفا مهموسة أيضا.

وقد عقد سيبويه أيضا بابا في الوقف على آخر الكلم في (السكون والإشمام والروم والتضعيف) وتلك هي صور الوقف الأربع في العربية، وقد بين سيبويه وأهل علمي اللغة والتجويد أن السكون هو أصل الحركة، وأنَّه أولى بالوقف، فشرحه سيبويه شرحا وافيا ودقيقا، وافق فيه علم الأصوات الحديث، قال رحمه الله:" فأما المرفوع والمضموم فإنه يوقف عنده على أربعة أوجه: بالإشمام وبغير الإشمام كما تقف عند المجزوم والساكن، وبأن تروم التحريك، وبالتضعيف"[3].

ولم يمنع تأثر سيبويه الشديد بالفراهيدي لكونه أبرز أساتذته من مخالفته في كثير من المسائل اللغوية، كخلافه له في عدد مخارج الحروف، فقد ذهب الخليل إلى أن عددها سبعة عشر مخرجا، في حين عدَّها سيبويه ستة عشر مخرجا فقط، فقال:" ولحروف العربية ستة عشر مخرجا"[4].

---

[1]– محمد بن محمد مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، 17، 242.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 157.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 168.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 434.

ويتفق موقفه من عدد حروف العربية مع ما توصلت إليه أبحاث علم اللسانيات الحديث[1]، يقول سيبويه:" فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والطاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو"[2].

وقد أبدى عبد الرحمان الحاج صالح إعجابه الشديد من هذا الإحصاء وعده إحصاء علميا دقيقا؛ لأنه في نظره يستند إلى أسس واقعية وعلمية متينة، فقال بعد أن تحدث عن جهود سيبويه في هذا المستوى اللغوي الهام في البحوث العربية القديمة والحاضرة:" فأن يستطيع النحاة أن يتعرفوا على مخارج الحروف كمصدر بمعنى كيفية إحداثه أصولها وفروعها، وما كان شائعا منها وما كان أقل من ذلك بكثير فهو من أعجب ما حققوه، وهو دليل آخر على كثرة التنقيب وكثرة التحريات التي قاموا بها لتحقيق ذلك"[3].

كما أشار سيبويه إلى أن الأصوات في العربية تتعدى هذه الحروف وتزيد عنها لتصل إلى خمسة وثلاثين حرفا" هنَّ فروعٌ، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار"[4]، فهي وإن كانت أحرفا زائدة عن الأحرف الأصول في العربية والتي تتولد منها سائر الأحرف أو الأصوات فإنها على قدر كبير من الأهمية في العربية؛ إذ بها تؤدى الأغراض التعبيرية وتفهم المقصدية من الكلام، كما أن لها إيحاءات مختلفة، تفهم من خلال الأصوات التعبيرية الزائدة عن الأحرف الأصول وتتم فائدتها، فليس المعنى كامنا في السياق وحده، ولا في الأحرف الأصول وحدها بل في العناصر اللغوية الأخرى، والصوت على قدر كبير من الأهمية؛ إذ به تتحدد الدلالة.

---

[1]– ينظر: كمال محمد بشر، مرجع سابق، 81.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 431.

[3]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 214.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 432.

ومن براعة سيبويه في علم الأصوات أنه أحصى حروف العربية جميعا المستحسن منها وغيره فأوصلها إلى" اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء، وهذه الحروف التي تمّمتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، لا تتبين إلا بالمشافهة"[1].

وكان حضور المنهج الوصفي في التحليل اللغوي للجانب الصوتي ولمستويات اللغة جميعا نابعا من إيمان سيبويه العميق بأن الوصف هو المنهج الأنسب لدراسة القضايا اللغوية، وقد صرح في كثير من المواطن بأنه يعتمد الوصف في دراسة ظواهر اللغة وفي ذلك يقول سيبويه:" وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بِزنة المتحرك"[2]، وقد استأثر الجزء الرابع من الكتاب بموضوع الإدغام كونه من أجلِّ القضايا والمباحث اللغوية، ولا يكاد أي كتاب نحوي جامع أن يُغفله، وقد نهج سيبويه في دراسته الصوتية منهجًا علميًّا بحتا قائما على الأسلوب التجريبي من ملاحظة، وهي المتمثلة في السماع المرهف للأصوات والتعرف على كيفيات نطقها وأدائها والتحسس لمخارج الحروف والأصوات، ومن فرضية، وهي ما قد يفترضه سيبويه من نتائج بحثية آنية؛ أي ما يحمنه قبل التوصل إلى نتائج البحث، ثم ما يتوصل إليه أخيرا من نتائج اختبارات صوتية لغوية، على شاكلة الدراسات العلمية واللسانية الحديثة.

" ويظهر أن سيبويه كان على وعي تام بأن دراسة الأصوات مقدِّمة لا بدَّ منها لدراسة اللغة"[3]، لذلك كان كتابه حافلا بالظواهر اللغوية أو اللهجية والصوتية المختلفة، كالإدغام

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 432.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 436.

[3]– تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 50.

وضده، ويسمى:" الفكُّ أو التخليص"، أو كالإمالة بنوعيها وضدُّها الفتح، وكأشكال نطق الهمزة من تحقيق وإبدال وإسقاط ونقل وتسهيل، وما إليها من المسائل الصوتية إنْ في القراءات أو في الصرف أو اللهجات أو العروض أو المعجم أو في غيرها من القضايا اللغوية التي امتلأ بها كتابه، فكانت في اللسانيات العربية إنجازا متقدما وسبقا هائلا لا يمكن جحوده وإنكاره.

المطلب الثاني: المستوى الصرفي في الكتاب

يهتم المستوى الصرفي بدراسة بنية الكلمة وأحوالها، فيعنى بوصف أصناف الكلمات من أفعال وأسماء وضمائر، كما يدرس التغيير الذي يطرأ عليها من إبدال وإعلال وحذف وزيادة وغير ذلك، والعلمُ الذي يدرس هذا الجانب هو علم الصرف، وهو على صلة وثيقة بعلمي الأصوات والنحو، وهو على قدْر من الأهمية عظيم بين هذه المستويات، وقد أجاد علماء العرب عمومًا بدءا بأبي الأسود الدؤلي والخليل وغيرهما في دراسته، وبلغوا فيه غاية ما توسموه من العلمية، ما يمَكِّننا من" القول بأن دراسات العلماء العرب في هذا المستوى الصرفي تماثل ما يطلَق عليه في الدراسات اللغوية الحديثة بالتوزيعية والمنهج القالبي"[1].

ويُعدُّ كتاب سيبويه أوفى كتاب في علم الصرف لما تناوله من المباحث الصرفية، ولجمالية تحليله، وواسع طرحه وشموله، فهو بحق دِعامة علم الصرف وعماده، وقد فصّل فيه سيبويهُ مسائل الصرف وقواعده تفصيلا شافياً ووافيا، غير أنه لم يُعرِّف الصرف، أو التصريف تعريفا علميا واضحا، ولا رتب أبوابه على نحو من ترتيب وتبويب علم اللغة الحديث، ولعل ذلك راجع إلى عدم اكتمال الصنعة العلمية للغة على عهده، ما يعني عدم استقرار التعريفات العلمية في زمنه، إلا أن المصطلحات الصرفيةَ التي شاعت في كتاب سيبويه والتي لا نزال نستخدمها تؤكد مبلغ عنايته بهذا العلم[2]، وإن لم يكن علم الصرف في عهده علما قائما

[1]– حسام البهنساوي، مرجع سابق، 7.

[2]– ينظر: نوزاد حسن أحمد، مرجع سابق، 162.

بذاته، وإنما كانت الدراسة الصرفية ضمن الدراسة النحوية؛ لأن علوم اللغة العربية لما تنفصل على عهده، ولما تتحدد فصولها ومباحثها بعد، حتى فترات متأخرة عن هذا العهد أين نشطت حياة التأليف، وراجت الحركة العلمية وازدهت، واتجهت الدراسات اللغوية وكذا العلمية نحو التخصص[1]، هنالك انفصلت علوم العربية بعضُها عن بعض وانفصل علم الصرف بدوره عن علم العربية، فاتخذ منهجا واضحا في الدراسة، وحُدِّدت له مباحثه وأبوابه، ووضعت له مصطلحاته وتعريفاته المميزة له.

وعن تاريخ نشأة علم الصرف وخبر أول من كتب فيه فقد عُدَّ كتاب سيبويه بمثابة البداية الفعلية للتأليف في علم الصرف، لما تميز به من غزارة في المادة العلمية اللغوية ووسع في الشرح، وتذكر بعض الروايات أن" أقدم من صنع ذلك ابنُ جنِّي ومعاذٌ الهَرَّاء، وأفضل من كتب بعد هؤلاء من المتأخرين هو " ابن هشام"، فقد أخرج للناس كتبا هي خير ما رأيناه بعد كتب "سيبويه" وأضرابه"[2]، وأنهما أول من وُفّق إلى بحث مواضيعه وأبوابه، وذهب بعض المتأخرين كأحمد الحملاوي إلّا أن معاذًا الهراء أو عليًّا بن أبي طالب هما أول من تكلم فيه ووضع أسسه ومبادئه[3]، ويظهر من كلام هذا الأخير أنه يرجِّح الأول من هذين العالمين رضي الله عنهما، وإلى نحو هذا أشار السيوطي أيضا، عند حديثه عن قصة تعلم الكسائي النحو، فقد ذكر أنه:" تعلم النحو على كبر، وسببه أنه جاء إلى قوم وقد أعيا، فقال: قد عَيِيت، فقالوا له: تُجالسنا وأنت تلحن قال: وكيف لحنت؟ قالوا: إن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل: عَيِيت، وإن أردت من التعب فقل: أَعْيَيت؛ فأنِف من هذه الكلمة، وقام من فوره،

[1]– ينظر: خديجة عبد الرزاق الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، مكتبة النهضة، د ط، بغداد، 1385هـ– 1965م، 27.

[2]– مصطفى الغلاييني، رجال المعلقات العشر – كتاب أدب وتاريخ ولغة–، المكتبة العصرية، د ط، صيدا – بيروت، 1418هـ– 1998م، 25.

[3]– ينظر: أحمد بن محمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، تح: نصر الله عبد الرحمان نصر الله، مكتبة الرشد، د ط، الرياض، د ت، 11.

وسأل عمَّن يُعَلِّم النحو، فأُرشِد إلى معاذٍ الهَرَّاء، فلزمه حتى أَنفد ما عنده، ثم خرج إلى البصرة فلقي الخليل، وجلس في حلقته"[1].

غير أن التأسيس العلمي الفعلي لعلم الصرف بدأ مع كتاب سيبويه على رأي كثير من الباحثين اللغويين العرب المحدَثين، فلسيبويه قدم السبق في هذا العلم لكون كتابه أول أثر علمي حقيقي بعد الخليل، وله أيضا الكثير من النظرات والجهود العلمية الرصينة في علم الأصوات، والتي وافقت إلى حد بعيد ما جاءت به اللسانيات الحديثة، لذلك يرى عبد الرحمان الحاج صالح بأن التقسيم الرياضي الذي قدمه سيبويه في باب الأبنية العربية قد مثل أول تقسيم علمي للأبنية، ثم تلته كثير من الزيادات لتربو على ألف ومئتي مثال، يقول العلامة اللساني:" أما أبنية المفردات أو أوزانها فقد أحصاها لأول مرة سيبويه، وبلغ عددها فيما أحصاه 308 بناء"[2].

وعرَضَ سيبويهُ لموضوعٍ مهمٍّ في التَّصريف فطرقه من خلال باب مستقل جعل عنوانَه قولَه:" بابُ ما بَنت العرب من الأسماء والصفات والأفعال غير المعتلة والمعتلة، وما قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به ولم يجيء في كلامهم إلا نظيره من غير بابه، وهو الذي يسميه النحويون التصريفَ والفعلَ، أما ما كان على ثلاثة أحرف من غير الأفعال فإنه يكون فعلاً، ويكون في الأسماء والصفات"[3]، فعلى هذا التعريف الذي ساقه سيبويه لعلم التصريف، وقد أشار فيه إلى أن أهل زمانه يسمونه بذات العبارة " التصريفَ"، ولم يُبد في كلامه اعتراضًا على اصطلاحهم، يتضح جليا أنَّ تعريف سيبويه- مع كفايته وتمام فائدته علميا ودلاليا- يختلف عن تعريفات المحدثين من حيث ألفاظه وعبارته، وإنما جاء على عادة القدامى في اصطلاحاتهم تعريفا طويلاً دالّاً على ذات العلم اللغوي المسمى اليوم في علم اللغة الحديث علمَ الصَّرف، وعلى هذا النحو في الاصطلاح سارَ منهجُ القدامى في

[1]- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج: 2، 163.

[2]- عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 224.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج: 4، 242.

اصطلاحهم على كثير من القضايا والأبواب اللغوية، وعلى كثير من المفاهيم والمصطلحات العلمية.

أما المتأخرون الذين أتوا من بعد سيبويه فيسمونه صراحة علم الصرف حينا، وعلم التصريف حينا آخر، أو يحذفون كلمة" علم" ويُبقون على ما يفيد معناه وهو أن علم الصرف علم لغوي خاص أو مستقل بذاته له أدواته ومنهجه، شأنُه في ذلك شأن باقي العلوم اللغوية الأخرى.

فهذا الجرجاني يسميه: التصريف، وذلك في قوله:" اعلم أنَّ التصريفَ " تَفْعيلٌ"، من الصّرْف، وهو أن تصرفَ الكلمة المفردة، فتتولّد منها ألفاظ مختلفة، ومعان متفاوتة"[1]، وجعل ابن جني العلم بالتصريف ضرورة من ضرورات العلم باللغة، وجعله إلى ذلك مقَدَّماً على العلم بالنحو لمن أراد التضلع في علم اللغة، فالترتيب في العلوم حتم وواجب، " فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف؛ لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة"[2].

وإذا كان موضوع علم النحو متمثلا في البحث في العلاقات بين الكلمات وبين ما ينشأ عن انتظامها من وظائف نحوية؛ أي أن موضوعه هو الجملة أو التركيب جميعا، فإن علم الصرف على العكس من ذلك يُعنى بذات الكلمة من حيث أصلُها وبناؤها، ومن حيث صياغتُها، وقد أبان ابن جني عن ذلك إذ قال:" فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحوُ إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة"[3]، وابنُ جنيٍّ من المتأخرين عن سيبويه، وقد

[1]– عبد القاهر الجرجاني، المفتاح في الصرف، تح: علي توفيق الحَمَد، مؤسسة الرسالة، د ط، بيروت، 1407هـ– 1987م، 26.

[2]– عثمان بن جني، المنصف لابن جني، شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، دار إحياء التراث القديم، ط 1، د ب، 1373هـ– 1954م، 4.

[3]– عثمان بن جني، المرجع نفسه، 4.

انضبط علم الصرف عنده بمصطلح خاص على غير نهج سيبويه ومن تقدمه، لذلك نرى أن البادرة الأولى لابن جني هي كتاب سيبويه، وأنه مصدر علمه وإبداعه.

وتناول الكتاب عامة أبواب الصرف فاحتواها جميعا بما لم يدع فيه بابا إلا وقد فصَّل مسائله وشرح غوامضه، والمتأخرون عن زمن سيبويه كابن جني والزمخشري وغيرهما ممن أتى بعدهما لم يستدركوا على كتاب سيبويه، ولم يخرجوا عن فكره اللغوي في علم الصرف، بل إنهم وجدوا فيه ضالتهم، ووجدوه غاية ما يصْبون إليه في هذا العلم، فلم يخالفوه بشيء في أصوله الكبرى التي بنى عليها كتابه.

ويعرض عبد الرحمان الحاج صالح مقارنة بين ما حقَّقه سيبويه في علم الصرف (القسمة التركيبية) وبين ما توصل إليه علماء اللسانيات في العصر الحديث (الجداء الديكارتي) – ومن خلال مجمل نتائج نظرياتهم التي قامت على قراءة منجزات الأولين قبل أن تُعمل عنصر الملاحظة والتجريب– ليقف على تقارب ما بينهما من رؤى ونتائج ثم ليكشف أخيرا:" أن سيبويه عرف كيف يجري هذه القسمة التركيبية كما نجريها في زماننا هذا، وربما ابتدعها أو أخذها من شيخه الخليل، ومهما كان فإن المنهج الرياضي المطبق على الجذور والذي طبقه على الأبنية هو من جوهر واحد"[1].

وهذه بعض من مسائل الصرف التي فصَّلها سيبويه في كتابه، وقد تناثرت في ثنايا الكتاب بما يوحِي للقارئ ويمَكِّنه من فهم سرِّ عدم فصلهم بين الأبواب والموضوعات العلمية في شتى العلوم في مؤلَّفاتهم، ومن إدراك مغزى ذلك التكامل اللغوي أو التكامل المعرفي في علم اللغة عندهم؛ لأنَّ اللغة كلٌّ متكامل، ولا تتم الفائدة فيها من دون الإحاطة بمستوياتها بل وبعلومها جميعاً، ولعلَّ ذلك التكامل هو السّر في تقدم العلماء الأولين في اللغة وفي كونهم موسوعيين ومنفتحين ومتبحرين في كل العلوم، وبالمقابل فإنَّ الذي قعد بنا عن النهضة

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 226.

العلمية في اللسانيات الحديثة، وكان السببَ في تأخر بحوثنا اللغوية هو الفصل بين العلوم بحجة التخصص والتيسير.

ومِن جهود سيبويه في كتابه في هذا الشأن تَمكُّنُه من إحصاء عدد أحرف الكلمة في العربية، حيث رأى بأن أقل الكلمات العربية حروفا هي الكلمات الثلاثية، وأنها الأكثر والأشيع في اللغة العربية، وتوصل في منجزه البحثي الجليل إلى أن" الكلام على ثلاثة أحرف، وأربعة أحرف، وخمسة لا زيادة فيها ولا نقصان، والخمسة أقل الثلاثة في الكلام"[1].

كما حلَّل البنية اللغوية للكلمة العربية، تحليلا صوتيا وصرفيا دقيقا، فرأى بأن العربية لغة طيعة مرنة في التصريف، وهو ما تعترف به الدراسات الغربية الحديثة للغة العربية التي ترى أيضا بأن اللغات اللاتينية لغة محدودة التصريف لقلة كلماتها، بينما توجد" على العكس من ذلك لغات سامية كاللغة العربية تملك نظاما حقيقيا من التغيير الذي يضاف إلى أول الكلمة"[2].

فميزة التصريف داخل الكلمة الواحدة ميزة جيدة جعلت الغربيين يعجبون باللغة العربية أيما إعجاب، ويعلنون صراحة تفوقها في هذه الخاصية كما في العديد من الخصائص الأخرى غيرها، ورأى سيبويه أيضا بأنَّ الحركات الثلاث في العربية هي أبعاض من الألف والياء والواو، وأنها لا تعدو أن تكون رموزا وصورا مصغرة عنها فقال:" وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه، فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو، فكل واحدة شيء ممَّا ذكرت لك"[3]، وفطن أيضا بفضل حِسِّه اللغوي المرهف والعميق في العربية إلى أن الكلماتِ العربيةَ لا تكاد تخلو من أصوات المد الثلاث، (الألف والياء والواو) أو من بعضها فقال:"

[1]– سيبويه الكتاب، ج: 3، 307.

[2]– جوزيف فندريس: Joseph Vendryes، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، د ب، 1950م، 116.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 242.

فأما الأحرف الثلاث فإنهن يكثرن في كل موضع، ولا يخلو منهن حرف أو من بعضهن، إلا أن الواو لا تلحق أولا، ولا الياء أولا فيما ذكرت لك، ثم ليس شيء من الزوائد يعدل كثرتهن في الكلام، هن لكل مد، ومنهن كلُّ حركة، وهن في كل جميع"[1].

ودرس سيبويه الزيادة في الكلمات العربية دراسة لغوية مستفيضة فأولى جانب الصرف في ذلك عناية خاصة، وتوصل إلى أن الزيادة في الألفاظ العربية سبيل لتوسعة أساليب العربية وتنويعها وإثرائها بالمعاني، وهو ما توصل إليه النحويون العرب إذ أكدوا بأنَّ كلَّ زيادة في اللفظ تنْبىء عن زيادةٍ في المعنى[2]، وصدَّر بابا صرفيا كاملا تحدث فيه عن الزوائد بعنوان مستقل إذ سماه:" باب علم حروف الزوائد، وهي عشرة أحرف"[3]، ثم أخذ في بيان أحرف الزيادة التي جعلها عشرة أحرف هي الهمزة في نحو أذهب واضرب، والألف في نحو فاعل وعماد وعطشى، والهاء في نحو وا غلاماه، والياء في نحو يضرب وقنديل، والنون في مثل زعفران وفعلن ويفعلن، والتاء في الأسماء والأفعال مثل رحمة وطلحة، وتفعل للمذكر والمؤنث، والسين في مثلِ استفعل، والميم وهي تزاد في عدة صيغ منها مفعولٌ ومفعالٌ وكذا مفعل المثلثة الميم، والواو في أمثلة حوقل وعجوز، واللام، وتزاد اللام في عبدل ونحوِه[4]، فلكل حرف موضعه من الكلمة، ولكلٍّ مسوِّغه وفائدته في الكلام أيضًا.

وباب البدل هو الآخر من أهم أبواب علم الصرف فلذلك طرقه سيبويه في كتابه، فبيَّن أحرف البدل من حيث عددُها، ومن حيث الأحرف المبدلة عنها، وذكر منها في باب حروف البدل وحده أربعة أحرف هي" الهمزة، والألف، والهاء، والواو، فأما الهمزة فتُبْدل من الياء وتبدل من الواو أيضا، وأما الألف فتبْدل من الياء ومن الواو في نحو: رمى وغزا، وقال

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 318.

[2]– ينظر: سراج الدين عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت– لبنان، 1419هـ– 1998م، ج: 3، 307.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 235.

[4]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 4، 237.

وباع، وأما الهاء فتبدل من التاء في مثل طلحة؛ أي بدل طلحة التي بالتاء، وأما الياء فتبدل في نحو قيل ومسلمين وقراطيس"[1].

وتحدث سيبويه طويلا عن النسب أو الإضافة في الجزء الثاني من الكتاب، كما خص المنقوص بواسع بيان فعقد له أبواب عدة أبواب منها باب:" تثنية ما كان منقوصا"[2]، وتناول الممدود أيضا فأفرد له بابا خاصا فقال:" هذا باب تثنية الممدود"[3]، ليقف عبد الرحمان الحاج صالح أخيرا في يقين عند نتيجة رائعة وهي أنَّ" ما أحصاه سيبويه كان هو وحده كافيا إلى حد بعيد لاستنباط الثوابت وكل حدود العربية المتعلقة بهذه الأبواب، ومن جهة أخرى لاستنباط معاني الأوزان انطلاقا مما حصروه من الكلم التابعة لكل وزن، وقد استطاع اللغويون بالفعل أن يستنبطوا كل المعاني العامة التي تدل عليها أغلب الأوزان، وهذا بدأ به سيبويه وشيوخه، كما أثبتوا بالإحصاء أيضا أقصى ما تكون عليه الأسماء والأفعال: عدد الحروف أصولا وفروعا"[4].

المطلب الثالث: المستوى النحوي في الكتاب

عِلم النحو أو التراكيب هو أهم المستويات اللغوية في كتاب سيبويه وأكثر العلوم اللغوية التي امتاز بها واشتهر، وبذلك يتفق مع علم اللسانيات الحديث الذي يجعل المستوى النحوي أهم المستويات في دراسة اللغة، " وليس هذا التوافق بين سيبويه والمدرسة الهيكلية التي تَعتبر المستوى النحوي أول المستويات في دراسة اللغة توافقًا شكليًّا، وإنما هو راجع إلى تماثل تقييمهما للظواهر اللغوية، إن لم نقل إنه راجع إلى تطابق التقييمين"[5]، ولأجل هذه العناية العظيمة التي أولاها سيبويه للنحو سمي كتابه قرآنَ النحو، وعُدَّ سيبويه لذلك أيضًا إمامَ النحاة، ولعل ذلك راجع إلى أهمية علم النحو في كل زمن وفي ذلك الزمن – زمن

[1]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 4، 238.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 389.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 391.

[4]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 227.

[5]– هاينس فروتسفلد، مرجع سابق، 268.

سيبويه بالأخص- أين بدأ اللَّحن في لغة التخاطب يتفشى ويذيع، وبدأت حدود الفصاحة تضيق، وخُشِي على لغة القرآن من أن تفسد وتضيع، وأخذ اللحن في قراءة القرآن يشيع.

وقد عُدَّ كتاب سيبويه أفضل مدونة في النحو، بل لقد عُدّ أَكبر مدوَّنة لغوية على الإطلاق، فلقد أحصى فيه صاحبه كلَّ مسائل اللغة والنحوِ، وهو لا يزال المصدر الأول لمسائل النحو وقواعده، صامدا لم تؤثر فيه دعاوى المغرضين، ولم يؤثر فيه علم اللغة الحديثُ برمته وبزخمه الهائل، والذي تهاوت هو الآخر نظرياته، فدفع فيها اللاحق السابق وأقبره.

ومع كون الكتاب بادرة التأليف الحقيقيةَ في علم النحو – ومصطلح النحو قديم معروف مذ عهد أبي الأسود الدؤلي- إلا أن هذا المصطلح لم يرد في الكتاب ذكره للدلالة على ذات هذا العلم بحسب ما توصلنا إليه في قراءتنا له أولا، ثم بما صرح به عبد الرحمان الحاج صالح ثانيا[1]، ولم يَرد ذكر مصطلح الجملة كمصطلح نحوي بالمعنى الحديث على لسان صاحب الكتاب، إلا أنه قد فهم ضمنا من خلال حديثه عن الكلام، إذ إنه عنى بالكلام النحوي نفسِه الجملة بالمعنى الحديث، وهو ما عناه ديسوسير إذ قال:" الجملة هي جزء من الكلام"[2]، ومما ورد عن سيبويه في هذا الخصوص قوله:" ألا ترى أنك لو قلت: فيها عبد الله حسُن السكوت وكان كلاما مستقيما، كما حسن واستُغني في قولك: هذا عبد الله"[3].

ووضع سيبويه للكلام شروطا علمية رصينة لأجل سلامتها اللغوية من نحو قولِه:" وأمَّا كي فتثقَّل ياؤها؛ لأنه ليس في الكلام حرف آخره ياءً ما قبله مفتوح"[4]، وهو بذلك يشير إلى ما للجملة من علائق ووشائج ينبغي أن تتوفر ليستقيم الكلام، وينتظم أفضل انتظام، وقد أكد على ذلك بصفة أظهر وأجلى في باب بديع جليل القدر عظيم الفائدة سماه" الاستقامة من

[1]- ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 9.

[2]- فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، 32.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج: 2، 88.

[4]- سيبويه، الكتاب، ج: 3، 263.

الكلام والإحالة"[1]، فإن هذا الباب – وإن بدا بابا بلاغيًا– إلا أنه من جهة أخرى هو باب نحوي عظيم القدر والأهمية في علم النحو، وقد أولته الدراسات اللغوية الحاضرة عناية بالغة، عندما جعلت السلامة اللغوية مرهونة بتحقُّق السلامة النحوية والسلامة الدلالية معا، وهو ما أسمته اللسانيات المعاصرة" البنية السطحية والبنية العميقة، وعناية سيبويه بهذين المستويين تُبرز لنا المنهج العلمي الصائب في كل ما أرساه من أسس، وما سنه من مبادئ تعبر عن حقيقة منهجه الوصفي"[2].

وجعل سيبويه الكلام، وهو ما معناه الجملة اللغوية أقساما خمسة فهي عنده:" مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب"[3]، ثم شرع في بيان هذه الخمسة أقسام من الكلام فقال:" فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمْسِ وسآتيك غداً، وسآتيك أمس"[4]، وقال:" وأما المستقيم الكذب فقولك: حَمَلتُ الجبلَ، وشربت ماء البحر، ونحوَه، وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيداً يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسٍ"[5].

وقد نال هذا التقسيم إعجاب الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح فعده أعدل تقسيم للكلام، وأوَّل اجتهاد علمي حقيقي في بيان أقسام الكلام في لغات العالم قاطبة، وقد تناوله بالبيان الواسع غير واحد من تلامذته كالدكتور التواتي بن التواتي وغيره، والحق كذلك فلا يُعرف أحد غير سيبويه قد قسم الكلام بمثل هذا التقسيم غيرُ سيبويه، يقول الأستاذ الحاج صالح رحمه الله:" فقد بيَّن سيبويه – لأول مرة في تاريخ علوم اللسان هذه المرة أيضا– أن اللفظ والمعنى ينفرد كل واحد عن الآخر بالاستقامةِ، أو عدمُ الاستقامة تخصُّه هو دون الآخرِ فقد يكون اللفظ سليمًا ليس فيه خطأ من حيث هو لغة أو صيغة أو تركيب وأصوات؛ أي من

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 25.

[2]– ينظر: نوزاد حسن، مرجع سابق، 302.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 25.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 25.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 26.

حيث النحو والصرف والمعجم والأداءُ، ويكون المعنى، مع ذلك، غير سليم، غير معقول، أو غير صحيح أو العكس"[1]، ففي هذا التفصيل الذي تقدّم بشأن الاستقامة من الكلام يبين العلامة بأن السلامة في الكلام (لفظا ومعنى) قد تتفق لطرف دون الآخر، فقد يسلم اللفظ ويتضع المعنى، وقد يتضع اللفظ ويسلم المعنى، وما تفصيل الجاحظ والجرجاني وغيرهما لشروط البلاغة في الكلام وجودة النظم وحسن التأليف ببعيدة عن هذه المعاني التي قدَّمها سيبويه بشأن الاستقامة من الكلام.

وهذا باب من الأبواب النحوية في الكتاب طويل، قد لا يتبين فيه العنوان من المتن لطوله، وهو مثال على تلك العناوين الكثيرة المطولة في كتاب سيبويه:" هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده، وهي من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التي بمنزلة الفعل، لا تصَرَّف تصرُّف الأفعال كما أن عشرين لا تُصَرَّف تَصَرُّف الأسماء التي أخذت من الفعل وكانت بمنزلته، ولكن يقال: بمنزلة الأسماء التي أُخذت من الأفعال وشُبهت بها في هذا الموضع، فنَصبَت درهما؛ لأنه ليس من نعتها ولا...؛ لأنَّ زيدا... ولعل، وكأنَّ"[2].

وبالإضافة إلى طول هذه العناوين فإنها تتسم بالصعوبة والتعقيد؛ لأنَّ الكتاب موضوع للعلماء وليس موضوعا للعامة؛ أي إنه كتاب علمي دقيق وليس كتابا تعليميًا موجزا ميسرا، لذلك قد لا يتمكن القارئ من فهم عناوينه لأول مرة، فيُضطرُّ إلى إعادة قراءتها مرات عديدة، ثمَّ إلى قراءة المتن، وربما احتاج إلى قراءة شرح أو شروح له، ولعل هذا مما يفسر كثرة الشروح حول الكتاب، فإن الشُّرَّاح لم يستكثروا منها فضولا، وإنما لأهمية الكتاب ولأثره اللغوي العلمي البالغ في أنفسهم، وفي الحياة اللغوية منذ ذلك العهد، ولصعوبته، فقد كانوا يدركون أهميته ويؤمنون بضرورة العناية به حفاظا على لغة العرب وصونا لها؛ لأنَّه جَمعَ للعربية مُهمّاتِها من المسائل، وأَودَع فيه مؤلِّفه قدراً كبيراً من الظواهر اللغوية في العربية.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 113.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 131.

وممَّا امتلأ به كتاب سيبويه وزخرَ من مسائل النحو وأبوابِه: الحديث عن المفاعيل الخمسة، إذ هي من المنصوبات في العربية، وعند حديث سيبويه عن المفعول المطلق استدل على صحة كلامه ببيت شعري، حيث الشاهد فيه كلمة" بهرًا"، فساق قول الشاعر:

" تَفاقَدَ قومي إذ يَبيعون مُهجِتي ... بجارِيةٍ بَهْراً لهمْ بَعدها بَهْرَا"[1]

والأصل في الفعل أن يُظهر إلا أن يقف وراء إظهاره سبب واضح مانع من إظهاره، فإنما" اختُزل الفعلُ ها هنا؛ لأنَّهم جعلوه بدلاً من اللفظ بالفعل، كما جُعل الحَذَرُ بدلا من احذرْ، وكذلك هذا كأَنَّه بدلٌ من سَقاك اللهُ ورَعاك اللهُ"، ومِن خَيَّبَك الله، وما جاء منه لا يَظهر له فِعلٌ فهو على هذا المثال نصب، كأنك جعلت بهراً بدلاً من بَهَرَك اللهُ، فهذا تمثيلٌ ولا يُتكلَّم به"[2].

كما جعل سيبويه في كتابه بابا مستقلا سماه:" باب المسند والمسند إليه"[3]، وهي طريقة المحدثين في تسمية هذا الباب، وقد فصَّل فيه هذا الباب تفصيلا جيدا، وعدَّ هذين المكوِّنين اللغويين شرطين هامَّين وواجبَي الحضور في الجملة الاسمية، بحيث" لا يَستغني أحدهما عن الآخر، ولا يَجد المتكلّمُ منه بُداًّ"[4]، ومَثَّل له بعدة أمثلة وعدة استعمالات من نحو هذا أخوك، ونحو عبدُ اللهِ أخوك[5].

ويتضح من خلال هذه الرؤية اللغوية الدقيقة ما كان قد توصل إليه سيبويه من إدراك وفهم جيد لذلك النظام والوثاق من العلاقات التي تربط بين أجزاء الجملة، وتقترب رؤية سيبويه

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 311.
[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 312.
[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 23.
[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 23.
[5]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: 1، 23.

هذه إلى الجملة التي تعد نظاما من العلاقات اللغوية والتي تؤول إلى دلالة يترقبها المتلقي من الرؤية التي يذهب إليها الدرس اللغوي الحديث[1].

وتناولَ الفعل في العربية من حيث التعدي واللزوم، فجعل له أبوابا في كتابه هي:" باب الفاعل الذي لم يتعده فعله إلى مفعول"[2]، و" باب الفاعل الذي لم يتعده فعله إلى مفعول آخر"[3]، و" الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول"[4]، و" الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين فإن شئت اقتصرت على المفعول الأول، وإن شئت تعدى إلى الثاني كما تعدى إلى الأول"[5]، و" باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر"[6]، ولعل السبب في إعادة هذا الموضوع وغيره عدة مرات هو الحاجة إليه في جميع هذه المواطن، ولو أن يكون الداعي إليه مجرد الحديث عن جزئية معينة، وهذه المواضيع في العربية من أولى المباحث اللغوية وأهمها في الدراسة، وهي من أوائل المباحث التي ينبغي على دارس العربية العلم والعناية بها.

المطلب الرابع: المستوى الدلالي في الكتاب

يؤكد عبد الرحمان الحاج صالح بأن العناية بعلم الدلالة كانت ميزة عامة عند علماء العربية جميعا، حتى إنه جعل هذا المستوى الدراسي أهم المستويات اللغوية عندهم من خلال أبحاثه المستفيضة لمنجزاتهم وفي طليعتها كتاب سيبويه الذي يرى فيه النموذج المتفرد للصنعة اللغوية العربية مع كونه باكورة العمل اللغوي العلمي العربي، يقول الحاج صالح في حديثه عن ذلك الاهتمام العجيب وقد استفاض استفاضة حسنة في الحديث عن الاستقامة في الكلام في مفهوم سيبويه:"... يتضح من هذا أولا: أن النحاة لم يتهاونوا أبدا بالمعاني

[1]– ينظر: نوزاد حسن، مرجع سابق، 236.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 33.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 33.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 34.

[5]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 37.

[6]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 39.

مهما كانت ماهيتها، وثانيا: أنهم ميزوا قبل المحدَثين من علماء اللسان بقرون بين ما هو راجع إلى استقامة اللفظ وما يخص استقامة المعنى، فالأول إما من حيث سلامته من اللحن أو من حيث الشذوذ في القياس، والاستعمال الثاني هو من حيث السلامة من الكذب أو من الإحالة"[1].

فلا ريب ولا خلاف في أن عنصر المعنى أو الدلالة اللغوية في العربية هو أهم ما عُنِي به الباحثون العرب الأُول كالخليل وسيبويه وغيرهما، ذلك أن جميع المستويات المتقدمة تدرس لغاية واحدة هي البحث في أسباب وطرائق حصول المعنى والفائدة اللغوية، وسبل تحقيق عنصر الدلالة من الكلام، لذلك لم يكن غريبًا أبدا أن يكون جانب الدلالة موضع عناية سيبويه واهتمامه، بل هو أسمى مقصد له في سِفره اللغوي ومنتهى غايته فيه، كما أن سمة الدراسة اللغوية القديمة حتَّمت أن يكون البحث في ظواهر العربية شاملا متكاملا لا فصل ولا تفريق فيه بين مستوًى معين وآخر غيرِه، وهنا كان حظ علم الدلالة من العناية أكبر من غيره من المستويات أو العلوم اللغوية الأخرى، فغدا الجانب الدلالي هو الغاية تقريبا وباقي الجوانب وسائل للبحث اللغوي" ويلاحَظ أن سيبويه لم يُعن عناية كبيرة بصورة التراكيب الخارجية فحسبُ، بل كان همه البحث عن المعنى الداخلي الذي يمكن أن يعبَّر عنه من خلال تراكيب تتكون من مفردات مختلفة، ويجري درس الدلالة المنطقية وأثرها في تحليل التراكيب النحوية في كتاب سيبويه من خلال استقراء الكتاب، ووصف ملامح القضية وتحليل مسائلها بغية الوصول إلى نتائج كاشفة لها"[2].

وأشاد عبد الرحمان الحاج صالح نفسه بجهود سيبويه في علم الدلالة، ليؤكد بأن كتاب سيبويه هو كتاب لغوي كامل الأركان، وليس بالكتاب الضيق الأفق كالذي نسميه نحن اليوم الكتاب المتخصص، فقولنا: بأن الكتاب" قرءان النحو"، وأنَّ سيبويه من نحاة البصرة

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 114.

[2]– علي بن موسى شبير، الدلالة المنطقية وأثرها في كتاب سيبويه، مجلة العلوم الإنسانية، العدد: 31، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 2018م، المجلد: 1، 190.

المؤسسين لعلمها ومنهاجها لا يخرج سيبويه من جملة اللغويين العرب الموسوعيين ذوي النظرة الشمولية لعلوم للغة، يقول العلامة:" ثم إن ما تطرَّق إليه أحد هؤلاء النحاة المبدعين وهو سيبويه في كتابه – وهو أقدم ما وصل إلينا من كتبهم وأوفاها، وبالتالي يحتوي على ما عالجه أصحابه وأتباعه– هو أساسا الجانب النحوي الصرفي الصوتي للغة ولم يكن هذا الميدان مع ذلك مجرَّد نحو وصرف؛ لأنه لم يهمل أبدا الجانب الدلالي لأنواع الأبنية والتراكيب العربية من جهة، ومن جهة أخرى المعاني الخارجة عن دلالة اللفظ كدلالة الحال وغيرها"[1]؛ فاهتمام سيبويه وجهوده ومقاصده في كتابه لم تتوقف عند مجرد الحديث في مكونات الجملة، بل تعدت ذلك حين تناولت البنية العميقة أيضا، لتتفوق على كل النظريات الغربية الحديثة التي تلتها بقرون.

إذًا نعتقد جازمين بأن سيبويه قد أولى جانب الدلالة في كتابه اهتماما واسعًا، معتمدًا في تحليله لظواهر اللغة طريقة المزج بين مستويات التحليل اللغوي الأربعة، فلا يكاد يمر مصطلح لغوي غريب أو ذو بال وأهمية في باب نحوي أو صرفي أو صوتي إلا ويبين معناه المعجمي، على خطى شيخه الخليل، وكان يجتهد في تخريج الألفاظ العربية، وفي نسبتها إلى قبائلها المختلفة، ويجتهد في توجيه كلمات القرءان الكريم، ويبين معاني الحروف العربية، وما يستقيم من الكلام مما لا يستقيم، إلى غير ذلك من المصطلحات اللغوية العلمية في علم الدلالة، فكان عمله وتحليله تفكيرًا لغويًّا علميًّا قريبا من علم اللغة الحديث، ولم يكن مجرد إضاءات وإشراقات وخطرات فكرية، وقد وقف علماء اللسانيات في العصر الحديث هذا الموقف فكانت نتائجهم تصديقا وبرهانا على علمية التحليل اللغوي عند سيبويه، وإلى ذلك ذهب الأستاذ محمود السعران، وهو يقرِّرُ أن دراسة المعنى أو علم الدلالة Semanties باعتباره فرعا من فروع علم اللغة هي غاية الدراسات الصوتية الفنولوجية والنحوية والمعجمية – أو كما يقول– هي قمة هذه الدراسات كلِّها؛ لأن علم اللغة لا يتيسر

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 8.

أن يقوم دون تصور الوحدات اللغوية وما يرتبط بها من معنى[1]، وبذلك تتفق نظرة المحدثين مع التفكير اللغوي عند سيبويه إذ انطلق من هذه المبادئ في وضعه لدرس العربية.

واستخدم سيبويه الألفاظ والعبارات الأساسية في علم الدلالة والتي تؤكد عنايته البالغة بتطبيق آليات علم الدلالة، وأنها لم تكن دراسة عشوائية بل كانت دراسة علمية منهجية، حتى لقد وظف صيغا لغوية توحي باهتمامه الكبير بالمستوى الدلالي وتعكس مدى عنايته به، من بينها قوله:" وإذا قلت: إنَّ زيدا فيها لقائمٌ، فليس إلا الرفع؛ لأنَّ الكلام محمول على إنَّ، واللامُ تَدلُّ على ذلك، ولو جاز النصبُ ههنا لجاز: فيها زيدٌ لقائمًا في الابتداء، ومثله: إنَّ فيها زيدا لقائمٌ"[2]، وقوله:" واعلم أنَّ الفعل الذي لا يَتعدّى الفاعل يتعدى إلى اسم الحَدَثان الذي أُخذ منه؛ لأنه إنما يُذْكَر ليدلّ على الحدث، ألا ترى أنَّ قولك: قد ذَهَبَ بمنزلة قولك: قد كان منه ذَهَابٌ، وإذا قلت: ضربَ عبدُ الله لم يستَبِن أنَّ المفعول زيدٌ أو عمرو، ولا يَدلُّ على صنفٍ كما أنَّ ذهَبَ قد دلَّ على صِنف، وهو الذهاب"[3]، وكذلك سرت سائر تحليلاته للغة على التعليل والشرح.

ولم تقتصر عنايته بعنصر الدلالة على دراسة الجمل وبيان ما بينها من علاقات، بل تعدته لتشمل جانب الدلالة والمعاني بين الأحرف والكلمات أيضا، فمن تأملاته الجيدة في الكتاب دراسته وتحليله لدلالات الكلمات والأحرف العربية، إذ يقول:" وسأكتب لك من معاني ما عدَّةُ حروفه ثلاثةٌ فصاعداً نحو ما كتبت لك من معاني الحرف والحرفين، إن شاء الله، أمَّا على فاستعلاءُ الشيء؛ تقول: هذا على ظهر الجبل، وهي على رأسه"[4]، وإذ يقول:" وأما

[1]– ينظر: محمود السعران، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط 2، القاهرة، 1997م، 11.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 134.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 35 .

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 230.

إلى فمنتهى لابتداء الغاية، تقول: مِن كذا إلى كذا، وكذلك حتى، وقد بُين أمرُها في بابها، ولها في الفعل نحوٌ ليس لإِلَى"[1].

ولا يكاد يخلو كتاب في العربية من الاهتمام بالجانب الدلالي للغة، وكذلك الشأن في الكتاب، فقد أولاه سيبويه هذا المستوى اللساني أهمية بالغة، إلا أنه لم يكن يصرح في أثناء تحليله لظواهر اللغة وفي أثناء تقعيده للغة بأن موضع هذا الجملة أو الباب أو الفكرة في جانب الدلالة، وإنما يفهم اهتمامه بها ويؤخذ من مضمون حديثه، ومما يدل على عنايته بعنصر الدلالة في كتابه وقوفه على بعض المعاني البلاغية الهامة، وعنايته ببيان معاني كثير من الكلمات مع أن الغالب على كتابه هو علم التراكيب، وهذا صميم العمل العلمي المتكامل، وهو غاية ما تسعى إليه اللسانيات الحديثة اليوم وتصبوا، إلا أن نظرياتها تظل مفتقرة إلى حد بعيد إلى التكامل المعرفي وهو عائق كبير يقدح في نتائجها، وبالمقابل لذلك فقد توافرت جميع تلك النظريات واجتمعت في كتاب سيبويه.

إذن فقد كانت عناية سيبويه بالمستوى الدلالي برهانا على حسن تناوله لأبواب العربية ودليلا على تمكنه منها وعلى إلمامه بها وبعلم الدلالة، وهو ما يصدق ويؤكد قولنا: بأن كتاب سيبويه كان كتابا لغويا كاملا بالمفهوم الحاضر.

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 231،

الفصل الثالث

القيمة العلمية للفكر اللغوي عند سيبويه

في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

الفصل الثالث: القيمة العلمية للفكر اللغوي عند سيبويه في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

تمهيد:

المبحث الأول: القضايا اللسانية الراهنة الجديرة بالتأمل في الكتاب في نظر عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الأول: جهود سيبويه في خدمة اللسانيات التداولية

المطلب الثاني: تجليات لسانيات الخطاب في الكتاب من منظور عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الثالث: إسهامات سيبويه في بناء المنظومة المصطلحية اللسانية (علم المصطلح)

المطلب الرابع: إشكالية الاختيارات التعبيرية بين الفصحى وبين لهجاتها المختلفة في الكتاب وفي اللسانيات الحديثة

المبحث الثاني: تأملات سيبويه اللغوية في كتابه في ضوء أعمال عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الأول: التعليل النحوي عند سيبويه من وجهة عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الثاني: الأصل في الكلام والتوسع في الاستعمال عند سيبويه

المطلب الثالث: الأصالة والحداثة من منظور عبد الرحمان الحاج صالح ومقام كل منهما في ميزان اللسانيات والعلمية

المطلب الرابع: شهادات ومواقف اللغويين من كتاب سيبويه

المبحث الثالث: أهمية منجزات سيبويه والحاج صالح اللغوية ومصادر استمدادها المعرفي

المطلب الأول: آثار سيبويه والحاج صالح اللسانية وقيمتها العلمية

المطلب الثاني: المرجعية اللغوية عند سيبويه ومصادر استدلاله في نظر عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الثالث: الانتماء المرجعي لأعمال عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

المطلب الرابع: أثر التفكير اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح على منحى الدراسات اللغوية الحاضرة

إنَّه لا يَخلق في اعتبار النّاس أن يُتوَّج امرؤ بتاج الإمامةِ في علم من العلوم، ولا أنْ يلقَّب سلطانَها فيه حتى يكون أعظم من سبِقها أو من لحِقها إحاطة في ذلك العلم، فكذلك كان سيبويه إمام النحاة صاحب السِّفر العظيم الذي لقب بالكتاب اختصاصا بذلك، فلم ير الناس واضعا لعلم اللغة أعظم من سيبويه، وقد كان مما امتاز به وبزَّ به جميع من سبقه ومن لحقه أنه أتقن عمله أجل إتقان بأن أتم للأمة أمر دينها أي أمر لغتها رواية ودراية، جمعًا للمسائل وتفصيلا لها واستنباطًا للأحكام وتقعيدًا، وحبَّر عمله خير تحبير، فكتبه بما منَّ الله عليه به من نوره، ولو علم هو ذاته سر ما جرى من بين أنامله لخطه بماء الذهب، ثم إن اللغة من الدين كما ألح على ذلك كثيرا أمناء هذه الأمة على دينها ولغتها وحماها جميعا، وكما وصف ابن سيرين العلم، يريد به أي علم نافع، ولو كانت المناسبة التي قال فيها هذه الكلمة الطيبة مناسبة حديث عن علم شرعي بحت، فإن هاته الكلمة تعم، والأظهر أن مقصده في ذلك المقام قد عم أيضا.

ولقد عدَّ أكثر الباحثين اللسانيين المحْدَثين منجزات سيبويه اللغوية تفكيرا لغويًّا علميًّا حقيقيًّا بزنة الدراسات اللسانية الحديثة، بل إن البعض منهم ليعد كتاب سيبويه البداية الفعلية لعلم اللغة العامّ؛ لأنه مثَّل أول بحث لغوي علمي متكامل، وظلت نتائجه دقيقة صحيحة على مرِّ القرون والأزمان؛ لقيامها على أسس علمية وموضوعية سليمة امتزج فيها المنهجان الوصفي والمعياري بأسلوب علمي دقيق رصين، فأسفرت أبحاث الكتاب ودراساته عن نتائج علمية يقينية أبدية ضاهت في قوَّتها ووجاهتها نتائج الدراسات الغربية الحديثة، بل وتفوقت على الكثير منها، وفي هذا الخصوص نعتقد كمسلمين جازمين بما لا يتعارض مع شروط العلم والموضوعية بأنَّ أوَّل وأولى أسباب العلم والمعرفة هو التقدير الإلهي الحكيم، فمتى ما شاء الله سبحانه لأمة من الأمم مسلمة كانت أو كافرة أن تنهض وتتقدم في شأن من شؤون الحياة هيَّأ لها أسباب القيام والتفوق التي تخولها ذلك القيام، فكيف بأهل العربية! إن نفس هذا التنزيل الحكيم هو عنوان نهضتها في علم اللغة وفي ميادين الحياة كلِّها، فتلك هي نظرة عبد الرحمان الحاج صالح والكثير من الباحثين المنصفين لمنشأ العلم وأسبابه حين تحدثوا

عن مرجعيات المعرفة اللغوية العربية، فبينوا بأنها صور طبيعية يتكرر حدوثها في باب قيام الحضارات ونشأة العلوم، فالتشابهات والتقاطعات في باب العلوم في تاريخ الحضارات والأمم هي في أكثر أحوالها نتاج للتفكير العلمي الطبيعي السليم، وذلك دفاع منهم عن منشأ الدرس اللغوي العربي، وعن نقائه وخلوصه من التأثر والتقليد، دون أن ننكر جملة من المعطيات الخارجية الأخرى التي قد يتفق ويتحقق حدوثها كثيرا لتَشيد صرح المعرفة الإنسانية، أو لتَهدمه وتُذهب جهود أهله، كما حدث للمسلمين في تاريخهم الطويل إلى حين الحروب الصليبية ثم إلى هجمات المستشرقين بالوكالة تحت دثار العلم والحضارة، فمتى ما تهيأت تلك العوامل الطبيعية كما أشار عبد الرحمان الحاج صالح وغيره تحققت نهضة أية أمة في ذلك الشأن، فمثل ذلك نشأ مؤلَّف سيبويه كتابًا عربي المنبت عالمي التفكير.

المبحث الأول: القضايا اللسانية الراهنة الجديرة بالتأمل في الكتاب في نظر عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الأول: جهود سيبويه في خدمة اللسانيات التداولية

المطلب الثاني: تجليات لسانيات الخطاب في الكتاب من منظور عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الثالث: إسهامات سيبويه في بناء المنظومة المصطلحية اللسانية (علم المصطلح)

المطلب الرابع: إشكالية الاختيارات التعبيرية بين الفصحى وبين لهجاتها المختلفة في الكتاب وفي اللسانيات الحديثة

المطلب الأول: جهود سيبويه في خدمة اللسانيات التداولية

إن محاولة إثبات علمية الدرس العربي وشموليته وسبقه في مجال التداولية قضية هامة ينبغي التأكيد عليها، فسبق العرب في هذا العلم ظاهر، لا يخفى، وعظيم لا يضاهى، ومنبته عربي نشأ في أكناف الدراسات الإسلامية للقرءان الكريم وأصول الفقه، ولا يكاد ينكر ذلك قليل معرفة بتاريخ الدراسات اللغوية العربية.

ومهما استدرك العلم الحديث من نقائص أو أصلح من هنات فإن كل ذلك لما تغيير في الأساليب والمناهج، فإنَّ العلم واحد مهما طوره اللاحقون ولو بلغوا به عنان السماء، فما من علم إلا وله امتداد زمني وله ارتداد وعود إلى أصله الأول.

وإن كنَّا نرى بأن سير العرب والهنود والصينيين على صعيد واحد وعلى مكان سوى من البحث اللغوي كان نتاجا لجهود هذه الأمم وبذلها الخالص في هذا المجال العلمي الضروري والهام، فلا دليل فيه على تأثر العرب بهؤلاء، ولا عبرة بسبقهم للعرب من حيث نشأة دروسهما اللغوية، وإنما هي نفحات وفيوضات قد تتفق لأية أمة، وقد تنسى ويتوالى ظهورها ولو عبر قرون طويلة من الزمن[1]، أما اللسانيات الغربية أو اللاتينية فلا نرى لها في تاريخها القديم مقاما بين ذلك جميعا، لولا استقراؤها لنتائج الدراسات اللغوية عند هذه الأمم[2]، ثم إن من العلماء من يرى بأن أهل العربية قد كانوا قبل عهود الجاهلية الآخرة المتصلة بفجر الإسلام على قدم ومنزلة عالية في البحث اللغوي بمفهومه الحاضر، وليعودَنَّ للعربية زمان عزها وأمجادها وليأتين عليها زمان تعلو فيه وتظهر على جميع ما سواها، حتى لا تبقى لغيرها باقية أبدا، وذلك وعد ربنا أصدق القائلين الذي تعهد في كتابه ضمنا بحفظها فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ آ 9 س الحجر[3].

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 46.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، ج: 2، 46.

[3]– ينظر: حسام البهنساوي، مرجع سابق، 7.

إنَّ ظاهر جهود سيبويه والنحاة العرب في خدمة اللسانيات التداولية لَيدل على عظيم اهتمامهم بقضاياها ومفاهيمها الجوهرية والأساسية كالوظيفة الإعلامية التبليغية للغة والفائدة الكلامية ومفهوم القصد، وأفعال الكلام، وغيرها من المفاهيم التداولية الهامَّة، وتتقاطع أبحاث هؤلاء مع اللسانيات التداولية في رؤيتها وتحليلها للواقعة اللغوية، فهي تراعي أثر الفعل الكلامي في العملية التخاطبية، وتهتم بسياق الاستعمال وظروفه، كما تولي المقام ومقتضى الحال الأهمية البالغة في الخطاب وفي التحليل اللغوي.

ولقد اشتمل كتاب سيبويه على مهمَّات القضايا اللسانية التي قامت عليها التداولية، حتى عده بعض الباحثين العرب أفضل نموذج دراسي للسانيات التداولية، ومن بين تلك القضايا التي ركز عليها كتاب سيبويه كثيرا عنصر الفائدة الكلامية، وقد راهن عليها نحاة العرب وجعلوها شرطا أساسيا لحصول التفاهم بين المتخاطبين، حتى" صار متعينا على من يدرسها أن يتتبع أصولها وتطبيقاتها في مؤلفات عدد من العلماء الأجلاء الذين أسسوا هذه الظاهرة في تراثنا أو عمقوا البحث فيها، فمن النحاة والبلاغيين الذين تعرضوا لها: أبو بشر عمرو بن قنبر المعروف بسيبويه (ت حوالى 180)، عبد القاهر الجرجاني (ت حوالى 471)، وأبو يعقوب السكاكي (ت حوالى626)... وغيرهم"[1]، وقد وضعوا للكلام شروطا يُبنى عليها، لا يستقيم إلا من خلالها، ومهما خالفها فقد خرج عن مسمى الكلام، والكلام عند سيبويه هو كل ما حصل به الإفهام طال أم قصر، أي جملة أو نصًّا.

وتظهر عناية سيبويه بالفائدة الكلامية في تقسيمه الشهير للكلام إلى خمسة أقسام حين قال:" هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب"[2]، وقد فصلها خير تفصيل، ما جعل تقسيمه أولى التقسيمات بالنظر والعمل على الأقل في اللسانيات العربية الحديثة، وقد سار سيبويه في سائر كتابه على هذا الطرح العلمي المفعم بالوصف والتعليل والتحليل الماتع، مبَيِّنا ما يحسن

[1]– مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط 1، بيروت– لبنان، 2005م، 6.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 25.

من الكلام مما تحصُل به الفائدة وما لا يحسن منه مما لا تحصل به، فيقول في شيء من ذلك:" ولو قلتَ: سَوف زيدًا أضربُ لم يحسُنْ، أو قد زيدا لقيتُ لم يحسُنْ؛ لأنّها إنما وُضِعَتْ للأفعال، إلاّ أنّه جاز في تلك الأحرف التأْخيرُ والإضمارُ "[1].

وقد أُعجب الحاج صالح بهذا التقسيم الشهير الدقيق والجيد للكلام فصرَّح قائلا بشأنه:" يتضح من هذا أولا أن النحاة لم يتهاونوا أبدا بالمعاني مهما كانت ماهيتها، وثانيا: أنهم ميزوا قبل المحدثين من علماء اللسان بقرون بين ما هو راجع إلى استقامة اللفظ وما يخص استقامة المعنى"[2]، وقد بين في ذات السياق أنَّ أوَّل من تفطن إلى هذه العلاقات من اللسانيين الغربيين هو تشومسكي، ولعل مما هيأ له ذلك ومكنه منه هو اطلاعه الجيد على منجزات اللغويين العرب.

ويضرب سيبويه مثالا في معرض بيانه لما يحسن من الكلام مما تحصل به الفائدة وما لا يحسن مما لا تحصل به الفائدة فيقول:" فأَمَّا المحُال فأن تَعني أنَّ الرجلَ حِمارٌ، وأَما الذي يَحسُن فهو أن تقول: مررتُ برجلٍ، ثم تُبْدِلَ الحِمارَ مَكَانَ الرجل فتقولَ: حِمارٍ، إمَّا أن تكونَ غلِطتَ أو نَسِيتَ فاستَدركتَ، وإمّا أن يَبْدُوَ لك أَن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار بعد ما كنتَ أردتَ غيرَ ذلك"[3]، ويمضي سيبويه في عرض الأمثلة الكلامية الجائزة وغير الجائزة في باب الاستقامة في عرض علمي رائع.

بل إن عناية سيبويه بالفائدة الكلامية لم تقتصر على الحديث عن الفائدة الكلامية على مستوى الجملة، وإنما تعدَّتها إلى الحديث عن الفائدة الحاصلة على مستوى الكلمة الواحدة، وذلك من حيث الأحرف العارضة أو غير الثابتة كتلك التي لم تكن أصلية في الكلمة مما يمكن الاستغناء عنه منها مثل أحرف اللين لولا بعض الأغراض كالندبة والاستغاثة، يقول سيبويه:" ويدل ذلك على أن العرب لما أرادت مطلهن للندبة وإطالة الصوت بهن في الوقف

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 312.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 114.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 439.

وعلمت أن السكون عليهن ينتقصهن ولا يفي بهن، أتبعتهن الهاء في الوقف، توفيةً لهن وتطاولا إلى إطالتهن، وذلك قولك: وازيداه، واجعفراه، ولابد من الهاء في الوقف فإن وصلت أسقطتها"[1]، فكانت فائدة تمطيط الصوت ومدِّه بالألف في هاتين الكلمتين هي تحقيق هذا المقصد المتمثل في طلب العون، وهو غرض بلاغي لطيف هامّ، وقد سمّى الرماني أيضا هذه الهاء التي اعتبرناها عارضة هاء الندبة فقال:" فإذا وصلت سقطت وإذا وقفت ثبتَت؛ لِأَنَّها لمد الصّوت فإذا ناب عنها حرف غَيرُها في الاتّصال سَقَطت"[2].

كما تعد قضية الأفعال الكلامية التي أحياها أوستين في الفكر اللساني الحديث من القضايا اللسانية الهامة في البحوث العربية الأولى، ويعود الفضل في تنظيرها لأوستين Austin 1970م، ويحسب لسورل في تعميقها Searle 1980م[3]، إلا أن اللغويين العرب قد تناولوها في كتب النحو عرَضًا لا قصْدًا، ولم يخصوها بمثل ما قد خصها به المحدثون من التفريعات والتقسيمات وفق مناهج ونظريات متكاملة، وقد تناول سيبويه ثلاثة منها في كتابه فيما أشار إليه الحاج صالح ونبه عليه في كتابه الخطاب والتخاطب في موضوع الأفعال الإنشائية، وقد وقفنا عليه في الكتاب، وهو قول سيبويه:" أرجو، وأطمع، وعسى، فأنت لا توجب إذا ذكرت شيئاً من هذه الحروف، ولذلك ضعف أرجو أنَّك تفعل، وأطمع أنَّك فاعلٌ، ولو قال رجلٌ: أخشى أن لا تفعل، يريد أن يخبر أنه يخشى أمراً قد استقرّ عنده كائن، جاز. وليس وجهَ الكلام"[4]، ثم عقَّب الحاج صالح على هذا الكلام قائلا:" ويلاحظ أن سيبويه ذكر هذه الأفعال بصيغة المتكلم؛ إذ لا تكون إنشائية إلا إذا التزم المتكلم بالتكفل بها باللفظ الصريح فيقول: أعدك أنني... وأوصيك أنني... إلخ"[5].

---

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 131.

[2]– علي بن عيسى الرماني، رسالة منازل الحروف، تح: إبراهيم السامرائي، دار الفكر، د ط، عمان، د ت، 26.

[3]– ينظر: دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، الجزائر العاصمة– الجزائر، 1428هـ– 2008م، 7.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 167.

[5]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 246.

المطلب الثاني: تجليات لسانيات الخطاب في الكتاب من منظور عبد الرحمان الحاج صالح

ما من بد من أنَّ الخطاب قد نال حُظوته ونصيبه من الاهتمام بحثا ودراسة عند علماء العربية، قد يكشف عن ذلك ويؤكده حرص أهل الصرف وأهل النحو وأهل البلاغة البالغُ على بيان شروط الاستعمال الصحيح للكلام وأضربه وأساليبه، مما يوصف بالفصاحة، ومما يوصف بالبلاغة، " فللتخاطب أحوال خاصة تخضع لقوانين معيَّنة، وهو جانب آخر من اللغة لا يقل أهمية عن الجانب الوضعي، وقد اهتم به النحاة القدامى اهتماما كبيرًا، كما ملأ كتاب سيبويه (وخاض فيه أيضا علماء الكلام والبلاغيون والمفسِّرون والأصوليون)"[1]، وفرَّق الحاج صالح بين الكلام وبين الخطاب، فكشف بأن للفظة الكلام مجالا دلاليا واسعا، وأن لها مدلولات لا دخل للخطاب فيها مثل الكلام المستغني الدال عند سيبويه على الجملة المفيدة، وقد مثل للكلام ببعض الأنواع التعبيرية أو التلفظية كالمونولوج وكلام النائم أو المجنون، في حين بيَّن بأن الخطاب لا يكون إلا في مخاطبة أو مجادلة أو محاجة إقناعا للغير[2]، كما استهل العلامة بابه الذي سماه:" دورة التخاطب والمشاركون فيها" بقول سيبويه:" والمشافهة لا تكون إلا من اثنين"[3]، وذلك في إشارة منه إلى أن نص سيبويه وعبارته بمثابة تعريف للخطاب، وهذا دليل آخر على سبق سيبويه في علم تحليل الخطاب.

ويعقد عبد الرحمان الحاج صالح – وهو المعروف بالحذق والولع الشديدين باستقراء كلام العرب، وبجودة أبحاثه ودقة نتائجه في ذلك، وكل ذلك يحسب له في مساعيه لتأصيل علم اللغة عند العرب– مقاربة بين علم اللغة عند العرب وعلم اللسانيات عند الغرب ليكشف بأن قدم السبق ويده الطولى كانت للعرب، وأن البادرة الأولى لظهور علم الخطاب عند العرب قد

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 244.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 16.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 392.

أُثِرت عندهم من لدن كتاب سيبويه، وأن مصطلح علم المخاطب نفسه كان من وضع سيبويه[1].

ويقرر الحاج صالح أيضا حقيقة رائعة وهي أن كتاب سيبويه هو بالفعل كتاب لغوي متكامل لم يكن غرضه الوحيد هو النحو وإنما كان النحو المنطلق والبادرة فيه، وكانت مباحث اللغة ومستوياتها برمتها هي الغرض الواسع العظيم منه؛ فقد جمَّله سيبويه وحبَّره بما أجمله فيه من القضايا والمسائل اللغوية كلِّها، حتى إنه متى ما طرق بابا نحويا إلا ضمَّنه أبوابا لغوية واسعة متنوعة في مستويات اللغة كلِّها، فتجده يتحدث في أمر نحوي صرف وإذ به يدلي بدلوه الذي لا يكاد يخطأ في أحكام ومعان صرفية أو بلاغية أو غير ذلك من علوم اللغة، وقد" اهتم علماء البلاغة بأسلوب القرآن خاصة، والبلاغة هي من علوم اللسان، وموضوعها الأساسي هو دراسة الكلام كخطاب؛ أي بالنظر في التلازم القائم بين طرق التعبير وبين الأغراض، وقد نجد شيئا كثيرا من ذلك في كتاب سيبويه للتلازم الذي أشرنا إليه، وتجدر الإشارة إلى أن أهم ما وُضع في البلاغة قد كان من صنع النحويين مثل الرماني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري وغيرهم"[2]، وإنما شرُف هؤلاء ونبغوا بتتلمذهم على كتاب سيبويه، لما عرفوه من الدور العظيم النبيل الذي يضطلع به هذا السفر الجليل في علم النحو والمعاجم والبلاغة والخطاب وغيرها.

وقد أحسن سيبويه بعبقريته الفذة إذ قسَّم الكلام إلى الأقسام الخمسة المعروفة، وإذْ بيَّن فصيح الخطاب من ضعيفه عند قبائل العرب وفي اللهجات الواسعة وفاضل بينها، ولقد كانت أبحاث علماء العربية جميعا في بيان فصيح اللغات من ضعيفها مضنية على ما فيها من متعة وعظيم فائدة، وكذلك كان حديثُ أهل البلاغة عما يحسن من الخطاب عند كل مقام، وقد عبَّروا عن مسمى اللسانيات الحديثة واختيارها، وهو الذي تسميه اللسانيات الحديثة" مصطلح الخطاب" بمصطلحات كثيرة من مثل الكلام، والتواصل، والتفاهم، والتبليغ،

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 270.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 11.

والتعبير، وكذا بمصطلح " الحديث"، حتى إن الحاج صالح في معرض بيانه لسبق سيبويه وعلماء العربية إلى علم الخطاب يبين بأن استعمال النحاة للفظة الحديث بدلا من لفظة الخطاب مع بقاء المعنى أو المقصود وهو الخطاب كثير جدا في كلام سيبويه وعلماء العربية، يقول العلَّامة يرحمه الله:" واستعمل العلماء كثيرا كلمة أخرى تكاد ترادف الكلام والخطاب وهي الحديث، ولها معان دقيقة تخصها في بعض السياقات ولها مشتقات"[1].

ونردُّ علة عدم اتفاقهم على مصطلح واحد لهذا الباب ولأبواب أخرى كثيرة في اللغة إلى جملة من الأسباب، لعل من أهمها العامل الجغرافي، والاختلاف في مناهج الدراسة في كل مدرسة، ومثل ذلك أن يُجمعوا جميعا فيسموا القطعة الصغيرة من الكلام جملة، وجمعَ المؤنث السّالم بهذا المصطلح وحده بدلًا من قولهم: ما جُمع بألف وتاء، ولو أطلقوا العنان لاستزادوا في ذلك وما اكتفَوا، ولعل من أهم الأسباب أيضا حداثةُ ذلك العهد التأليف(الجِدَّة في التأليف على غير منوال سابق)، وعدم توفر أسباب اجتماعهم على كلمة واحدة، كما هو متاح وممكن اليوم لولا بعض الأسباب والمعوقات اليسيرة التي يمكن تجاوزها وإصلاحها.

ولقد رأينا مبلغ أثر السياسة في توحيد المصطلحات والحفاظ على العربية، فنلنا ثمَرتها الطيبة أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبي الأسود الدؤلي عندما كان القصد طيبا، وبالمقابل لذلك جنينا بعض شوكها في المصيدة أو المناظرة التي جرت" بين الكسائي والفراء وبين سيبويه بحضرة هارون الرشيد، وقيل: بل بحضرة يحي بن خالد البرمكي، وتسمى المسألة الزنبورية"[2]، ولكم كانت الخسارة فادحة جدا، فلم تكن مجرد اختلاف حول مسألة أو مصطلح كمصطلح تحليل الخطاب، عندما فسدت النية والقصد، فهذا أيضا سبب آخر نراه وجيها لعدم اجتماع علماء العربية وعدم توافقهم آنذاك على كثير من المصطلحات كمصطلح

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 16.

[2]– أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تح: حسن هنداوي، دار القلم، ط 4، دمشق، 1418هـ–1997م، ج: 4، 85.

الخطاب والتداول والجملة وعلم النص وغيرها، وإننا لنرى اليوم السياسات اللغويةَ تظافر جهودها لتوحيد المصطلحات، لإدراكها حجم المسألة ومقدار خطورتها.

على أن عدم ورود لفظة الخطاب صراحة في كتب علماء العربية وفي الكتاب لا ينفي وجوده ضمنا أو تحت مسميات أخرى، وذلك شأن العديد من المصطلحات العلمية التي ظهرت مع اللسانيات الحديثة ولها امتداد تاريخي في اللغة العربية لسبقها إليها، بل إن كثيرا من الباحثين يعدون خطاب سيبويه في الكتاب خطابا علميا وصفيا دقيقًا موافقا لمقاييس اللسانيات الحديثة؛ لأنه لا يقدم تعريفات ولا أوصافا للمفاهيم أو للمادة اللغوية التي يدرسها إلا ويدعمها بالأدلة والحجج العلمية، وذلك موافق لما نقرأه في العديد من مباحث اللغة والأصوات في كتابه، كما هو الحال في تعريفي الجهر والهمس[1].

ولئن كان طائفة من المصطلحات قد استجدت في علم اللسانيات الحديثة من مثل" علم الخطاب، ولسانيات الخطاب، وتحليل الخطاب..." فإن قدرا جيدا وافيا بالغرض من بينها قد ورد في كتب اللغويين الأولين المؤسسين لعلم الخطاب في العربية المستمدين إياه من القرءان الكريم وعلوم الدين، فكان وروده بمصطلحات أخرى وضعت بإزاء هذه المقاصد، وهو ما أكده الأستاذ الحاج صالح حين كشف بأنَّ سيبويه هو واضع مصطلح علم الخطاب، يقول الأستاذ العلَّامة:" واستمرَّ هذا الاهتمام مع استمرار السماع لكلام العرب واستمرار الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية؛ إذ المطلوب في كل هذا هو اكتشاف الغرض لا المعنى الوضعي للفظ، وقد أثبتوا جميع أنواع القرائن كحال الخطاب وتقدم الذكر، وعلم المخاطب وهو اصطلاح سيبويه"[2].

وما من شك في أن عناية علماء العربية بالقرءان الكريم من خلال ضبط نصه الكريم أولا ثم من خلال تفسيره وتوجيهاته اللغوية وغيرها، كل ذلك مكَّنهم من امتلاك ناصية علم تحليل

[1]– بشير إبرير، بنية الخطاب العلمي في كتاب" سيبويه" مخارج الحروف – عينة–، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: 7، جامعة محمد خيضر– بسكرة–، جوان 2010م، 5، بتصرف.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 270.

الخطاب بمفهومه الحاضر، ولكن وفق مصطلحات لغوية قديمة، " فالعمل المتواصل على نقط النص القرءاني حتى نهايته هو الذي أداهم بالضرورة إلى التفطن إلى استمرار بعض العلاقات"[1].

بل لقد أقرَّ الحاج صالح النحويين على استخدامهم مصطلح الكلام بدلا من مصطلح الخطاب، ورأى بأنه كما وَصف أمرٌ" جد معقول، فالكلام أعم بكثير كما مر بنا، ويمكن أن تراعى فيه البنية والصياغة بقطع النظر عن دوره في المخاطبة، ولا نعني بذلك أن النحاة تجاهلوا هذا الدور، هيهات، فقد أكثروا، ولاسيما النحاة القدامى من النص على المتكلم والمخاطب"[2]، وفي ذلك سبق ظاهر لتشومسكي وغيره في تقسيمهم لعناصر الخطاب، وفي حديثهم عن دورة التخاطب، بل إنا نسمي القرءان الكريم نصًّا ورسالة ونداءا ومحاجَّة، ونسمي كذلك بعض قصصه حوارا بينه سبحانه وبين المخلوقين، ونعده كذلك أيضا خطابا منه تعالى جدُّه وعزَّ ذكره للثقلين، وهو يمثل أعلى نص سماوي في البلاغة والبيان والفصاحة والإعجاز، ومع ذلك نسميه" كلام الله"، وما في هذا المصطلح من انتقاص ولا إخلال أبدا.

وما اعتبر الحاج صالح في كتابه " الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية" كلام سيبويه وعلماء العربية الفصيحَ خطابا وتخاطبا إلا لوروده عند هؤلاء العلماء وفق منهجية علمية دقيقة رصينة بميزان اللسانيات الحديثة، وقد فرق فيه وبين بخير ما يكون البيان الواسع والتفصيل بين أنواع الخطاب الكثيرة، حيث ميز بين الكلام وبين المحاجة وبين المناظرة، وبين خطاب أهل اللغة وبين خطاب المتكلمين والأصوليين، وذكر لكل توجه رواده المؤسسين له.

وهو يرى أن لسيبويه اليد الطولى في خدمة علم تحليل الخطاب، كما أثبت بأن له قدم السبق لظواهره وقضاياه الهامة كالحذوف والزيادة والاختصار، وغيرها، وبين بأنه صاحب البادرة الأولى فيه وخير من مثَّله من علماء العرب، على اعتبار أن مؤلَّفه الكتاب قد عُدَّ أول

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 7.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 17.

عمل نحوي علمي متكامل، كما استدل العلامة عبد الرحمان الحاج صالح على ذلك بحديث للشاطبي رحمه الله يثني فيه خيرا على سيبويه، وينسب إليه العناية بعلم أو جانب المقاصد، مثبتا له عنايته بعلم البلاغة وعلم الدلالة، فأكَّد الشاطبي بأن:" سيبويه وإن تكلم في النحو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به، حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني"[1]، وقد عد العلامة حديث الشاطبي عن عناية سيبويه بعلم المقاصد كلاما صريحا عن تحليل الخطاب في مؤلفه الكتاب.

فمن أعرف بسيبويه وبعلمه ومن أولى بالاتباع آالنَّاعقون بتيسير نحوه، القائلون بقصور كتابه واقتصاره على الحرف والفعل والاسم، أم الشاطبي اللغويُّ الجامع لعلوم الدين واللغة، والمتبحِّرُ فيها.

ومن أعظم الأسباب التي أعانت علماء العربية على امتلاك ناصية علم الخطاب نبوغُهم في تفسير الخطاب القرءاني من منظور لغات العرب وألسنتها المختلفة، ومن منظور علوم الدين الأخرى، بدءا بتفسير عبد الله بن عباس وتأملات علماء الصحابة رضي الله عنهم جميعا[2]، وجميعهم راسخون على الأقل في علم لغة العرب، وتفسيراتهم الفيَّاضة المرتجَلة، فتلك المحاولات بل قل: تلك الجهود والإنجازات الرائعة في التفسير هي أوَّل وأَولى أنواع تحليل الخطاب عند علماء العربية حتى عهد الخليل وسيبويه، ثم من أتى من بعدهما كالسكاكي والجرجاني والباقلاني وغيرهم.

[1]– إبراهيم الشاطبي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، ط 1، د ب، 1417هـ-1997م، ج: 5، 54.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 7.

المطلب الثالث: إسهامات سيبويه في بناء المنظومة المصطلحية اللسانية (علم المصطلح)

كان مما اضطلع به سيبويه في كتابه أنه لم يكن فيه مجرد مقلِّدٍ ناقلٍ عن الأعراب وعن العلماء فحسب، بل إنه كلَّل ذلك كلَّه بجهود منه خالصةٍ لم يأثرها عمن سبقه ممثَّلة في وضعِه لكثير من المصطلحات اللسانية الجديدة، وفي اختياره لبعض التسميات والعبارات التي جعلها أبوابا لكتابه، ولم يكن ذلك العمل العلمي ليقدح في سيبويه، ولم يُعَدَّ تمردا على معهود العرب في لغتهم، وإنما عُدَّ صميم الاجتهاد العلمي الرصين، فإنه يجوز للعالم ولمجامع اللغة بحسب ما تحتاج إليه لغتها ما لا يجوز لغيرها، ولا يكون ذلك إلا عن ضرورة ومصلحة معتبرتين[1]، فكذلك كان منهج سيبويه في اختياراته اللغوية الكثيرة، وفي ما تفرد به من اصطلاحات، وفي ما سبق إليه وسنه من أوضاع وتسميات.

ومما حضَّ عليه عبد الرحمان الحاج صالح وهو يبين ويعدد جهود علماء العربية، الخليل وسيبويه وغيرهما في علم المصطلح أن تكون المواضعات والتسميات اصطلاحاتٍ علميةً مؤسَّسة متثبتة، موافقة لمعهود المجتمع، وأن تكون من أوضاع واختيارات العلماء لا العامة من الناس؛ لأنَّ" اللسان لا يخضع لإرادة الفرد ولميوله الخاصة به، بل هو متجاوز له سابق عليه، باق بعده لا يزول بزواله، ولهذا لا يمكن لأي واحد كفرد أن يتدخَّل فيه فيغيّرَه أو يستبدل فيه شيئا إلا أن يقيس على كلام الجماعة من المتكلمين السليقيين، وأن يكون ما يقيس عليه من كلام شائعا مشهورا، ولا يقيس على الشاذ، وهو سر قول ابن خلدون والمحْدَثين من علماء الاجتماع ومن وافقهم من اللسانيين: (اللسان ظاهرة اجتماعية)"[2].

ولا بدَّ أنَّ وضع سيبويه لتلك المصطلحات إنما نجم عن حاجة علمية ملحَّة، إذ إنه في ذلك الزمنِ زمنِ تأليفه للكتاب لم يَجد للعلماء من أوضاع موحَّدة متفق عليها، بل إنه رأى

[1]– ينظر: عبد الرزاق بن فراج الصاعدي، موت الألفاظ في العربية، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد: 107، السنة التاسعة والعشرون، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1419هـ، المجلد: 1، 434.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، 188.

علماء المدرسة الواحدة مختلفين اختلافا كثيرا في أوضاعهم، ورأى رؤساء الكوفة أشد خلافا لهم في ذلك، ولم يكن كل ذلك ليحمله على مخالفتهم وإحداث مصطلحات جديدة لولا أنه وجد كثيرًا منها مجانبا للصواب اللغوي، بعيدا عن الحقيقة اللغوية في العربية لتلك الظواهر اللغوية محل الوضع والاصطلاح، فكان أكثر اصطلاحه مجرد إصلاح للأغلاط اللغوية التي وقع فيها غيره، أو تعديل أو إضافة إلى اصطلاحات غيره، أو كان توسعا في الاصطلاح فيما يصح فيه التوسع في الاصطلاح لغرض تعليمي أو غيرِه، وقد كان على دراية بمذاهب العلماء وآرائهم في مختلف الاصطلاحات، حريصا على ألا يُخالفهم أو أن يخرج عما أجمعوا عليه إلا لسبب وجيه ظاهر، يدل على ذلك تتبعه للكثير من اصطلاحاتهم واختياراتهم، فقد وجدناه ملتزما بمنهج علماء العربية في الاصطلاح في عمله العلمي الكبير الذي تجلى في كتابه، وفي ظاهر أقواله.

وسار علم المصطلح أو قضية وضع المصطلحات عند سيبويه وفق ثلاثة أطر منهجية هي:

" الأول: أن يصف المصطلح وصفا، ويشرحَه بالأمثلة دون أن يسميه، والثاني: قد يسمي المصطلح عَرَضًا، ولكنه ربما رأى أن هذا الاصطلاح لا يكفي لنقل فكرة هذا الباب فيلجأ إلى دعمه بالوصف والتمثيل، أو أن يُعبِّر عن الفكرة الواحدة بأكثر من مصطلح، أما الثالث: فكان أن عبَّر عن بعض المصطلحات النحوية بالتعبير الناضج المستقرِّ الذي لا نزال نستخدمُه حتى اليوم"[1].

وعلى الرغم من الجهود العظيمة المضنية التي بذلها سيبويه ومن عاصره ومن سبقه في علم المصطلح بهدف خدمة اللغة العربية، وإتمام جميع مباحثها وأبوابها، وجمع الناس على مصطلح علمي واحد، فإنَّ باب الاجتهاد في وضع المصطلحات ظل مفتوحا للعلماء لم

[1]– عوض حمد القوزي، مرجع سابق، 6.

يوصد، قصْد إثراء اللغة العربية، لذلك أتت أجيال كثيرة من بعد سيبويه من أهل المشرق والمغرب والأندلس فأسهمت إسهاما نبيلا في خدمة هذا العلم علم المصطلح.

وإلى عهد قريب من عهد الواضعين من البصرة والكوفة يأتي ابن جني بعبقريته الفذة بعدد من المصطلحات العلمية الوجيهة جدا والسديدة في علم اللغة، حتى رأينا المحدثين والمعاصرين إلى اليوم يميلون إلى كثير من اصطلاحاته، لا عدولا عن سيبويه والخليل، ولكنما توسع في العربية واختيار للأصوب أو الأسهل، وهنا نستدل لابن جني على تداركه لمن سبقه بمنوال من اصطلاحاته، ونعني به باب الاشتقاق:" باب في الاشتقاق الأكبر: هذا موضع لم يسمِّه أحد من أصحابنا غير أن أبا علي – رحمه الله– كان يستعين به ويخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمِّه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة، ويستروح إليه ويتعلل به، وإنما هذا التلقيب لنا نحن، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن، وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير"[1]، فهو دليل واسعِ اطلاعٍ وحُسن متابعة، مع ما في ذلك من عظيم تواضع للعلماء أقرانه وأساتذته والمخالفين له، ورغبة في التوافق والتفاهم، وفي التيسير على الناس، فهو أسلوب علمي موضوعي متميز.

وإذا استثنينا علوم النحو والصرف والدلالة نجد أن استخدام سيبويه لاصطلاحات علم الأصوات لم يكن عن قصد وإنما كان عن ضرورة وحاجة اقتضاها موضوعه وعمله في كتابه، في حين نجد أن ابن جني وعلماء الأصوات المحدثين يبحثون في هذه المصطلحات بغرض التأسيس لهذا العلم، لذلك عُدَّ ابن جني المؤسس الحقيقي لعلم الأصوات العربي، وهذا جانب من الاصطلاحات اللغوية التي وضعها سيبويه:

[1]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 2، 135.

أ/ علم الأصوات:

أسماء آلات النطق وأعضائه عند سيبويه:

وسط اللسان:

وضع علماء العربية وعلماء التجويد لكل حرف في القرآن الكريم وفي العربية بحسب صفته في النطق وبحسب حيزه ومخرجه في أعضاء النطق مصطلحا معينا، لكي يعرف به ويتميز عن غيره من الحروف، وقد نظروا إلى ثلاثة أحرف هي الجيم والشين والياء، وتحسسوا موضعها في النطق في القراءة فوجدوها مع اختلافها في الصفة متقاربة في المخرج، تصدر جميعا من وسط اللسان فسمَّوها بذلك أحرف وسط اللسان، وكذلك اصطلح عليها سيبويه أين قال:" ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرجُ الجيمِ والشِّينِ والياءِ"[1]، كما استخدمه علماء القراءات والتجويد من بعده كثيرا في متونهم التجويدية، في حين لم يرد هذا المصطلح عند معلمه الخليل، وأمثلة هذا الاختلاف بين سيبويه والخليل كثيرة، ومثل هذا المنحى الخلافي بينهما لا يقدح في فكر أي منهما، بل هو دليل على اجتهادهما في بسط قواعد العربية، وقد اختار المحدثون هذه التسمية في اصطلاحاتهم، كما أنهم اصطلحوا على الجيم والشين مصطلح الأحرف الشجرية.

المخرج:

يتفق مفهوم المخرج عند سيبويه مع مفهوم المخرج عند الخليل وعند اللغويين المحدثين، فهو يأتي عند كل منهما بمعنى موضع النطق والحيز الفعلي لصدور الصوت، ويختلف المخرج باختلاف الحرف المنطوق، أي أنَّ لكل حرف مخرجُه الخاص به.

وقد كان لسيبويه الفضل الكبير في اختيار المصطلحات العلمية المناسبة للاستعمال في علم الأصوات، وعمّ فضله في ذلك مستويات اللغة جميعا، ليستفيد منه أهل التجويد

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 433.

أعظم استفادة، وعلى العمل باختياره دأب الباحثون المحدَثون، وكان من حرصه على نهضة العربية أنه على الرغم مما وجده من المصطلحات اللغوية الكثيرة الجائزة للمسمى الواحد عند الخليل أنه كان يكتفي باستعمال واحد يكون مناسبا للمسمى فيلتزم به وحده، وفي ذلك تيسير على الباحثين وعلاج لإشكالية كبيرة من إشكاليات علم المصطلح هي إشكالية تعدد الأسماء لمدلول واحد.

الموضع:

ومن الاصطلاحات التي جاء بها سيبويه في علم الأصوات مصطلح الموضع الذي جعله مرادفا لمصطلح المخرج، يقول سيبويه في تعريف مخرج الحرف:" هذا بابُ عددِ الحروفِ العربيَّةِ، ومخارجها، ومهموسها ومجهورها"، وسماه موضعا فقال:" فالمجهورة: حرفٌ أشبع الاعتماد في موضعه"[1]، وقد قال فيه الخليل من قبل أيضا أي في تسميته مثل ذلك، إلا أنه لم يكتف بمفهوم واحد بل إنه أطلق عليه عدة تسميات، فتارة يسميه" مدرجة"، وتارة يسميه" حيزا"، وتارة" أحيازا"، إلى غير ذلك من التسميات، يقول الخليل:" والشَّفَوِيَّةَ ستَّة وهي: ر، ل، ن، ف، ب، م، وإنَّما سُمِّيَتْ هذه الحروف ذُلْقا؛ لأنَّ الذَّلاقة في المنطق إنّما هي بطَرَف أَسَلة اللِّسان والشفتين، وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة، منها ثلاثة ذليقة ر ل ن، تخرج من ذَلْقَ اللسان من طَرَف غار الفم وثلاثة شفوية: ف ب م، مخرجها من بين الشَّفَتيْن خاصة"[2]، فقد جاء بمصطلح آخر غير الذي جاء به سيبويه، وهكذا في كل مرة يعبِّر عنه بمصطلح معين، ولكل رأيه وتوجيهه، ويقول أيضا في التعبير عن موضع النطق:" والميم من الحروف الصّحاح السّتة المذلقة التي هي في حيّزين: حيّز الشفتين، وحيّز ذولق اللّسان.. وهي من التّأليف: الحرف الثّالث للفاء والباء، وهي آخر الحروف من الحيّز الأول وهو الحيز الشفوي"[3].

[1]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج: 4، 434

[2]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، المرجع نفسه، ج: 1، 12.

[3]– الخليل بن أحمد الفراهيدي، المرجع نفسه، ج: 8، 421

الحلق:

يعد هذا المصطلح موافقا لعرف عموم المتقدمين ومعهودهم في علمي التجويد والأصوات، وهو الدارج على ألسنة علمائهم، فكذلك كان سيبويه يسمي ذلك الحيز أو المخرج الأقصى في جهاز النطق، وأما علم اللغة الحديث فقد جاء مخالفًا له وللقدامى جميعا في اصطلاحهم الذي ذكرنا، ولم يقسمه تقسيمهم الحلق إلى ثلاثة مراتب" وقد درج على نحو هذا التقسيم كثير من قدامى الدارسين العرب" كسيبويه وابن جني"، حيث قسموا الحلق إلى ما سموه: أقصى الحلق ومنه:" الهمزة والهاء"، وأوسطه ومنه:" العين والحاء"، وأدناه ومنه:" الغين والخاء"، فأقصى الحلق عندهم إذًا يقابل الحنجرة في العرف الحديث، وبهذا يسوغ لهم ما فعلوا، ويتركز الفرق حينئذ في التسمية"[1]، فكان مصطلح الحنجرة الاصطلاح المعروف الشائع عند أهل هذا العصر، وأكثر الذي عليه العمل اليوم، ولم يكن معروفا من قبل كما بين الأستاذ كمال بشر.

الهمس:

جريان الصوت وجَريان النفس عند النطق صوتان طبيعيان مختلفان ينتجان عند النطق ببعض الأحرف في العربية، ولما رأى سيبويهُ الهمس مثله مثل النفخ عبارة عن جريان للهواء عند النطق بأحرف الهمس العشرة التي جمعها ابن الجزري من بعده في قوله:" مهموسُها فحثه شخص سكت"[2]، شبهه بالنفخ فقال:" وأما الحروف المهموسة فكلها تقف عندها مع نفخٍ؛ لأنهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر، وإنما تَنْسَلُّ معه، وبعض العرب أشد نفخاً؛ كأنهم الذين يرومون الحركة فلابد من النفخ؛ لأنَّ النَّفَس تسمعه كالنفخ"[3]، وقد أحسن في ذلك لولا أنه في عرفنا واعتبارنا أن النفخ فعل متعمَّد ناتج عن كثير الاعتماد،

[1]– كمال محمد بشر، مرجع سابق، 124.

[2]– محمد بن محمد بن الجزري، منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (متن الجزرية)، دار المغني للنشر والتوزيع، ط 1، د ب، 1428هـ– 2001م، 10.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 175،

بينما النفس في الأحرف المهموسة ناتج عن أقل الاعتماد والقصد؛ لأنه صفة طبيعية ولازمة لأحرف الهمس حتى وإن كانت متحركة فكيف إذا سكنت، إلا أن الهمس يضعف جدا في الحرف المتحرك، ولا يُحتاج في النفس إلى تكلف في إخراج النفس كما في النفخ، ولو حاول الإنسان أن يكظم نفسه في أحرف الهمس ما استطاع ذلك ولو أن تكون متحركة.

الجهر:

يعدِّدُ عبد الرحمان الحاج صالح فيوض بركات علم الأصوات عند العرب وأفضاله على الغرب فيقر في فخار واعتزاز بحقيقة علمية تاريخية عظيمة هي أن" مثل هذا التمييز الدقيق كالجهر والهمس لم يكتشفه الغربيون إلا بعد اطلاعهم في القرن التاسع عشر على ما كتبه العرب والهنود"[1]، وقد سمَّى سيبويه بعض الحروف أحرفًا مجهورة، فإليه ينسب مصطلح الجهر في أصل وضعه الأوَّل، وإن كان علماء العربية قد قدَّموا هم أيضًا تعريفا للجهر وللصوت المجهور، ولكنه تعريف صعب عسير الفهم، وتبعه غيره فيه بدون أدنى تغيير في العبارة تقريبا، غير أن هذا الاصطلاح لا يتوافق مع ما تواضع عليه المحدثون، وهنا يتساءل كمال بشر عن أسباب هذا الاختلاف، ويخمِّن أن يكون السبب راجعًا إلى اختلاف نطق الحروف بين القديم والحديث[2].

ب/ علم الصرف:

همزة الوصل:

باب الهمزة من أوسع الأبواب في كثير من اللغات، بالنظر إلى تلك الكيفيات المتنوعة لنطقها، وإلى طريقة رسمها والصور المتنوعة التي ترِد عليها، وكذلك الحال في العربية، فإنَّ للهمزة بحسب حركتها وحركة ما يجاورها صورا مختلفة، وبحسب الأستاذ محمد بشر فقد أحسن النحاة العرب الأولون إذ التزموا توصيف سيبويه للهمزة ليوافقهم في ذلك العلم الحديث:"

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 214.

[2]– ينظر: كمال محمد بشر، مرجع سابق، 114.

وعلى كل حال فالوصف الذي قدموه للهمزة هنا وصف علمي يتمشَّى في – عمومه– مع ما أثبته النظر الحديث"[1].

ولا يقتصر أمر الهمزة على حركتها أو على صدارتها في الكلام ولا على قضية التجاور داخل الكلمة الواحدة فحسب، بل إنه يشمل الهمزة التي تجيء بين كلمتين أيضا، حين تأتي في المرتبة الأولى من أحرف الكلمة الثانية، ولسيبويه على عادة القدامى مصطلحاته الخاصة على أبواب كتابه ومنها على باب همزة الوصل أيضا، إذ أوردها في عنوان طويل سماه:" باب تحرك أواخر الكلم الساكنة إذا حذفت ألف الوصل لالتقاء الساكنَين"[2]، ومما يلاحظ على هذا الاصطلاح أيضا أن سيبويه كان يختار في كتابه أن يصطلح على هذا الباب وأمثاله مصطلح ألف الوصل، فلم يسمها مرة واحدة همزة الوصل في كتابه كله، فكان ذلك على غير عادة اللسانيين العرب المحدثين، الذين لم يخرجوا في الكثير الغالب عن مصطلح" همزة الوصل".

ولما رأى الخليل أن الهمزة لا تلزم صورة واحدة في النطق والكتابة لم يشأ أن يبدأ بها كتابه، فاختار العين للزومها صورة واحدة ثابتة في النطق، فلا شكَّ بحسب بعض الروايات" أن الخليل كان يدرك أن الهمزة هي أول الأصوات العربية مخرجا، وبذلك يتفق مع سيبويه وغيره من الباحثين العرب، كما يتفق مع وجهة النظر الحديثة في ذلك، ولكن الخليل– على الرغم من هذا الإدراك– لم يشأ أن يبدأ بها الألفباء الصوتية؛ لأنها في نظره غير مستقرة الصورة النطقية، ولم ترْق إلى درجة غيرها من الأصوات التي هي أحق منها ومن غيرها في أن تتصدر الأصوات العربية، وهي العين لقوتها ونصاعتها"[3].

[1]– كمال محمد بشر، المرجع السابق، 112.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 158.

[3]– كمال محمد بشر، المرجع السابق، 118.

بنات الثلاثة وبنات الأربعة:

سمى سيبويه طائفة من الأفعال والأسماء بهذا الاسم تمييزًا لها عن غيرها، وقد خص بها كل فعل أو اسم مؤلف من ثلاثة أحرف أو أربعة أحرف أصول في الكلمة، وعرض كل ذلك على ما يوافقه في الميزان الصرفي فكان تحليله تحليلا علميًّا رصينا، ومثَّل له جميعا بكلمات من مثل:" احتبست احتباساً، وانطلقت انطلاقاً؛ لأنه على مثاله ووزنه، واحمررت احمراراً، فأما استفعلت فالمصدر عليه الاستفعال، وكذلك ما كان على زنته ومثاله، يخرج على هذا الوزن وهذا المثال، كما خرج ما كان على مثال افتعلت، وذلك قولك: استخرجت استخراجًا، واستصعبت استصعابًا، واشهابيت اشهيبابًا، واقعنست اقعنساسًا، واجلوذت اجلواذًا"[1]، وكانت تسمية سيبويه على خلاف تسمية الدارسين المحدَثين الذين سموا هذه الأنواع بالأفعال أو الأسماء الثلاثية أو الرباعية[2]، على أن الغاية من تأليف هذا السفر العظيم ومن تأليف غيره، بل وفي وضع درس العربية كلِّه لا تقتصر على مجرد الاصطلاح فحسب، وإنما في حصول الإفادة من الكلام وفي توريث الناس هذا العلم الجليل الذي هو من أنبل العلوم وأولاها عناية واهتمامًا.

ج/ علم التركيب:

الفعل القاصر:

اختار بعض العلماء للفعل الذي لم يتعد فاعله مصطلح" الفعل القاصر"، تعبيرًا ودلالة على عمله في الجملة وأثره فيها، وذلك من جهة أن الفعل الذي ليس له مفعول به هو فعل مقتصر على فاعله، مكتف به، وسماه سيبويه كما يسميه المحدثون فعلا غير متعد، وقد عنون هذا الموضوع بالقول:" هذا باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعلُه إلى مفعول آخَر،

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 79.

[2]– ينظر: صبحي إبراهيم الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط 1، د ب، 1379هـ– 1960م، 253.

والمفعول الذي لم يتعد إليه فِعْلُ فاعلٍ ولا يتعدَّى فعلُه إلى مفعول آخَر..."[1]، وهو عنوان طويل إلى الغاية القصوى بالقياس مع عناوين بحوثنا الحديثة والحاضرة.

ما جُمع بالتاء أو بألف وتاء وما جمع بالواو والنون أو بالياء والنون:

كان من منهج سيبويه في الاصطلاح على بعض الظواهر اللغوية والتعبير عنها، ومن منهجه في وسم أبواب اللغة أنه كان إذا ما رأى في الاصطلاح عليها مكانا للتوسع توسع ونوَّع بما لا يفسد المعانيَ ولا يحدث خلطا في الاصطلاح أو تشتيتا على القارئ، فيكون ممن أسهم في إحداث ما يصطلح عليه بالفوضى المصطلحية، كالكثير ممن تلاه من هذين القرنين خصوصا بسبب سوء تقديرهم وفساد تدبيرهم، وقد نظر إلى نوعين هامين من أهم أنواع الجموع في العربية هما جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم فرأى بأنه يحسن فيهما التنويع في الاصطلاح فاصطلح عليهما بمثل ما اصطلحنا به على عنواننا هذا اتباعا له، وهو في اللغة خير متبوع، إذ قال:" وكذلك ما جمع بالواو والنون والياء والنون"[2]، وحين قال:" ومن العرب من يفتح العين إذا جمع بالتاء، فيقول: رُكباتٌ وغُرفاتٌ، سمعنا من يقول في قول الشَّاعر:

ولمَّا رأَوْنا بادِياً رُكباتُنا ... على موطنٍ لا نَخْلِطُ الجدَّ بالهزل"[3].

وحين قال أيضا:" وأما ما كان على فعلةٍ فإنَّك إذا أردت أدنى العدد جمعتها بالتاء وفتحت العين، وذلك قولك: قصعةٌ وقصعاتٌ، وصحفةٌ وصحفاتٌ، وجفنةٌ وجفناتٌ، وشفرةٌ وشفراتٌ، وجمرةٌ وجمراتٌ"[4]، وأمثلة ذلك كثيرة في أبوابه، كما سماهما أيضا على عادة المتقدمين من العلماء المسلمين جمع النسوة فقال:" وهذا التأنيث الذي في عنوقٍ تأنيث حادث، فعنوقٌ البناء الذي يقع للمذكرين، والمؤنث الذي يجمع المذكرين، وكذلك رجل

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 33.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 491.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 579.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 578.

يسمَّى: نساءً؛ لأنها جمع نسوةٍ"[1]، وإنما قلنا: المسلمين، بيانا بأن الحديث في العربية والتأليف فيها ليس وقفا على الباحث المتخصص في علم اللغة وحده من العرب والعجم، ثم إن غالب علماء العربية يدخلون في جملة علماء المسلمين، ولكنا دأبنا على قولنا: علماء العربية لغلبة علم العربية عندهم على غيره من العلوم، كما دأبنا على القول: علماء التفسير، والسيرة، والرسم، ولا يلزم في كل علم من ذلك أن نقول: علماء الدين، ولكن ظاهر وصفهم يدل عليه، وقد لا يكون ملزِما به بالضرورة.

وقد وقفنا على اصطلاح جمع السلامة عند علماء القراءات والأصول والعقيدة والتفسير وغيرهم، ومن المتأخرين عن سيبويه أيضا من سماها جمع السلامة، وظل هذا المصطلح شائعا حتى استخدم في كتب اللسانيات العربية الحديثة على قلة، كمثل مجلة لغة العرب العراقية، وكتاب جامع الدروس العربية للأستاذ مصطفى الغلاييني إذ جاء فيه:" أما الصفات فالأصل فيها أن تُجمع جمع السلامة، وذلك هو قياس جمعها، وتكسيرُها ضعيف؛ لأنه خلاف الأصل في جمعها"[2]، ولعل ما حمل الغلاييني رحمه الله على متابعة القدامى على هذا الاصطلاح هو استمساكه بموروثه اللغوي الزاخر، إذ هو من خيرة من حمل لواء التراث العربي في العصر الحديث وذاد عنه ونافح، وهو مع إحيائه للقديم مواكب للجديد مساير له، فكان أكثر اصطلاحه عليه وعلى غيره من الظواهر اللغوية في العربية موافقًا لاصطلاح أهل عصره؛ لأنه السائد والغالب.

على أن الاصطلاح النحوي المستخدم في الدرس اللساني الحديث وكذا المعاصر هو اصطلاح: جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم، وقد دأب الدارسون في العربية على هذا الاصطلاح ونشأت الناشئة عليه بما لم يُبق لغيره في الدرس الحديث من حظ في الاستعمال، فأصبح متعلموا العربية لا يكادون يعرفون غير هذين المصطلحين، يقول

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 240.

[2]– مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، ط 28، صيدا– بيروت، 1414هـ– 1993م، ج: 2، 30.

الغلاييني في تعريفهما وقد كان اصطلاحه عليهما على منوال اللغويين المحدثين في شيء من المزاوجة في الاصطلاح مع مصطلح مَن تقدمه:" جمعُ المؤنثِ السالمُ ما جُمعَ بألف وتاءٍ زائدتينِ، مثلُ هنداتٍ ومُرْضِعاتٍ وفاضِلاتٍ"[1].

ولا بد أن عددا من المصطلحات اللسانية الحديثة الهامة في جانب الدلالة وغيرها كانت معروفة عند سيبويه، وقد نسب عبد الرحمان الحاج صالح طائفة منها إلى سيبويه وعلماء العربية، وفي أصل وضع مصطلح علم الخطاب يقول الأستاذ:" واستمرَّ هذا الاهتمام مع استمرار السماع لكلام العرب، واستمرار الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية؛ إذ المطلوب في كل هذا هو اكتشاف الغرض لا المعنى الوضعي للفظ، وقد أثبتوا جميع أنواع القرائن كحال الخطاب وتقدم الذكر، وعلم المخاطب وهو اصطلاح سيبويه"[2].

المطلب الرابع: إشكالية الاختيارات التعبيرية بين الفصحى وبين لهجاتها المختلفة في الكتاب وفي اللسانيات الحديثة

كان من إعجاز القرءان الكريم تنزُّلُه بعدد من اللغات العالمية بألفاظ أعجميَّة معرَّبة، فهي بين فارسية إلى رومية إلى عبرية، وعددٍ من اللهجات العربية الفصيحة وغير الفصيحة مما ارتضاه علماء العربية ومما ردوه منها، وقد انتقى بحكمة بالغة أفصَح ألفاظها مما يندر حتى في أفصح اللهجات العربية، في مفاضلة عجيبة رائعة بين تلك اللهجات، وقد ابتعث منها ألفاظا كثيرة فصيحة لولاه ما حَيِيت ولا عُرفت، فكان كبار الصحابة وعلماؤهم رضي الله عنهم جميعا يعجبون ويسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن معانيها وهو يجيبهم، فمثلت تلك المرحلة العملية التي غاب فيها العمل النظري المنظم، مرحلة التأصيل والجمع الأول للعربية.

[1]– مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج: 2، 21.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 270.

ويُعدُّ هذا التنوع اللساني العظيم في الرسالة السماوية العالمية التي تنزلت على قلب النبي العربي بحق رقَيًّا عظيما في الاستعمال اللغوي لم تعهد له البشرية شبيها قط، ويعز أن تبلغه اللسانيات الحديثة ولو ابتدعت ألف نموذج لغوي صناعي على غرار لغة الإسبرانتو التي طورها اليهودي الروسي لودفيج زامنهوف ذو الأصول اليهودية وعضو جمعية أحباء صهيون، لتكون حلا لإشكالية الاختلاف بين الأمم في الألسن، ولتكون بديلا عن تلك اللهجات واللغات العالمية الواسعة، وطالما كانت الغاية هي الهيمنة والتسلط المادي والسياسي والديني.." وفي دائرة المعارف الألمانية أنَّ عدد الذين يتكلمون بها يقرب من مئة وثلاثين ألفا، وإذا أمكن انتشار لسان من الألسنة حتى يعرفه جميع الأمم زيادة على ما يعرفون من لغاتهم القومية، فمن الصعب جداً أن تنتشر بين الشعوب– على اختلاف مواطنها– لغة تستولي على ألسنتها، وتطمس على آثار لغتها؛ فإن الألسنة تابعة لأحوال التفكير والإحساس، وهل من سبيل إلى أن تتحد الأمم في تفكيرها وإحساسها؟"[1].

ويثبت لنا عبد الرحمان الحاج صالح في قضية الاستعمال اللغوي حقيقة وقيمة علمية رائعة، ويفصلها بواسع نظر في جميع أعماله اللسانية، وهي" أنَّ المناهج الحديثة في تحليل اللغات، وإن كانت قد بلغت شأنًا كبيرًا لاعتمادها للكثير من الحقائق العلمية، إلَّا أنَّها قد تقل قيمة عن المناهج التي وضعها الخليل وسيبويه..."[2]، كما يؤكد أيضا بأن مدلول مصطلح" اللغة" على اللسان عند اللغويين العرب الأولين إنما أُخِذَ في أصل وضعه الأول من لدن سيبويه حين قال:" ولكنّ العبادَ إنَّما كُلِّموا بكلامهم، وجاء القرآنُ على لغتهم وعلى ما يَعنون"[3]، ثم أردف الحاج صالح بعد أن نسب مصطلح اللسان إلى سيبويه قائلا:" وصارت

[1]– محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، ط 1، سوريا، 1431هـ– 2010م، ج: 1، 18.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، 202.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 331.

كلمة اللغة بهذ المعنى مرادفة لكلمة اللسان انطلاقا من هذا الاستعمال في نهاية القرن الثاني"[1].

وألحَّ الأستاذ اللساني على أن اللهجات في العربية كل متكامل، وأنها أصل واحد فقال:" حاولنا أن نبين أن اللغات جزء لا يتجزأ من العربية بدليل وجود اللغات كلها في المستويات الثلاثة: النص القرءاني والشعر وكلام العرب، ولا تنحصر أبدا في هذه المستويات إطلاقا"[2]، وذكر أبو بكر الواسطي أنَّ" في القرآن من اللغات خمسون لغة: لغة قريش، وهذيل، وكنانة، وخثعم، والخزرج، وأشعر، ونمير، وقيس عيلان، وجرْهم، واليمن، وأزد شنوءة، وكندة، وتميم، وحمير، ومدين، ولخم، وسعد العشيرة، وحضر موت، وسدوس، والعمالقة، وأنمار، وغسان، ومدلج، وخزاعة، وغَطَفان، وسبأ، وعمان، وبنو حنيفة، وثعلبة، وطيء، وعامر بن صعصعة، وأوس، ومزينة، وثقيف، وجذام، وبليّ، وعذْرة، وهوازن، والنمر، واليمامة، ومن غير العربية: الفرس، والنبط، والروم، والحبشة، والبربر، والسريانية، والعبرانية، والقبط"[3]، والقول بوحدة اللغات أو وحدة أصلها إن جاز الاصطلاح في هذه المقالة أجلى وأوضح، فهو لم يقصر هذه القضية: (اللغة العالمية الأم) على لهجات العربية المحلية فحسب بل عمَّم حكمه على لغات العالم جميعا، فكأني به يرى انبثاقها جميعا من مَعين واحد، قد يكون اللغة العربية.

فلما أن كان الحال كذلك من الوسع في الاستعمال اللغوي في القرءان الكريم، كان أمر الاحتجاج باللهجات في الكتاب إلى جانب العربية الفصحى أمرا جيدا ومحمودا، وهو ما يسمى اليوم في اللسانيات الحديثة بالثنائية اللسانية، ومعنى ذلك" أن اللسان الفصيح من وظيفته أن يُتَّخذ وسيلة رسمية للتعبير، وأن يكون لغة المناسبات والوظائف الرسمية

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 13.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 23.

[3]– جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1408هـ– 1988م، ج: 1، 154.

والنشاطات الثقافية والخُطب الدينية والمحاضرات الأدبية والفكرية وما شابهها، في الوقت الذي تشغل اللهجات المحلية بقية المهامِّ اليومية التي يحياها الفرد في المجتمع"[1].

وعندما أراد الصحابة الكرام كتابة المصحف الشريف أخذوا يفاضلون بين اللهجات في مسعى لانتقاء الأجود فجعلوا لهجة قريش مرجعيتهم في الكتابة المصحفية المباركة، و" تشتمل اللغة العربية على لهجاتٍ كثيرة، ولكن كُتَّاب المسلمين أجمعوا على أن لهجة قبيلة مُحَمَّد تمتاز بأنها أفصحُ لهجات العرب، وكان من تأثير القرآن أن جعل من اللهجة التي كُتِب بها لغة عامَّة، واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاماً، وهي، لا ريب، مختلفة اللهجات في سورية وجزيرة العرب ومصر والجزائر وغيرها"[2].

وقد كان سيبويه يحتج بكثير من لهجات العرب الفصيحة، ويزنها بميزان العربية الفصحى، وكان يسميها ألسنة ولغات، فهو لم يأت في كتابه كله بمصطلح لهجة ولا بواحدة من تقليباتها، فلم نقف على مصطلح اللهجة مفردة ولا جمعا، ولم نقف عليها نسبة ولا صفة... إلخ، في كتابه كله، وقد كان ذلك الغالب على منهج أهل زمانه في الاصطلاح، فكان من أمثلة حديثه عنها قولُه:" ودعاهم سكون الآخر في المثلين أن بين أهل الحجاز في الجزم فقالوا أردد ولا تردد، وهي اللغة العربية القديمة الجيدة، ولكن بني تميم أدغموا ولم يشبهوها برددت؛ لأنه يدركها التثنية، والنون الخفيفة والثقيلة، والألف واللام وألف الوصل، فتحرك لهن"[3]، وربما سمى العلماء – ولعل سيبويه في ذلك أسبق وأحرى– المخالفةَ والتفرد في الحركة الواحدة من الكلمة الواحدة مما قد يَلطف ويخفى عن المتكلمين لغة، وذاك كقول ابن عقيل، وقد نقل عن سيبويه واستدل بكلامه كثيرا:" وربما كسرت الكاف فيهما أي في التثنية

[1]– حافظ إسماعيل علوي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، لبنان، 2007م، 67.

[2]– غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، د ط، القاهرة– مصر، 2012م، 455.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 473.

والجمع بعد ياء ساكنةٍ نحو: فيكما وفيكم وفيكن، أو كسرةٍ نحو: بكما وبكم وبكن، وهي لغة حكاها سيبويه والفراء، لكنها رديئة، كما قال سيبويه وأنشد:

وإن قال مولاهم على جل حادثٍ من الدهر رُدوا فضل أحلامكم رَدوا"[1].

ولم يكن من منهجه في كتابه أن يفرض قوانين لهجة معينة على أخرى غيرها، ولا أن يعمِّمَ حكمه النحوي في دراسته عليها جميعا، بل كان يراعي ما بينها من خلافات بما لا يُفسد عليه قانونه النحوي وآلته اللغوية، فلا يُخضع ظاهرة من ظواهر اللغة لقوانين لغة أخرى، وهو منهج القرآن الكريم في تنزله بسبعة أحرف، وفي ذلك من الوُسع والتيسير على الناس قدْر عظيم، فكذلك كان سيبويه يعامل كل لغة معاملة خاصة بها في بابها، وكان يجيز لقبيلة ما لا يجيز لغيرها، وقد يعتبر الشيء أحيانا كثيرة صحيحا بالنسبة لقبيلة معينة؛ لأنه أُثر عنها ووافق لهجتها، ويعدُّه خطأ بالنسبة لقبيلة أخرى إذا خالف قاعدتها، يتحرى الحياد والدقة والسماع المرهف والتثبت في السماع والنقل والقياس، لذلك نراه والعلماء معه يعاملون كل لغة معاملة خاصة ولا يكلِّفون الناطقين بغيرها النطق بها، أو يحرفونها عن وضعها الأول، وإنما المعيار عندهم في أحكامهم وأقيستهم اللغوية الشيوعُ والاطِّراد أي الكثرة والاستعمال.

إن ذلك الأسلوب العلمي المتعالي في دراسة اللغة هو نفسه منهج القرآن الكريم في مخاطبة الناس ومحاورتهم، فكان من أبرز غايات مجاراته لهجات العرب حفظ تلك اللهجات جميعا؛ لأن الغالب عليها الفصاحة، ولها أصل وسند متصل واضح إلى العربية الفصحى الأصلية ومن الغايات أيضا المنع من اختلاطها ومن ذوبانها في غيرها، وقد كان سبحانه قادرا على تنزيلها بحرف واحد يجمعها جميعا فيجعلها لسانا واحدا على ما تتكلم به قبيلة عربية واحدة كأن يكون كله منزلا بلسان قريش مثلا، ويزيل تنوعها والاختلاف فيها، لكنه

[1]– بهاء الدين بن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد، تح: محمد كامل بركات، دار الفكر، ط 1، دمشق، 1400هـ، ج: 1، 93.

لحكمته عز وجل أبقى لكل لغة نظامها وحَفظها من الذوبان في غيرها، وجعل لها أقواما يتحدثون بها ويجيدون استخدامها.

وإن مما يَبعث على التفاؤل والارتياح في قضية تعدد اللهجات إلى جانب الفصحى أن مجموع هذه اللهجات العربية الباقية آيلة إلى التوحيد، وذلك بفضل هذه العولمة التي كان يُخشى من مضارِّها ومن عواقبها الوخيمة، لكن ما حصل لحسن الحظ أن ما أتاحته من وسائل التقارب والتعارف بين المجتمعات العربية قد فاق مفاسدها، " ومع انتشار التعليم وتطور وسائل الإعلام وبرامج الأطفال وغيرها، أصبحت لهجات العرب من المحيط إلى الخليج أكثر قربًا من العربية الفصحى، وأصبحت هي بدورها أكثر قربًا من حياة الناس اليوميَّة"[1]، ودور التقارب بين المجتمعات في اللهجات والعامِّيَّات ظاهر بصورة جليَّة جدًّا في ذلك الأثر الطيب الذي يصنعه التجاور بين المناطق الجغرافية في البلد الواحد من تعارف وانسجام بين الناس، بل وبين الدول العربية المختلفة، وذلك ظاهر تشابه لهجات الجزائريين مع العديد من الدول المجاورة للجزائر.

ومما عرض له سيبويه في كتابه ولو على إيجاز واقتضاب مسألة تغلب اللهجات أو اللغات على اصطلاح سيبويه، وهي ذات القضية التي عُني بها الحاج صالح وتحدث عنها كثيرا، فكان سيبويه يصف قضية تغلب اللغات بعبارات من مثل:" وهذا أقل اللغات"[2]، ومن مثل" فأمَّا ما كان آخره راءً فإنَّ أهل الحجاز وبني تميم فيه متفقون، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يرى، والحجازية هي اللغة الأولى القدمى"[3]، ومن مثل" وهي اللغة العربية القديمة الجيدة"[4]، وسبب عدم توسعه في هذا الموضوع أنه قد تناوله من منظور النحو لا من منظور علم اللغة، فقد كان في جوانب كثيرة من كتابه أميل إلى العناية بعلم

[1]– المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال الملتقى الوطني: اللغة العربية والذكاء الاصطناعي – الواقع والرهانات–، جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر، الجزائر، 18 ديسمبر 2019م، 22.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 444.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 278.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 473.

التراكيب أو بعلوم اللغة الأخرى مجتمعة منه إلى العناية بعلم اللغة مجتمعا، وهذا أحد الأسباب التي أحدثت فروقا بين دراسته وبين دراسة المحدثين لعلم اللغة.

ويؤثر سيبويه وعلماء اللغة العربية في موضوع اللهجات وتغلبها وفصيحها أن تكون تعليلاتهم لظواهرها ولموتها ولحياتها ولتغلبها تعليلات لغوية علمية محضة، على خلاف علماء اللسانيات الحديثة الذين لا يغفلون بعض الجوانب الذاتية كعامل التاريخ والاجتماع والنفس في حياة اللغات، فقد كشفوا أن تغلب اللهجة الباريسية في فرنسا كان لعوامل اقتصادية واجتماعية مختلفة، فبذلك تمكنت من البقاء والريادة والسيادة على سائر اللهجات الفرنسية، وكذلك كان شأن لهجة فلورنسا في إيطاليا، والتي تغلبت هي بدورها على سائر اللهجات الإيطالية، حتى بقيت اللغةَ الرسمية للدولة، وذلك شأن لهجة قريش عند العرب[1].

إنَّ إشكالية النموذج اللغوي المشترك أو الرسمي في ظل تعدد اللهجات العربية واحدة من أعوص الإشكالات التي تواجه اللسانيين منذ القدم، بل لقد كان الخلاف قائما حول اللهجة المناسبة لتدوين أفضل كتب المسلمين قاطبة ألا وهو القرآن الكريم، لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم كفى الصحابة رضي الله عنهم هذا الأمر العظيم، وهو المؤيَّد بالوحي العالم بأحوال الناس وبما يصلح أهل العربية فكان اختياره لغة قريش دليلا على أوليتها وأولويتها بين اللغات، وهذه نقطة لا ريب هامة جدا، وبيانها أن في هذه المفاضلة دليل على وجوب متابعة العلماء من بعده في نهجه صلى الله عليه وسلم في اختيار اللغة الأفصح، وهو ما تمثله سيبويه وعلماء العرب قديما، لذلك فليحذر الذين يخالفون عن سنته صلى الله عليه وسلم بدعوتهم إلى وأد الفصحى، مع جواز استعمال لهجات أخرى غير لهجة قريش في بعض المواطن من القرءان الكريم، وهو ما فصَّل فيه عبد الرحمان الحاج صالح القول جيدا.

وقد نوَّع القرآن الكريم في أصل تنزله بين لهجات العرب، بل إنه توسع في استعمال لغات الأمم الأخرى حتى تنزل بلغات العجم كالحبشية والنبطية والعبرانية والزنجية والفارسية

[1]– ينظر: عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، مكتبة وهبة، ط 2، د ب، 1414هـ– 1993م، 74.

والقبطية والسريانية والرومية واليونانية... إلخ من أضعاف ما ذكرنا من اللهجات العربية، من هنا كان التعدد اللهجي والاختلاف في اختيار اللغة الأنسب والأفصح للاستعمال اللغوي أمرا طبيعيا ومحمودا جدا في العربية، بل إن دائرة الاستعمال اللغوي ومجاله قد تعديا مستوى اللهجات في العصر الحديث بفعل تقارب الأمم، واتسع ليشمل لغات عالمية من أسر لغوية مختلفة حتى يحصل التعارف بين الناس، ويحسن التعايش، فمن هنا كانت ثنائية اللغة أو ازدواجيتها أمرا واقعا وواجبا ومسألة ثقافية وعلمية قديمة النشأة حديثة التطوير، حتى إن كثيرا من المفسرين كما سلف يعتقدون بأن نبي الله آدم عليه السلام ومن بعده أبناؤه كانوا على علم بلغات العالم كلها، ما اندرس منها وما بقي، وما بقي منها إلا قليل.

لقد عُدَّت قضية تعدد اللغات وتنوعها اللهجي قضية حضارية ضرورية لبقاء الأمم مهما قوي بأسها وسلطانها، ومهما تعددت أسباب رقَيِّها وتمدنها، حتى قيل بأن الآرامية كانت" لغة دولية؛ لأنها كانت مستخدمة في منطقة واسعة من العالم القديم؛ في التعامل التجاري والسياسي بين أبنائها وغير أبنائها، تشهد بذلك النقوش الكثيرة التي وجدت في إيران والعراق والشام وشمال الجزيرة العربية ومنطقة أسوان في مصر، ووجدت في آسيا الصغرى نقوش ثنائية اللغة، فبعضها آرامي يوناني وبعضها آرامي ليدي"[1].

وقد كان سيبويه وعلماء العربية يحضون الناس على التعرف على لهجات العرب ما استطاعوا، ولو أن يحفظوها لأجل مجرد العلم بها فحسب، وقد أيقنت جميع الأمم مدى أهمية التعدد اللهجي فحرصت على تعليم أبنائها ما استطاعت من اللهجات المحلية ومن اللغات الأجنبية، واعتبرته عاملا مهما من عوامل قوتها وبقائها، فكانوا جميعا يتخذون المترجمين للتواصل مع الأمم المجاورة، وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأن اتخذ لكل لغة ترجمانا فذاك سلمان، وذا بلال، وهذا صهيب، فكلهم كانوا عجما يجيدون التحدث والتراسل بلغاتهم الأصلية الأولى أو(لغاتهم الأم)، فضلا عمن تعلم لغات الأقوام والأمم الأعجمية

[1]– محمود فهمي حجازي، مرجع سابق، 174.

المجاورة وهو عربي كالمغيرة بن شعبة وغيره من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فمما رواه كثير من أصحاب السنة رحمهم الله عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:" أمرني رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – فتعلمتُ له كتابَ يهودَ، وقال: "إني والله ما آمَنُ يهودَ على كتابي" فتعلمتُه، فلم يَمُرَّ بي إلا نصفُ شَهرٍ حتَّى حَذِقْتُه، فكُنتُ أكتبُ له إذا كَتَب، وأقرأُ له إذا كُتِبَ إليّ"[1]، وقد كان العلماء العرب يُرَغِّبون الناس ويحثونهم على تعلم اللغات، حتى إنهم نسبوا في ذلك أبياتًا شعرية" للشيخ صفي الدين الحلي وهو ممن كان يحفظ عدة لغات:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وتلك له عند الملمات أعوان

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا ... فكل لسان في الحقيقة إنسان

نسبهما له صاحب الجوهر المحسوس في ترجمة شارح القاموس"[2].

ولا ريب أن سيبويه والحاج صالح قطبا هذا الجهد البحثي هما خير أسوة لنا في هذا الصدد، فأما سيبويه فيكفيه فخارا أنه حذق العربية إلى جانب الفارسية حتى شرف بها شرف الدنيا والآخرة، وربما فاق علمُه بالعربية علمَه بالفارسية، وأما الحاج صالح فقد سار على نهجه في أمر اللغة والعلم فأتقن علوم العربية حتى نبغ فيها، ثم أقبل على اللغات الأجنبية الصاعدة فتعلم عددا منها حتى تحققت له الكفاية، وقد دعا الباحثين والمعلمين في كثير من المواطن من كتبه ومنجزاته اللسانية إلى تعلم اللغات الأجنبية حتى يتمكنوا من امتلاك ناصية علم اللسانيات.

لقد كان سيبويه بفعل حذقه للغة العرب مكثرا في كتابه من الاحتجاج بلهجات العرب إلى جانب العربية الفصحى، وقد وظَّف فيه بعض المصطلحات الدالة على الفصاحة كلفظة الفصحاء، وقد وردت نكرة خمس مرات في الكتاب كله، في حين ذكرت معرفة ثلاث مرات،

[1]– سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تح: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، ط 1، د ب، 1439هـ– 2009م، ج: 5، 489.

[2]– محمد عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط 2، بيروت، د ت، ج: 1، 188.

أو كلفظتي فصِحٌ وأفصحُ اللتين قد وردتا مرة واحدة، في حين لم يرد مصطلح الفصاحة ولا الفصحى في الكتاب كله، فضلا عن الكثير من المصطلحات الدالة على الفصاحة، ككلمة جائز، وجيد وأجود، وشائع، وأصح وأحسن، وكثير ما هي في الكتاب، وقد كانت كلها أحكاما علمية موضوعية مؤسَّسة لا وجه للذاتية فيها، ثم هي دليل على اهتمام سيبويه البالغ بموضوع الفصحى واللهجات العربية.

ومما استدل به سيبويه من لهجات العرب مع علمه بنزولها عن مستوى اللغة الفصحى التي تمثل المستوى الأول في التقعيد والاستدلال بالنسبة إليه ولأهل العربية جميعا، وهي اللغة الرسمية للدولة، ولغةُ الدواوين وغيرِها[1]، قولُه:" وذو صباحٍ بمنزلة ذاتَ مرةٍ، تقول: سير عليه ذا صباحٍ، أَخبرَنا بذلك يونسُ عن العرب، إلا أنّه قد جاء في لغةٍ لخَثْعَم مفارقا لذاتِ مرةٍ وذاتِ ليلةٍ، وأَمّا الجيّدةُ العربيّة فأن تكون بمنزلتها"[2]، فقد بين في هذا المثال أن أهل اللغة قد يجوزون التنزل عن العربية الفصحى إلى ما دونها من الألسنة، متى ما علموا صحَّة الوجه الذي استدلوا به في لهجته، ولو خالف الوجه الأفصح والأشيع والأكثر اطرادا، فليس معنى قولنا: هذا الوجه أشيع أو أفصح أنه الوجه المتفرد في الاستدلال، بل إن الأقل فصاحة أيضا جائز في الاستعمال بنص أهل اللغة، وفي موضع آخر، في باب ما تضيف إليه ويكون مضافا قبل المضاف إليه، صرَّح سيبويه بعد أن أورد عددا من الأوجه واللغات في العربية في هذا الباب بأن جميع ما استدل به جائز في العربية فقال:" وجميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل رحمه الله ويونس عن العرب"[3]، فكيف كانت الكثرة في اللهجات جائزة عند سيبويه لولا إدراكه العميق لأهمية ازدواجية اللغات وتعددها.

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 30.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 226.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 213.

المبحث الثاني: تأملات سيبويه اللغوية في كتابه في ضوء أعمال عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الأول: التعليل النحوي عند سيبويه من وجهة عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الثاني: الأصل في الكلام والتوسع في الاستعمال عند سيبويه

المطلب الثالث: الأصالة والحداثة من منظور عبد الرحمان الحاج صالح ومقام كل منهما في ميزان اللسانيات والعلمية

المطلب الرابع: شهادات ومواقف اللغويين من كتاب سيبويه

المطلب الأول: التعليل النحوي عند سيبويه من وجهة عبد الرحمان الحاج صالح

يعد التعليل النحوي من أهمِّ ما انمازت به اللُّغة العربيَّة عن كثير من اللُّغات الطبيعيَّة، وهو أسلوب علميَّ يحكي رقَيَّ العقل العربيِّ ورجاحتَه، ويُظهِر عظمة اللُّغة العربيَّة وقوَّتها وجماليتها، ويثبت قابليتها وانسجامها مع معطيات العقل وتأملاته، وهو ملمح من ملامح استمراريتها وديمومتها، فقد امتزج فيها الفكر الإنسانيُّ العربيُّ الرَّاقي وتناغم مع الطَّبيعة العلميَّة للُّغة العربيَّة، فأثمر نتائج علمية رصينة ومبهرة جدًّا، تفيد بأن العلة النحوية سمة طبيعية وثيقة الصلة باللغة العربية، وأنها إلى ذلك نزعة فطرية متأصلة في الإنسان العربي، وتُفيد بأنَّ علم اللغة العربية لا يتحدَّد بمجرد النقول والسماعات العربية حتى وإن كانت جوفاء غير ممحصة ولا متثبَّتة.

كما توحي بأنَّ هذا العقل الذي حُبي به الإنسان لا يتعارض مع ما أورثَنَاه الله تعالى من هذا اللسان المبين ووعد بحفظه في كتابه ضمنا، فالعقل إذا هو آلة إصلاح اللغة والنحو، وهو الميزان الذي توزن به أساليبها وتراكيبها، وتعليلُ النَّحو هو أهمُّ ثمرات إعمال العقل العربي أو الفكر اللغوي العربي، فلا يمكن من هذا الاعتبار عَدُّ تعليل العقل لقضايا النحو العربي مجازفة أو ليّا لنصوص لغة القرآن الكريم، أو تحايلا من العلماء وتعسفا في إطلاق الأحكام، أو تبريرا وتمريرا لقواعدهم النحوية، وقد وجب أن يكون الطرد شرطا في العلة النحوية؛ لأنَّ العلة النحوية كالعلة العقلية، ولا خلاف في أن العلة العقلية لا تكون إلا مطردة، ولا يجوز أن يدخلها التخصيص فكذلك العلة النحوية[1].

ويُجمِع الباحثون على أن التعليل النحوي نشأ قرين وضع القواعد النحوية، أو قرين الاهتمام بالإعراب ومحاربة اللحن في تلاوة كتاب الله الذي يعد معينًا خصبًا لكثير من العلوم، فعلماء النحو اعتمدوا عليه في استنباط القواعد النحوية، وألفوا كتبًا في شتى ميادين اللغة، ولكنه كأيِّ علم آخر يبدأ عفويًّا مختلطًا بغيره إلى أن يتحدد منهجه وأدواته، ويستقلَّ عن غيره،

[1]– ينظر: جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو وجدله، 302.

فيصبحَ علمًا قائمًا بذاته، بل لقد بلغت عناية اللغويين العرب بأمر التعليل النحويّ حدَّ التوجيه اللغوي لكتاب الله تعالى، فظهر علم شرعي لغوي مستقل بذلك المنحى العلمي يُعنى بتعليل الظواهر اللغوية في القرآن الكريم وتفسيرها من جانب علم التراكيب، وذلك من خلال تصويبها لغويًّا على وفق المناهج النحوية المختلفة، يسمَّى التوجيه اللغوي للقراءات القرءانية، ومن ثمّ اختلفت تعليلات تلك الظواهر والقضايا اختلافا كثيرا، لاختلاف مناهج النحاة ومذاهبهم في توجيهها، واختلفت من جراء ذلك تفسيرات القرآن الكريم و فهوم العلماء له في شتى علوم الدين من فقه وعقيدة وتفسير وغيرها.

وظهرت أبحاث العلة النحوية أول أمرها على عهد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي واتخذت منهجا جديدا في التقعيد للظواهر النحوية عُرِف بالتعليل النحوي، حتَّى عُدّ" أوَّلَ من بعج النّحو ومدَّ القياس والعلل، وكان معه أبو عمرو بن العلاء وبقي بعده بقاء طويلا، وكان ابن أبى إسحاق أشدَّ تجريدا للْقِيَاس، وكان أبو عَمْرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها، وكان بلال بن أَبى بردة جمع بَينهما بالبصرة، وهو يومئذ وال عليها"[1]، فهي أدلة قائمة شاهدة على أن العلة النحوية صنعة عربية صرفة وعلى أن تاريخ العلة النحوية قديم قدم النحو العربيّ ذاته، وأنها أصل عظيم في التقعيد للغة العربية، لكن وجود المنهج الكوفي الذي يعد الفريق المناهض للمنهج البصري في التأسيس للغة أضعف العمل بالعلة النحوية عند الكوفيين وعند كل من أتى بعد تلك القرون حتى عهدينا الحديث والمعاصر.

وإضافة إلى ما تقدم في سياق أصل العلة النحوية ومرجعيتها الحقيقية يؤكد عبد الرحمان الحاج صالح بأنها عربية المنشأ لا يد للتقليد والتأثر فيها فيقول:" قد ادعى بعض الباحثين في زماننا أن مفهوم العلة عند النحويين هو مفهوم أخذه هؤلاء من أرسطو، وسنبين فيما يلي

[1]– محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، د ط، جدة، د ت، ج: 1، 14.

أن النحاة الأولين امتازوا حتى عن الفقهاء، كما رأينا بنظرة خاصة بهم فيما يخص استعمالهم للفظة العلة"[1].

ويجزم عبد الرحمان الحاج صالح في تفريقه بين علل النحويين وعلل الفقهاء كالشافعي وغيرهبأن سيبويه كان على علم تام بالعلة النحوية على ما هي عليه عند المتأخرين وفي اللسانيات الحديثة، إلا أنه على عكس الباحثين اللسانيين المحدثين لم يستعمل مصطلح العلة النحوية في كتابه، وإن كان بزعم الحاج صالح قد عبَّر عنه بمصطلح آخر قريب منه، يقول الأستاذ:" ولا يطلق سيبويه على هذا المفهوم العلمي الدقيق لفظة علة أبدا بل العلة هي دائما هي عند النحاة الأولين عامل اضطراب ومانع للاطراد في داخل الباب، (خروج بعض أفراده عنه) فهو شيء آخر تمامًا، وقد رأينا أن بعض المتكلمين في بداية القرن الثالث هم الذين استبدلوا ما كان في عبارة الشافعي في معناه بكلمة علة"[2].

وقد اتبع سيبويه في كتابه منهج أستاذه الخليل في تعليلاته النحوية، إلا أن ما ميز جهود سيبويه اللغوية أنه" طوَّر منهج شيخه وتوسَّع في استخدامه، ولكنه حافظ على أساس منهج الخليل في الاهتمام بجانب المعنى وأسرار اللغة، والعناية بتعليل القياس الشبيه بالشبيه وحمل النظير على النظير، والاعتماد على الذوق العربي كطلب الخفة والفرار من الثقل، والبعد عن الفرض والتخمين"[3].

ولا يكاد يُغفل سيبويهُ ظاهرة من ظواهر اللغة تناولها إلا علَّلها تعليلا نحويًّا، فكان تعليله تعليلا لغويا طبيعيا، وعقليا مناسبا مقايسا، حتى غدا كتابه أشبه بمنجز رياضي صرف، ولا عجب في ذلك فقد ورث عن أستاذه الخليل كل شيء فكيف بآلة قياس اللغة وقانونها، وهو ما يدعم رأي الحاج صالح ومزاعمه في اعتماد الخليل بن أحمد المنهج الرياضيَّ.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 330.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 328.

[3]– سناء علي حسين، مظاهر التعليل في كتاب سيبويه، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، العدد: 18، جامعة كربلاء، السنة الخامسة، صفر 1440هـ– تشرين الثاني 2018م، العراق، المجلد: 5، 37.

ولعل الباعث الأكبر على اعتماد سيبويه التعليل النحوي، هو انحسار رقعة الفصاحة، وذهاب عهد السماع الفصيح إلا في القليل النادر من بلاد العرب، لذلك توجه سيبويه إلى نوع جديد من أنواع تعليم الناسِ قواعد لغتهم هو منهج التعليل، وقد كان من قبل في بداية جمعه ينتهج منهج السماع والوصف كعلماء الكوفة، وقد علم سيبويه أنه لا يتحقق تعليم الناس إلا من خلال التعليل، لذلك عني به سيبويه وعلماء العربية في كتبهم عناية بالغة، خصوصا وهم في غمرة تعدد المناهج النحوية واختلافها، وظل التعليل النحوي الذي وضعه سيبويه والنحويون الأولون على ما كان عليه في زمنهم حتى بداية القرن الرابع تقريبا، ذلك بأنَّ" تأثر النحاة في القرن الثالث بأفكار المتكلمين (وبالمنطق اليوناني بعد ذلك) جعلهم يبتعدون عن تصور سيبويه والخليل للبحث العلمي النحوي، وحولوه إلى تصور متكلمي نهاية القرن الثاني الذين لم يكونوا نحويين ولا من تلاميذ الخليل، وهم الذين بنوا كل التفسير العلمي على مفهوم العلة والتعليل، وتركوا أو جهلوا على الأصح مفهوم التكافؤ في البنى والمجاري..."[1].

ومن أمثلة التعليل النحوي الكثيرة في الكتاب قول سيبويه في باب الأفعال التي تُستعمل وتُلغى:" وسألتُه عن أيُّهم، لِمَ لَمْ يقولوا: أَيَّهم مررتَ به؟ فقال: لأن أَيَّهم" هو" حرف الاستفهام، لا تَدخل عليه الألفُ، وإنما تُرِكَت الألف استغناءً فصارت بمنزلة الابتداء، ألا ترى أنّ حَدَّ الكلام أن تؤخِّر الفعل فتقولَ: أَيَّهم رأيتَ، كما تفعَلُ ذلك بالألف، فهي نفسُها بمنزلة الابتداء"[2]، ومن أمثلتها قولُه:" فإن قلت: أكل يوم زيدا تضربه، فهو نصب، كقولك: أزيدا تضربه كل يوم؛ لأن الظرف لا يفصل في قولك: ما اليوم زيد ذاهبا، وإن اليوم عمرا منطلق، فلا يحجز هاهنا كما لا يحجز ثمة، وتقول: أعبد الله أخوه تضربه، كما تقول: أأنت

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 329.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 118.

زيد ضربته؛ لأن الاسم هاهنا بمنزلة مبتدأ ليس قبله شيء؛ وإن نصبته على قولك: زيدا تضربه قلت: أزيدا أخاه تضربه؛ لأنك نصبت الذي من سببه بفعلٍ هذا تفسيره"[1].

ومن التعليل في الكتاب تعليلُ سيبويه نصْبَ بعض الأسماء التي أخذت من الأفعال على وصف سيبويه انتصاب الفعل، إذ قال:" عائذا بالله من شرها، كأنه رأى شيئا يُتَّقى فصار عند نفسه في حال استعاذة، حتى صار بمنزلة الذي رآه في حال قيام وقعود؛ لأنَّه يرى نفسه في تلك الحال، فقال:" عائذا بالله"، كأنه قال: أعوذ بالله عائذا بالله، ولكنه حذف الفعل؛ لأنه بدل من قوله: أعوذ بالله، فصار هذا يجرى ها هنا مجرى عياذا بالله. ومنهم من يقول: عائذ بالله من شر فلان"[2].

وعلى الرغم من أن سيبويه يميل في قضايا اللغة إلى التعليل النحوي ويتخذه مبدأ في كتابه، إلا أنَّه في كثير من الأحيان يلتزم الحياد العلمي أو التسليم في الأمور التي لا يملك فيها ترجيحا ولا اعتراضا، وهو دليل على أنَّ انتصاره لمسائل اللغة وتعليله لها لم يكن لمجرد التبرير والانتصار فحسب، فهو لا يعلل رغبة في التعليل، وإنما يعلل في المواطن التي يجدر فيها التعليل ويصح، وكثيرا ما نجده يستعمل عبارات تفيد الظنَّ والاحتمال في المواطن والمسائل التي لا يجزم فيها برأيه كقوله:" زعم الخليل أنَّهم يلحقون جمعه الهاء إلا قليلا، وكذلك وجدوا أكثره فيما زعم الخليل"[3].

وكثيرا ما كان سيبويه مع تعليله وتفسيره لآي الله تعالى في كتابه العزيز يؤثر التسليم في المسائل التي لا يملك فيها ترجيحا ولا يملك فيها أخذا ولا ردًّا، فيستعمل عبارة متأدِّبة على طريقة علماء التفسير من مثل:" وأمَّا قوله تعالى جدُّه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾ آ 19 س المرسلات و﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ آ 1 س المطففين فإنّه لا ينبغي أن تقول إنّه دعاءٌ هاهنا؛ لأنّ الكلام بذلك قبيح، واللفظ به قبيحٌ، ولكنَّ العبادَ إنَّما كُلِّموا بكلامهم، وجاء القرآنُ

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 105.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 341.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 620.

على لغتهم وعلى ما يَعنون، فكأَنَّه واللهُ أعلمُ قيل لهم: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾، ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٩ ﴾؛ أي هؤلاءِ ممن وجب هذا القولُ لهم؛ لأنَّ هذا الكلامَ إنّما يقال لصاحب الشر والهلكة، فقيل: هؤلاء ممن دخل في الشرّ والهلكة ووجَبَ لهم هذا"[1]، ثمَّ إنَّ التعسُّف في أمر اللغة العربية من خلال توجيهها وتعليلها تعليلا بعيدا لا يستقيم مع قواعد العربية ولهجاتها واستعمالاتها الفصيحة، ويكشف عن قبحه وفساده الاستعمالُ، وتمُجُّه الأنفس والأذواق السليمة.

ونصَّ ابن جني نفسُه من بعد سيبويه كغيره من علماء العربية دفاعًا عن مبدأ التعليل النحوي وردًّا على الطاعنين القادحين فيه على أنَّ التعليل النحوي سمة لازمة في العربية، وقد عقد بابًا في كتابه الخصائص سماه:" باب في أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها، وحملناه عليها" فقد رد التعليل النحوي إلى العرب، وجعله أصلا ثابتا عندهم، ليبين أن التعليل مأخوذ من العرب غير مبتدع في كتب النحويين، ومما قال فيه عند مستهله استماتة في التمسك بالتعليل النحوي في علم العربية:" اعلم أن هذا موضع في تثبيته وتمكينه منفعة ظاهرة وللنفس به مُسكة وعصمة؛ لأن فيه تصحيح ما ندعيه على العرب: من أنها أرادت كذا لكذا وفعلت كذا لكذا، وهو أحزم لها وأجمل بها وأدل على الحكمة المنسوبة إليها، من أن تكون تكلفت ما تكلفته: مشاقَّه من استمرارها على وتيرة واحدة وتقريها منهجًا واحدًا، تراعيه وتلاحظه وتتحمل لذلك مشاقَّه وكُلَفه وتعتذر من تقصير إن جرى وقتًا منها في شيء منه"[2].

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 331.

[2]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 239.

المطلب الثاني: الأصل في الكلام والتوسع في الاستعمال عند سيبويه

ميَّز سيبويه في كتابه بين نوعين اثنين من الاستعمال اللغوي في عند العرب، الأول هو: الاستعمال الفصيح، والثاني هو: الجائز في الاستعمال أو الأقل فصاحة، وقد سمَّى الأول:" الأصل في الكلام"، وسمَّى الثَّاني" التَّوسُّع في الكلام وفي اللَّهجات"، وذلك لما وجده عند أهل العربية من ميل إلى الاختصار وإلى التنويع في أساليبهم التعبيرية في كلامهم اليومي، وفي خطاباتهم المختلفة في شتى ميادينهم وشؤونهم، من نسك وعبادة ومن حروب وتجارة ومنافسات ومساجلات بالشعر ومراسلات مع حكام الأمم المجاورة، وقد كفلت لهم العربية ذلك فهي لغة طيعة سهلة غنية بالألفاظ والمدلولات، وقد" أدَّاهم السماع الطويل المستمر لكلام العرب إلى اكتشاف حقيقة علمية ذات أهمية كبيرة وهي: وجود كلام وهو المسموع من فم المتكلم كما ورد، ووجود ما يسميه سيبويه في مقابله بالأصل في الكلام"[1]، فذلك المسموع الوارد عن العربي هو المجاز أو التوسع، والثاني(الأصل) هو الكلام العفوي الحقيقي العادي، إلا أن عدول العرب أيضا عن الأصل في الكلام يحكمه النقل والقياس لا الاعتباط والعشوائية والتعسف.

وتناول كثير من العلماء وأهل التفسير قبل سيبويه موضوع الأصل في الكلام والتوسع فيه، وازداد اهتماهم به بعد ظهور الكتاب في زمن المبرد وأبي علي الفارسي وابن جني وابن السراج وغيرهم، حتى إن ابن جني لما تحدث في كتابه عن هذا الباب بين بأنه باب رحب يدخل فيه كلم العربية بأنواعه كلها (الحروف والأسماء والأفعال) فقال:" وذلك أن التصرف في الأصل وإن دعا إليه قياس – وهو الاتساع به في الأسماء والأفعال والحروف– فإن هناك من وجه آخر ناهيًا عنه وموحشًا منه، وهو أن في نقل الأصل إلى أصل آخر نحو صبر، وبصر، وصرب، وربص، صورة الإعلال"[2].

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب نظرية الوضع والاستعمال العربية، 8.

[2]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 65.

وبيَّن سيبويه بأنَّ مخالَفة الأصل في الاستعمال قد لا تستقيم دوما، وأن ضابطها من بعد كلام العرب ما وضعه اللغويون من أقيسة وأوزان، وعلى غرار ذلك فإنَّ العربية لسان مبين لا يقبل العي في الكلام والفساد في الأسلوب، فمهما حاول المتكلم الخروج عن منقولها ومسموعها، أو حاول مخالفة أقيستها فإن محاولته ومخالفته ستكون عبثا ولا طائل منها، إذ" ليس كل شيء يكثر في كلامهم يغيَّر عن الأصل؛ لأنه ليس بالقياس عندهم، فكرهوا ترك الأصل"[1].

ولأن العناية بمباحث اللغة وقضاياها سمة غالبة في الدراسات الشرعية على غرار الدراسات اللغوية؛ لأنها اللغة هي المحكِّم والميزان بالنسبة إليها، فقد عني بها علماء المسلمين أشد العناية، فكان موضوع الأصل في الكلام والاتساع فيه من أهم القضايا اللغوية التي عنوا بها، وفي شيء من هذا يقول سليمان بن خلف الأندلسي وقد بين بأن كلمة:" خلَّيتُك" من البعل قد تستخدم اتساعا بدلا من كلمة الطلاق المعروفة المشتقة من هذا المصدر، أو الفعل طلق، للدلالة على ما دلت عليه:" والفرق على هذا القول بينهما وبين حرام وبائن وبتة وبتلة وخلية وبرية، وإن كان المعنى واحدا إلا أن استعمال هذه الألفاظ في غير الطلاق وفي الطلقة الواحدة على ضرب من الاتساع في الكلام أكثر من استعمال الحرام، والبائن، والبرية، والخلية فيه، فإن هذه الألفاظ مع اقتضائها معنى الثلاث لا تكاد تستعمل إلا على هذا الوجه، وللاستعمال تأثير في تحقيق معاني الألفاظ كما له تأثير في اقتضاء الألفاظ غير ما وضعت له من المعاني، وهذا على المشهور من قول مالك"[2].

ويمثل سيبويه في عدة مواطن للتوسع في الكلام بشواهد قرآنية، يستدل بها للتفريق بين الأصل في الكلام والتوسع فيه، وعليها بنى قياسه في هذا الباب، وقد ساق الحاج صالح بعضَها للدلالة على ما دلَّ عليه سيبويه مما قصَدْنا إلى بيانه من أمر الأصل في الكلام والتوسع فيه في الكتاب، وهذا أحدها وهو قوله:" أما المعنى فله هو أيضا عوارض تعرض له

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 213.

[2]– سليمان بن خلف الأندلسي، المنتقى: (شرح الموطأ)، مطبعة السعادة، ط 1، مصر، 1332هـ، ج: 4، 12.

مع اللفظ، وذلك مثل ما في الآية الكريمة: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ آ 82 س يوسف، ... وبهذا يتضح أن النحاة العرب يميزون منذ أقدم العصور بين الأصل في الكلام وبين ما يعرض له من الألسنة في حالة التخاطب في اللفظ والمعنى؛ لأنه خطاب حاصل بالفعل وله أوصافه الخاصة به كخطابٍ، كالعوارض المذكورة، ويحصل ذلك لأسباب لا دخل للأصول فيها كالخفة التي تقتضيها كثرة الاستعمال"[1].

ويرى عبد الرحمان الحاج صالح في حديثه عن التوسع في هذه الآية بأن سيبويه لم يستخدم مصطلح المجاز في كتابه، وإنما كان يسمي المجاز توسعا في الكلام، وكلا الاصطلاحين بحسب الأستاذ يشتركان في مدلول واحد، على أن مصطلح المجاز لم يكن قد ظهر حتى ذلك العهد عند أي من علماء العربية، فكان أبو عبيدة أول من استخدمه، وكان معاصرا لسيبويه[2]، فالأصل في الكلام في الآية الكريمة وتقديره هو فاسأل أهل القرية التي كنا فيها، وليس المقصود أبنيتها وسهولها وسفوحها، " قال أبو جعفر: يقول: وإن كنتَ مُتَّهمًا لنا، لا تصدِّقُنا على ما نقول من أن ابنك سرق: فاسأل القرية التي كنا فيها وهي مصر، يقول: سل من فيها من أهلها، ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ آ 82 س يوسف، وهي القافلة التي كنا فيها، التي أقبلنا منها معها، عن خبر ابنك وحقيقة ما أخبرناك عنه من سَرَقِهِ، فإنَّك تُخبَر مِصداقَ ذلك"[3]، وقد تناول أهل البلاغة والمفسرون المضطلعون بعلم البلاغة هذا الباب وما أتى ضمنه مثل هذه الآية، وعُنوا بها وبمثيلاتها أبلغ عناية لما تضمنته من أغراض بيانية وبلاغية جمَّة.

ويعدُّ التوسع في الكلام أسلوبا لغويا هاما جدا في اللغات العالمية وهو في اللغة العربية أشهر وأشيع، ويقوم على التنويع في الأساليب اللغوية من خلال الانتقال من الاستعمال الأصلي إلى الجوازات الكلامية الممكنة، فكأن التعبير الأول: واجب تمليه قواعد اللغة

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب نظرية الوضع والاستعمال العربية، 8، بتصرف.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، 117.

[3]– محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، ج: 13، 290.

وقوانينُها وسماعها، والثاني: جائز يتيحه ثراء اللغة وتمليه أغراض الكلام ومقاصده، ويتيحه القياس، في دلالة على مرونة اللغة وعلى ثراءها الواسع في الاستعمال اللغوي بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي، وهو؛ أي التوسع في الكلام ظاهرة لغوية طبيعية قديمة جدا في اللسان العربي وفي الألسنة الأخرى، فالاستعمال الحقيقي هو الأصل والاستعمال المجازي هو التطور في الاستعمال للحاجات التعبيرية.

وقد وردت كلمة الأصل في الكتاب بهذا اللفظ أكثر من مائتي مرة، وقد جاء أغلبها على هذا المعنى، وهو ما يدل على اهتمام سيبويه البالغ بهذه الظاهرة اللغويَّة الهامَّة، وقد تحدث عن الدواعي والمواطن التي يجوز فيها التوسع في الكلام كالضرورات الشعرية التي تحتم على الشاعر الخروج عن الأصل، إمَّا من خلال استخدام ألفاظ أخرى غير الأصل أو التغيير في المبنى أو في الموقع الكلامي، فمنها قولُه:" ألا ترى أنَّهم يقولون: هل زيدٌ منطلقٌ، وهل زيدٌ في الدَّار، وكيف زيدٌ آخِذٌ، فإن قلت: هل زيداً رأيتَ وهل زيدٌ ذهب قَبُحَ ولم يجزْ إلاّ في الشعر؛ لأنّه لمّا اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل، فإن اضطُرَّ شاعرٌ فقدَّم الاسمَ نصب كما كنتَ فاعلاً ذلك بقد ونحوِها، وهو في هذه أحسنُ؛ لأنّهُ يبتدأُ بعدها الأسماءُ"[1]، فقد بين سيبويه في هذا المثال الوجه الكلاميَّ الصحيح عند العرب، وما يقابله من التراكيب المحتملة التي لا تصح، فكان هذا الأسلوب غاية في العلمية موافقا للمنهج الوصفي في اللسانيات الحديثة، فسبقُ الاسم زيدٌ للفعل رأيتَ وذهبَ في المثالين عيٌّ وفسادٌ في الكلام في العربية بخلاف غيرها من اللغات.

ومن التنويع في الكلام خروجا عن الأصل فيه بغرض الخفَّة:" وأما فعلٌ من جئت وقرأت، فإنك تقول فيه: جيأيٌ وقرأيٌ، وفعلٌ منهما: قرئٍ وجوئٍ، وفعلٌ: قرئٍ وجيءٍ، وإنما فعلت

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 99.

ذلك لالتقاء الهمزتين ولزومهما، وليس يكون ههنا قلبٌ كما كان في جاءٍ؛ لأنه ليس ههنا شيء أصله الواو ولا الياء فإذا جعلته طرفاً جعلته كياء قاضٍ، وإنما الأصل ههنا الهمز"[1].

وسمى سيبويه بابه في التوسع في الكلام على نهج القدامى تسمية مخالفة لاصطلاحات المحدثين مع ما فيها من بسط للكلام وشرح وبيان يبدأ من العنوان مباشرة، بطريقة مميزة تجعل المعنى مربوطا بطرفين اثنين بالباب وبالمضمون الذي يأتي بعده، ما يشعر الباحث والقارئ الحاضر بأن الباب امتداد لا انتهاء له، أو أن المتن كلام مسترسل متواصل لا باب له، – لولا قوله:" باب: كذا أو كذا"– وذلك كقوله:" باب استعمال الفعل في اللَّفظ لا في المعنى، لاتَّساعِهم في الكلام والإيجاز والاختصار، فمن ذلك أَنْ تقولَ على قول السائل: كَمْ صِيدَ عليه؟ وكَمْ غيرُ ظَرْفٍ لما ذكرت لك من الاتّساع والإيجاز، فتقول: صِيدَ عليه يومانِ، وإنَّما المعنى صِيدَ عليه الوحشُ في يومينِ، ولكنّه اتَّسع واختَصر، ولذلك أيضاً وَضَعَ السائلُ كَم غيرَ ظرفٍ"[2].

وتوسع علماء العربية في البحث في باب الأصل في الكلام ورعوه حق رعايته، فعلى غرار أهل البلاغة الذين عُنُوا بدراسة باب الأصل في الكلام وظاهرة التوسع فيه، وذلك على مستوى الجملة، فقد انتقلوا إلى البحث في أصل الكلمة المفردة، ودرسوا ما فيها من أسباب للتوسع والعدول عن الأصل في علم الصرف وفي علم التراكيب، فذكروا أنَّ من براعة العربية في التوسع في الكلام أو الخروج عن الأصل لأغراض لغوية حسنة كالخفة أن يُنقَص من بناء الكلمة الواحدة ما كان من أصلها غير زائد، لعوامل الإعراب وغيرها أو استخفافا في الكلام، فمما ذكروا من هذه القضية اللغوية أنَّ:" الأصل في قام قوَم وفي باع بيَع وفي طال طوُل وفي خاف ونام وهاب: خوف ونوم وهيب وفي شَدَّ شدَدَ وفي استقام استقوَم وفي يستعين يستعون وفي يستعد يستعدد، فهذا يوهم أن هذه الألفاظ وما كان نحوها – مما يَدَّعي أنَّ له أصلًا يخالف ظاهر لفظه– قد كان مرة يقال، حتى إنهم كانوا يقولون في موضع قام

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 378.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 211.

زيد: قوَم زيد، وكذلك نوِم جعفر، وطَوُلَ محمد، وشدَد أخوك يده، واستعدد الأمير لعدوه، وليس الأمر كذلك بل بضده"[1].

وأوضح الحاج صالح أن مخالفة الأصل والجنوح إلى الاتساع في الكلام لا يراد منه ترك اللفظ الأول لفساده، وإنما هو تحرٍّ وتلمس للفظ المناسب لذلك الموضع، فللفظ الأصلي مكانه ومقامه وللاتساع مكانه ومقامه أيضا، مع إمكان اختيار اللفظ الأصلي في الاستعمال، وقد مثَّل الحاج صالح لذلك بالفعل أكن، والفعل أك، فساوى بينهما في الفصاحة، لكنه قدَّر ورجح لكل منهما مناسبات ومظانا، وبيَّن ما يحسن استخدامه منهما في كل موطن[2].

المطلب الثالث: الأصالة والحداثة من منظور عبد الرحمان الحاج صالح ومقام كل منهما في ميزان اللسانيات والعلمية

الأصالة التي ينشدها الحاج صالح في كتبه ويدافع عنها ويدعو إليها، ونحن في ذلك منتحون لسمته مقتفون لأثره هي عراقة الشيء في مكانه وزمانه الحاضر، وتعلُّقه به على غير مثال أو مشابهة أو تقليد للماضين، هي خلوص الشيء وخلوه من التقليد، فليست الأصالة عنده على معنى القدم والتراث والمحافظة والتعلق والتقليد، هذه هي الفكرة الخاطئة على رأي الحاج صالح وهي التي يرمي إلى تصحيحها؛ لأنها توحي بالجمود والتوقف عن الإبداع، وإن كان من دعاة التوفيق بين التراث والحداثة، ولا تأتي الأصالة في رأي الحاج صالح في مقابل الحداثة ولا المعاصرة، وإنما هي كل منجز جديد أصيل في بابه على غير منوال أو تقليد للشيء ماضيًا كان أو حاضرًا، يستمدها الإنسان العالم أو الباحث من عند نفسه خالصة له من غير اعتماد على الماضين أو مشاكلة لهم، وقد كشف عن ماهيتها في قوله رحمه الله:" فالأصيل هو المبدع الذي يأتي بشيء جديد لم يُسبق إليه مهما كان الزمان

[1]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 257.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب نظرية الوضع والاستعمال العربية، 24.

الذي يعيش فيه، والأصالة في زماننا هذا وعلى هذا الأساس هي الامتناع عن تقليد الغربيين خاصة"[1].

وتتكشف قيمة الأصالة للباحثين في كل زمان ويبقى بريقُها، ويظل الأصيل مميزا مُهمًّا مَهما تقدم الزمن، ذلك و" إن مقدار الأثر الذي يكون للعالم أو لكتبه فيمن يأتي بعده من المؤلفين يدل على مدى الأصالة والقوة العلمية له، وأنه أصبح إمامًا في الفن الذي ترك فيه ذلك الأثر"[2]، فكم من عالم قد خلت من بعده قرون من الزمن وظل علمه وعمله أصيلا في بابه، فهذا سيبويه وحيد الناس في صنعته النحوية في زمانه وإلى يوم الناس هذا، وذاك البخاري رئيس المصنفين في علم الحديث من قبل ومن بعد، ومهما بلغ اللاحقون من العلم يظل الأصيل أصيلا ولو أحدثوا فيه أو استحدثوا ألف منهج، أو قاعدة أو نتيجة.

ولعِظم قيمة المنجزات اللسانية العربية بالنسبة للسانيات العالمية ولأهميتها البالغة لم يتوان المستشرقون ودعاة التغريب عن سَوق تهم التأثر للنحو العربي زمن نشأته من أجل القدح في أصالته العربية، وذلك من خلال نسبة تلك المنجزات والجهود إلى الغرب، وهم لا يقصدون بها مجرد التأثر الطبيعي الناتج بفعل الاحتكاك والتعارف بين الشعوب والقبائل، والذي يُجيزُه العلم ويَعدُّه أمرا ضروريا ومحمودا، بل إنهم يهدفون بإثارة هذه الشبه إلى نفي الأصالة عن النحو العربي، ونفي الهوية العربية والإسلامية بالجملة عنه، وإن من واجبنا أن نراهن وندافع عن هذه الأصالة المستمدة من جهود لغوبينا الماضين وأبحاثهم في القرءان الكريم وفي السنة النبوية وفي كلام العرب.

لقد درج الحاج صالح على الدفاع عن الأصالة في أبحاثه حتى بلغ في ذلك غاية جهده، وكرس لها حياته حتى بلغ من العمر منتهاه، وقد استفاض بالحاج صالح الحديثُ في

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، 11.

[2]– محمد بن علي الواحدي، التَّفْسِيرُ البسيط، تح: رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي، ط 1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1430هـ، ج: 1، 347.

موضوع الأصالة، وخصها في كتبه بأجزء كبيرة من أجل حسن بيانها، ولئن كان قد اعترف للسُّريان بالسبق إلى ابتكار نقط الإعجام وهو الذي يميز الحروف عن بعضها البعض، بمعنى أنه يميز الدال من الذال، والراء من الزاي، وكذا الجيم من الحاء ومن الخاء مثلا، فإنه قد اعترف للعرب بالأصالة في نقط الإعراب، وعده سبقا علميا عربيا خالصا لا ينازَع فيه أهل العربية أبدا، ولا خلاف في أن نقط الإعراب أخطر وأهم من نقط الإعجام، فأكد بأن قَدَم السبق في هذا الباب النحوي العظيم القدر والأهمية للعرب على جميع الأمم، يقول الحاج صالح:" وعندما اخترع العرب نظاما كاملا من النقط لجميع الحركات والتنوين والهمزة وغير ذلك، استعار منهم السريان فكرة تخصيص النقط للحركات ولمجموعها، لا للفصل بين الكلمات المتحدة الصورة فقط، فخصصوا لحركاتهم السبع علامات بالنقط"[1]، بل إنه أثبت فيما أردفه بعدُ بأن السريان هم الذين تأثروا بالعرب فأخذوا عنهم نقط الإعراب، فكان هذا البحث العلمي المؤسس للعلامة اللساني من أدلة اهتمامه البالغ بأمر الأصالة في الكتاب وفي كتب العربية عامة.

وإذا كان الإمام السيوطي رحمه الله قد تفطن في ذلك الزمن البعيد إلى شُبه الطاعنين الحاقدين على العربية فقال:" وزعم ناسٌ يُتَوَقَّفُ عن قبول أخبارهم أن الفلاسفة قد كان لهم إعرابٌ ومؤلفاتُ نحوٍ، وهو كلامٌ لا يُعَرَّج على مثله، وإنما تشبَّه القوم آنفا بأهل الإسلام، فأخذوا من كتب علمائنا وغيَّروا بعضَ ألفاظها ونسبُوا ذلك إلى قومٍ ذوي أسماء مُنكرة، بتراجم بَشِعة، لا يكاد لسانُ ذي دينٍ ينطق بها، وادَّعَوا مع ذلك أن للقوم شعرًا وقد قرأناه فوجدناه قليل المآثر والحلاوة غير مستقيم الوَزْن، بلى الشعرُ شعرُ العرب وديوانُهم وحافظُ مآثرهم ومقيِّد حسابهم"[2]، فكيف بنا نحن اليوم مع أنصار ديسوسير الذين تحزبوا لنفي الأصالة عن العربية بدعاوى التأثر تارة ثم بتيسير العربية وتعليم العامية لتشابه النحو الغربي تارة أخرى.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 22.

[2]– جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج: 2، 259.

وإن الناظر إلى العروض في العربية وهي التي تعد" ميزان الشِّعر، وبها يُعرف صحيحه من سقيمه، ومَن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يُرْبي على جميع ما يتبجَّحُ به هؤلاء الذين يَنتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التِي لا أعرف لها فائدة غير أنها مع قلة فائدتها تُرِقّ الدّين، وتنتج كل مَا نعوذ بالله منه"[1]، – يقصد بذلك الفلسفة–، لَيجدها علما عربيا أصيلا خالصا، من وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي على غير منوال سابق، ولا سبيل لإنكار هذه الأصالة عن الفراهيدي ولا حجية في ذلك، ولا تقل منزلة علم المعاجم عند الخليل وعلماء العربية عن منزلة علم العروض أو عن سائر العلوم اللغوية الأخرى، وإبداعُ العرب في هذا المجال عظيم لا يضاهى، و" لا تُعرف أمَّة من الأمم في تاريخها القديم أو الحديث قد تفننت في أشكال معاجمها، وفي طرق تبويبها وترتيبها كما فعل العرب"[2].

كذلك مما يحسب للعرب عربيا أصيلا خالصا نابعا من القرءان الكريم" علمُ الأصواتِ اللغويَّةِ الذي أدهش علماءَ الغرب في الدراسات الألسنية المعاصرة، وذهب بألبابهم، لذلك كان لزاما على دارس العربية أن يطلع على علم التجويد ولا يغني الاطلاع العابر اليسير الباحث في علم الأصوات حتى يلم بعلم التجويد دراية وتطبيقا ويتقنه، وإذا كان علم التجويد علما لدنيا وقفيا، فإن لعلماء العربية اجتهادات لغوية عجيبة في علم الأصوات حتى إن مقدمة " العين" على إيجازها، أول مادة في علم الأصوات دلت على أصالة علم الخليل وأنه صاحب هذا العلم ورائده الأول، في هذه المقدمة بواكيرُ معلوماتٍ صوتيةٍ لم يدركها العلم فيما خلا العربيةَ من اللغات إلا بعد قرون عدَّة من عصر الخليل"[3]، ولا يخفى دور أبي الأسود الدؤلي في ابتكار نقط الإعراب في الكتابة العربية فكان ذلك عملا أصيلا لم يسبقه إليه أحد قط، أما ابن جني فإن له الفضل في تأسيس علم الأصوات بأكمله كعلم مستقل

[1]– أحمد بن فارس، مرجع سابق، 43.

[2]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، 175.

[3]– ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج: 1، 10.

بنفسه عن علوم العربية، وكتابه سر صناعة الإعراب يعد مدرسة كاملة الأركان في هذا العلم.

المطلب الرابع: شهادات ومواقف اللغويين من كتاب سيبويه

مَثَّل كتاب سيبويه النبع الصافيَ لعلماء العربية على مَرّ الأزمان، ولمَّا عَلِموا فضله تيمّموه فجعلوه المصدر الأول والأساس لبحوثهم، فكانت لهم فيه غُنية وكفاية؛ لأنَّه حوى مسائل العربية كلَّها، وفصَّلها بأوسع بيان وأفضلِه، وعلى الرغم من أن ظهور الكتاب وخروجه للناس لم يتحقق إلا بعد وفاة سيبويه إلا أن ذلك لم يكن مبعثا للشك في نسبته لسيبويه، فلم يختلف موقف أحد من العلماء عن هذا الرأي بعد سيبويه، مع أنهم اختلفوا في نسبة العين للخليل اختلافا كبيرًا، ولما علم يونس بن حبيب بظهور كتاب سيبويه أوعز بإحضاره إليه فلما جيء به نظر فيه وفتش فلم يجد فيه افتراء من سيبويه عليه أو تحريفًا، فعلم أنه لسيبويه حقًا وأن كل ما فيه حق كذلك وصِدقٌ، فأقرَّ بنسبته لسيبويه وبصحة ما فيه[1].

1/ موقف علماء العرب القدامى من كتاب سيبويه:

لم يك سفر سيبويه بالنسبة لعلماء العربية الأولين سفرًا عاديا كغيره من المؤلفات اللغوية الأخرى، بل لقد كان عندهم بمثابة المؤلّف الإمام والجامع، فكان ذلك باعثا للإعجاب وملهمًا لهم، حتى لقد انبرَوا من بعده يتدارسونه ويتعلمون منه أحكام العربية وقواعدها، وعكفوا على حفظه فكانوا يحفظونه بالسند المتصل إلى سيبويه حتى عهود الأندلس الآخرة كما مر، وهم من آدابهاهم في العلم بلغة العرب و؟ فكان شأن الكتاب في ذلك كشأن كتب العلوم والنقول المسنَدة الأخرى، فنال كتاب سيبويه بذلك شرفا معنويًا وعلميًّا آخر يضاف إلى قيمة الكتاب العلمية الباقية.

[1]– ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج: 2، 229م.

ومما يُظهر مزية كتاب سيبويه وجليل قدره ومنزلته أيضا أن جميع البحوث والدراسات اللغوية التي جاءت من بعده قامت كلُّها على ما جاء به، وتناولت أبواب العربية التي جمعها سيبويه، فلم تخرج عنها أو تضِف حتى عصرنا الحاضر.

وعدَّ علماء العربية السابقون كتاب سيبويه أفضل منتج لغوي في العربية وأكمله، وكان من عجيب أمر الكتاب أنه أصبح بعد خروجه للناس محل إعجاب واهتمام وعناية من خصوم سيبويه وأعدائه ومن أصفيائه وخلانه على السواء، فكانوا كلهم يتنافسون في قراءته والعلم بمواضيعه، فهذا الكسائي يتزلف إلى المبرِّد من بعد سيبويه ويتودَّد ليعلمه كتاب سيبويه، وهو ألد خصومه في مسائل اللغة ومع أن هذا الاهتمام ليس بغريب على عالم عظيم كالكسائي اللغوي والقارئ، فقد قرأ من قبل على الخليل وتعلم منه كثيرًا من أحكام اللغة وقواعدها، إلا أنه لم يلبث أن خرج عليه وخالفه، وأقام مدرسة جديدة ومنهجا مخالفا لمنهج البصرة التي كان يَعرِف لها فضلها ويَعدُّها المُمَثِّل الأَول والوحيد للغة العربية، وجلُّ علمائها عَلَّم الكسائي أو أقرأه.

ويتجلى موقف القدامى من كتاب سيبويه في أعمالهم العلمية التي أقاموها لأجله، فهي بين شروح واستدراكات وتعقيبات، ولا تعدوا في مجملها أن تكون إسهاما في خدمته وفي إفهام الناس رسالة سيبويه ونفعِهِم بها، ومن بين تلك الدراسات القديمة للكتاب على غرار العناوين والمواضيع الكثيرة التي عرضت لها أكثر كتب اللغة بعد سيبويه: شرح أبيات سيبويه للسيرافي، وكذا كتاب أبي علي الفارسي:" التعليقة على كتاب سيبويه"، وهو كتاب نحوي هام شرح فيه صاحبه مختلِف مسائل اللغة التي جمعها سيبويه في كتابه، وعرض فيها للمذاهب اللغوية التي خالفت سيبويه، وقد أظهر فيه تأييده لآراء سيبويه ومواقفه وأفكاره اللغوية في كثير من القضايا اللغوية الهامة، ومن استدلالاته بآراء سيبويه ما جاء في حديثه عن الكلمات التي تدخل على الأفعال، وقد أبدى فيها موافقته لسيبويه حين قال:" فإن قال قائل: كيف جاز دخول (قَلَّ) على الفعل على مذهب سيبويه وهو فعل، والفعل لا يدخل على

الفعل ولا معنى له فيه، قيل له: جاز ذلك لمضارعة هذا الفعل حرف النفي، ويدلك على مضارعته له قولك: قَلَّ رجل يقولُ ذاك إلا زيدٌ"[1].

ولم يمنعه تأييدُه لسيبويه من معارضته وخلافه له في بعض المسائل اللغوية كخلافه له في ما إذا كانت طائفة من الأحرف أحرف إعراب أم لا؟، وذلك نحوُ:" إن"، فقد نفى سيبويه عنها أن تكون أحرف إعراب وخالفه الفارسي فقال:" قوله: إنه ليس بحرف إعراب فليس بصحيح؛ لأن الدّلالة على أنَّها حروفُ إعرابٍ قائمةٌ، وأنها نهاية الاسم ومُنْقَضاهُ وما يتم به، فهو في ذلك كالتاء في طلْحَةَ، والياءِ في تميميٌّ، ونحوُ ذلك"[2]، ومثلُ قوله:" قال أبو علي: قرأت بخطِّ أبي إسحاق: غَلِطَ سيبويه في شرح هذه المسألة غلطة من حيث غَلَّطَه أبو العباس"، ونحوُ قوله:" وقد يحتمل غير ما أوّله سيبويه"[3]، ومثل هذه الخلافات النحوية لا تنقص من قدر الكتاب وصاحبه ولو كان الخطأ فيها من جهة سيبويه، ثم إنها مسائل اجتهادية، والحكم فيها ظني لتعدد التوجيهات وكثرة التقديرات النحوية.

واتخذ علماء الشريعة أيضا الكتاب حجة وإماما في الاستدلال والاستشهاد اللغويين في مختلف أبحاثهم، فكانوا منذ سفر سيبويه في اللغة لا ينفكون يستأنسون به ويُعملونه في بيان مسائلهم، فتراهم يستشهدون به في علوم الدين قاطبة، في التجويد مستلهمين آراء سيبويه في الصوتيات اللغوية العربية، وفي التفسير في توجيه مشكل القرءان الكريم وغريبه، فكذلك كان ابن عباس يفسر القرآن الكريم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يعلم أن هذه الدرجة أو المرتبة من التفسير هي الثالثة من حيث أفضلية التفسير وقيمته بعد القرآن الكريم والحديث

[1]– أبو علي الحسن الفارسي، التعليقة على كتاب سيبويه، تح: عوض بن حمد القوزي، د د، ط 1، السعودية، 1410هـ–1990م، ج: 1، 55.

[2]– أبو علي الحسن الفارسي، المرجع نفسه، ج: 1، 27.

[3]– أبو علي الحسن الفارسي، المرجع السابق، ج: 1، 145.

النبوي الشريف[1]، ولا يخفى ما للأغراض البلاغية المختلفة من أثر بارز في تنويع مقاصد الكلام في القرءان الكريم وغيره.

وأما ابن جني فقد بلغ به تأييده وموافقتُه لسيبويه أنه صار يمثِّل صورته مع أستاذه أبي علي بصورة سيبويه مع الخليل، وقد كان مكثرا من الاستدلال لسيبويه، وكان ينتصر له وينصفه، وينكر على المخالفين له في كثير من القضايا كقضية مفهوم الكلام والقول وما بينهما من فروق، حتى قال منكرا عليهم مخالفتهم له:" والعجب ذهابهم عن نصِّ سيبويه فيه، وفصلِه بين الكلام والقول، ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها"[2].

وجاء عن السكاكي في مفتاح العلوم وقد دعاه مجرد الحديث عن موضوع لغوي قوله عَرَضا:" أو تكون في حديث قد تم ومعك حديث آخر بعيد التعلق به، تريد أن تذكره فتورده في الذكر مفصولا، مثل ما تقول: كتاب سيبويه رحمه الله، والله كتاب لا نظير له في فنه، ولا غنى لامرئ في أنواع العلوم عنه، لا سيما في الإسلامية، فإنه فيها أساس، وأي أساس، إن الذين رضوا بالجهل لا يدرون ما العلوم وما أساس العلوم"[3]، فكيف لو قصد إلى تزكيته وبيان فضله وعلمه رحمه الله.

2/ موقف علماء اللسانيات المحدثين من كتاب سيبويه:

ما من شيء أدل على عُجب الحاج صالح وفخاره بعلم سيبويه اللغوي من تكريسه لمعظم جهوده في دراسة علم الخليل صراحة بحديثه عن منجزاته اللغوية العظيمة، وضمنا بحديثه عن سيبويه وعلمه ونظرياته في الكتاب، ومن أجمل ما أجمله الحاج صالح في وصفه سيبويه قوله فيه مادحا مبجلا مزكيا:" ثم إن ما تطرق إليه أحد هؤلاء النحاة المبدعين وهو

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 7.

[2]– عثمان بن جني، الخصائص، ج: 1، 33.

[3]– يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت – لبنان، 1407هـ– 1987م، 270.

سيبويه في كتابه، وهو أقدم ما وصل إلينا من كتبهم وأوفاها، وبالتالي يحتوي على ما عالجه أصحابه وأتباعه، هو أساسا الجانب النحوي الصرفي الصوتي للغة[1]".

وأثنى عليه في موضع آخر ثناء عاطرا فقال:" فلولا كتاب سيبويه لما كنَّا نستطيع أن نَعرف إلى أيّ درجة من العمق العلمي بلغت هذه الأفكار، وذلك لغزارة ما يحتوي عليه الكتاب من المعلومات، وكذلك ما وصل إلينا من الشروح الضخمة للكتاب"[2].

وهذا عالم آخر من أساطين اللسانيات الحديثة وأعمدتها في الجزائر وفي العالم العربي وزميلُه الأستاذ عبد الجليل مرتاض يقول فيه مكْبرا له عظيم صنعته اللغوية، يقول في سفره العظيم:" كتاب سيبويه كتاب علمي جامع مانع وُجد بعدما وصل علم النحو العربي" النحو العلمي" إلى قمَّته الشَّمَّاء، وأصبحت فيه الأوجه والمذاهب والترجيحات والقياس والكثرة والقلة والقبول والرفض... وهي أمور لا تتم إلا عن مدى ما وصل إليه النحو من تطور وتفلسف وتقعيد وتحديد"[3].

ومما يروق كثيرا ويعجب في هذا المقام ثناء عميد اللسانيات العربية المعاصرة شوقي ضيف على كتاب سيبويه في تقدمة لأحد الرسائل الجامعية العليا مبرزًا له قيمته العلمية وأهميته البالغة للعربية وللدارسين لها حين أثبت أنه مؤلَّف علمي هام وأنَّ العلماء من بعد سيبويه اتخذوه إمامًا جامعا في العربية و:" أطلَقوا عليه جميعًا اسم" الكتاب" عنوانًا يتفرد به دون غيره من الكتب التي عاصرته أو أُلِّفت بعده، لِما امتاز به من كمالٍ في وضْع أصولِ الصَّرف والنحو وضعًا نهائيًّا، بحيث لم يترك فيهما للعصور التالية شيئًا تضيفُه إلا بعضَ التَّفريقات والزوائد الطفيفة"[4]، فكأنّي بهذا السفر الجليل الكتابَ الأوحدَ في العربية،

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 8.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 45.

[3]– عبد الجليل مرتاض، مرجع سابق، 109.

[4]– خديجة عبد الرزاق الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، 11.

لاختصاصه بهذا الاسم، وتسميتِه مخصصا بهذا العنوان" الكتاب"؛ لأنه بالفعل قد علا كتب اللغة قاطبة وفاقها منزلة وقدرا.

وقال فيه مشيدًا مجلا له وقد تحدث عن أستاذه الخليل ابتداء:" وخلفه على تراثه تلميذه سيبويه الذي تَمثَّل آراءَه النحويةَ تمثُّلا غريبا رائعا، نافذا منها إلى ما لا يكاد يحصى من الآراء، فإذا هو يسوي من ذلك" الكتاب" آيته الكبرى، وقد بلغ من إعجاب الأسلاف به أن سموه" قرآن النحو" وكأنما أحسوا فيه ضربا من الإعجاز، لا لتسجيله فيه أصول النحو وقواعده تسجيلا تاما فحسب، بل أيضا؛ لأنه لم يكد يترك ظاهرة من ظواهر التعبير العربي إلا أتقنها، فقها وعلما وتحليلا"[1].

وقد بلغ عجب إبراهيم أنيس من هذا المؤلف الجليل القدر مبلغ الإشادة حتى قال:" ومهما تباينت الآراء في نشأة هذا الإعراب فقد أصبحت قواعده حقيقة ملموسة منذ ألَّف سيبويه كتابه الذي لا يزال حتى الآن عمدة النحاة وإمامهم، جمعت فيه أصولُ الإعراب ونظامُه في صورة مفصَّلة كل التفصيل، دقيقة كل الدِّقَّة، ولا تَعرف لغة من لغات البشريَّة مثل هذه الدِّقَّة والاطِّراد في ظاهرة من ظواهرها"[2].

وإذا نظرنا إلى مواقف الغرب من كتاب سيبويه ومن سائر أبحاث المسلمين ومنجزاتهم العلمية فإننا نجدها بالجملة مصدر إلهام وإعجاب، ومصدر استمداد ضروري لهم في الآن ذاته، وقد أبدى فون كريمر عظيم امتنانه وإعجابه بإنجازات المسلمين وبسبقهم وإبداعهم فقال مشيدا منوها:" إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جليا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يُبدون نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحِظون ويمحِّصون، وحين يَجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية

[1]– شوقي ضيف، مرجع سابق، 198.

[2]– إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 198.

والتقليد، ولذلك فإنَّ أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيرا عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف[1]".

ولقد بلغ من أمر كتاب سيبويه وأعاجيبه أن الغرب على غرار العرب قد تناقلوه منذ بداية العصر الحديث بالترجمة لعظيم فضله فدرسوا ما فيه، وانبهروا به وأعجبوا فعظم في أنفسهم، حتى لقد اعترف رائد المدرسة التحويلية نفسه وزعيمها تشومسكي بأنه تعلم اللغة العربية في المستوى الدراسي الأول في جامعة بنسلفانيا، وأكد بأن النحو العربي كان ملهمًا له وبأنه كان نموذجا لغويا فريدا، وأنه مما أمكنه من بلوغ العديد من النجاحات العلمية في مساره العلمي، فكان كتاب سيبويه المرجع العلمي الأول للعديد من المستشرقين والعلماء اللسانيين الغربيين على غرار تشومسكي زعيم المدرسة التوليدية التحويلية.

[1]– فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة: أنيس فريحة، دار الثقافة، د ط، بيروت– لبنان، 1961م، 15.

المبحث الثالث: أهمية منجزات سيبويه والحاج صالح اللغوية ومصادر استمدادها المعرفي

المطلب الأول: آثار سيبويه والحاج صالح اللسانية وقيمتها العلمية

المطلب الثاني: المرجعية اللغوية عند سيبويه ومصادر استدلاله في نظر عبد الرحمان الحاج صالح

المطلب الثالث: الانتماء المرجعي لأعمال عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

المطلب الرابع: أثر التفكير اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح على منحى الدراسات اللسانية العربية الحاضرة

المطلب الأول: آثار سيبويه والحاج صالح اللسانية وقيمتها العلمية

أ/ مكانة سيبويه العلمية ومنهجه في كتابه:

1/ مكانته العلمية:

إنَّ قصر جهود سيبويه في علم اللغة على علم التراكيب فحسب غمط لحقه وحط لقدْره؛ لأن كتابه كان بمثابة موسوعة لغوية شاملة لعلوم العربية كلها نحوا وأصواتا وصرفا ودلالة ومعجما، ففي علم المعاجم مثلا نجد لسيبويه كثيرا من الشروحات والتفسيرات الدقيقة للكثير من المفردات اللغوية والظواهر اللهجية" فإنَّ بناة المعجم العربي هم في الحقيقة جميع أولئك العلماء الذين كتبوا وألّفوا في ناحية من نواحي اللغة، أو ساعدوا غيرهم في ذلك بالنقل أو بالرواية أو بالتحشية أو بالتعليق، أو بشرح بعض المسائل اللغوية أو بالاستدراك على من سبقهم من المؤلفين"[1].

ولعناية سيبويه البالغة بالنحو وتقديمه وتبجيله في الكتاب وفق منهج وصفي موضوعي رصين عُدَّ مؤلِّفُه الكتابَ الأوَّلَ في النَّحو حتَّى قال الحاج صالح منوها بفضله وقيمته في اللغة العربية:" وأحسن مثال للدراسة العلمية للغة العربية هو كتاب سيبويه بما يحتوي عليه من تحليلات علمية بحتة وتفاسير لا تصلح لإكساب الملكة اللغوية، بل لا بد أن يبحث العلماء المختصون من جهة أخرى عن الطريقة الناجعة لاستثمار ما أثبته من البنى والمجاري اللغوية"[2]، وأما سيبويه فقد وصفه قوم من النحاة بأنَّه كان أعلم المتقدِّمين والمتأخِّرين بالنَّحو، وسمي إمام النحاة" وكتابه" قرآن النحو"، وقد جمع لهجات العرب الواسعة الفسيحة فكان له الفضل العظيم في إحياء اللغة العربية وحِفظِها، فقد" تكلّم بألسنة كل القبائل وحوى حَسنَه كلُّ قائل، وتدفقت شعوبه بالمسائل، وذهبت أيامه كلُّها مذهب الأصائل، فمذهبه هو اليوم الجاد، والمهيع والطريق المتبع، وعليه المنهج المسلوك، ولديه ما يؤخذ وما

[1]– عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، مكتبة لبنان ناشرون، ط 2، لبنان، 1414هـ– 1994م، 36.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 11.

سواه متروك، وكان حيان يقول: لا يقاس في هذا العلم رجل بسيبويه"[1]، وكان شيخه الخليل يحتفي به ويرحب إذا أتى ويدنيه منه ويقول له كلام إطراء وتبجيل لا يقوله لغيره.

ويعد كتاب سيبويه أعظم منجز لغوي عرفه العرب، بل هو أعظم منجز لغوي في الدنيا بأسرها من حيث حسن الصنعة وبديع التأليف وتمامه مع السبق، وذلك باعتراف كثير من الباحثين على غرار الحاج صالح كما تقدم وتردد كثيرا، فقد سبق سبقا بعيدا لم يتسن لأحد من العلماء في أي لغة من لغات العالم بلوغه، حتى سمي " قرآن النحو" و" كان يقال بالبصرة:" قرأ فلان الكتاب" فيُعلم أنه كتاب سيبويه، و" قرأ نصف الكتاب"، فلا يُشَكّ أنه كتاب سيبويه، وكان أبو العباس المبرد إذا أراد مُريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه، يقول له: هل ركبت البحر! تعظيماً لكتاب سيبويه واستصعاباً لما فيه"[2] حتى شبهه بالبحر لشساعته وصعوبته، فهذه هي أل العهدية، ومثل ذلك قول القائل: زرت المدينة، فلا يُصرف التفكير إلى غير مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومثله إذا قال: قال الرسول أو صليت على النبي، أو نحوَ ذلك.

قال صاعد بن أحمد الجياني الأندلسي في كتابه:" لا أعرف كتابا ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها، اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك غير ثلاثة كتب، أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني كتاب أرسطو طاليس في علم المنطق، والثالث كتاب سيبويه البصري والنحوي، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له[3]"، وذكره الجاحظ يوما فقال:" لم يَكتب الناس كتابا في النحو مثله، وجميع ما كتب الناس عيال عليه"[4].

---

[1]– ينظر: أحمد بن يحيى شهاب الدين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، ط 1، أبو ظبي، 1423هـ، ج: 7، 85.

[2]– عبد الرحمان محمد أبو البركات الأنباري، مرجع سابق، 55.

[3]– شهاب الدين ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج: 5، 2124.

[4]– شمس الدين أحمد بن خلكان، مرجع سابق، ج: 7، 49.

2/ منهج سيبويه في كتابه:

امتاز كتاب سيبويه بمنهج متفرد عن غيره من الكتب اللغوية والعلمية شكلًا ومضمونًا، إذ إنّه كان على غير العادة في مناهج البحوث والكتب العلمية خاليًا من المقدمة ومن الخاتمة[1]، وعلى الرغم من ذلك فقد" أثار إعجاب الناس بكتابه وظفر بتقديرهم، لم يبدأه بخطبة يكشف فيها عن جهوده، وإنما بدأه بالبسملة ثم دخل إلى الموضوع، وكذلك فعل المبرد في المقتضب"[2]، وإن كان منهج الإمام البخاري رحمه الله شبيها بمنهج سيبويه في خلوّه من مقدمة يصدر بها كتابه، ولعل ذلك أن يكون راجعًا إلى ورعهما من مخالفة الله تعالى في صريح نهيه في مستهل سورة الحجرات عن التقدمة والتصدير بين يدي كتابه سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في قراءةٍ أو تأليفٍ أو مدارسةٍ بكلام آخر غيرِ كلام الله عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، إذ قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ آ 1 س الحجرات.

والكتاب مقسم إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة بابٍ[3]، ولم يعتمد سيبويه في عرض أبواب كتابه على الطريقة الحديثة التي تقوم على الترتيب والفصل بين الأبواب أو الفصول اللغوية، بل اعتمد المزج بين الأبواب اللغوية بعضها ببعض، فكان يتناول في الموضوع اللغوي الواحد كمواضيع المستوى التركيبي مثلا جوانب لغوية أخرى غير نحوية، وهكذا يفعل في كثير من الأبواب فيُلمُّ بها فيه إلماما، وكان كثيرا ما يورد بابا للنحو ثم يُتبِعه بباب للصرف ثم بآخر للأصوات، فكان ذلك ساريا في غالب كتابه.

وقد انتهج في تأليفه لكتابه طريقتين اثنتين هما:" طريقة الاستملاء العادية، وطريقة السؤال والاستفسار، وكان يكتب كل إجابة وكل شاهد يرويه عن العرب، وبذلك احتفظ بكل نظراته

[1]– ينظر: أحمد أحمد بدوي، سيبويه حياته وكتابه، هنداوي، د ط، القاهرة– مصر، 2017م، 28.

[2]– محمد عبد الخالق عضيمة، مرجع سابق، ج: 1، 14.

[3]– ينظر: أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، 28.

النحوية والصرفية"[1]، " وبديهي ألّا يَرتكز تخطيط الكتاب إلى نهج منطقي يلتزم ذكر كل مسائل الباب الواحد معا سلسلة متصلة متتابعة، بل إن ذكر بعضها في موضع وبعضها الآخر في موضع ثان بعد أن يَفصل بينهما في كثير من الأحيان بأبواب أخرى أدعى إلى بحث عميق؛ لاستكشاف أسس هذا المنهج الإجرائي ومحاولة تفسيره"[2]، وامتاز أسلوب سيبويه بطابع علمي متميز، ظهرت فيه شخصية سيبويه عالما حاذقا متفرسا، فكان يُورد المسألة اللغوية في كتابه ويتناولها بالشروح الوافية المستفيضة من عدة وجوه في اللغة، فيذكر مذاهب العلماء من البصريين فيها، ويبين اختياره هو فيها، ولا يبالي في ذلك إن كان قد خالف جمهور البصريين أو بعضهم إذا ثبت لديه بالحجة الدامغة صواب مذهبه وبطلان مذهب غيره، ولا يتوانى في رد آراء غيره إذا لم يُسوغها قانونه النحوي ولو كان المخالف هو الخليل أعظم مشايخه في نفسه وفي كتابه.

وكان من منهجه إذا ما أورد رأي أستاذه الخليل أن يقول:" قال الخليل"، أو" قال الثقة"، أو" قال من أثق به"، أو نحو ذلك، وإذا أورد كلام المخالفين له أورده إيرادا أمينا وموضوعيا، معلقا عليه، مُصوّبا له[3]، وقد حوى كتاب سيبويه قدرا كبيرا من أشعار العرب مع جهالة بعض قائليها" فما طعن أحد من المتقدمين عليه ولا ادعى أنه أتى بشعر منكر، وقد روى في كتابه قطعة من اللغة غريبة لم يدرك أهل اللغة معرفة جميع ما فيها، ولا ردوا حرفا منها، قال الجرمي: نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا فأما الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتُّها، وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها، فاعترف بعجزه ولم يطعن عليه بشيء"[4].

[1]– شوقي ضيف، مرجع سابق، 57.

[2]– سعيد حسن بحيري، عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، القاهرة، 1410هـ-1989م، 120.

[3]– ينظر: سعيد الأفغاني، مرجع سابق، 114.

[4]– عبد القادر بن عمر البغدادي، مرجع سابق، ج: 1، 17.

وقد جرى العلماء على الثقة بها مع عدم عزوها لاقتناعهم بأن سيبويه إمام في التحري عند النقل عن العلماء وعن الأعراب، فجعلوا نقله لهذه الشواهد بمنزلة عزوها إلى من يحتج بلغته؛ لأنَ التحري والوثوق من عربية من ينقل عنه سمة البصريين عامة، ومدرسة الخليل على التخصيص[1].

وإن كان للأستاذ رمضان عبد التواب رأي آخر أظنه يتفرد به بخصوص العدد الحقيقي للأبيات التي يُجهل قائلها، حيث جعلها 342 بيتا مجهول القائل، وبيَّن بأنه قد وقف على نسبة العدد الأكبر منها فقال:" عرفت بعد الإحصاء، أن جملة غير المنسوب في كتاب سيبويه، تبلغ 342 موضعا، منها 43 موضعا سميت فيها قبيلة الشاعر ولم ينص على اسمه، مثل" رجل من قشير"، أو" رجل من بني دارم"، أو" رجل من مذحج"، أو" رجل من فزارة"، أو" رجل من طهية"، وغير ذلك، وقد نسب الأعلم الشنتمري في شرحه لشواهد الكتاب، المسمى" تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب" 57 موضعا، أي أن ما يبقى بعد ذلك غير منسوب تماما، عبارة عن 242 موضعا"[2].

وكان من منهج سيبويه في كتابه تقديمه السماع على القياس، واعتماده السماع سبيلا أوَّلا في الاستدلال والتقعيد اللغويين، فلا استدراك على سماع العرب ولا قياس بدون سماع.

وكان غالب اعتماد سيبويه في الاحتجاج على اللهجة الحجازية، فكان يستكثر من الاستدلال بها ويختارها من بين لهجات العرب فيقدِّمها عليها جميعا وعلى اللغة التميمية، ويرى فيها النموذج الأول للفصاحة العربية، فكان يراها اللغة الأصلية الأجود والأفصح، ويصفها بالقوة والجزالة فيقول:" وهي اللغة العربية القديمة الجيدة"[3]، ويقول:" فأمَّا ما كان

[1]– سعيد الأفغاني، مرجع سابق، 113.

[2]– رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1415هـ– 1995م، 90.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 4، 473.

آخره راءً فإنَّ أهل الحجاز وبني تميم فيه متفقون، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يرى، والحجازية هي اللغة الأولى القدمى"[1].

ب/ مكانة عبد الرحمان الحاج صالح العلمية:

لا نجاوز ذكر الحقيقة إذا أثبتنا بأن الأستاذ اللساني عبد الرحمان الحاج صالح هو عميد اللسانيات الحديثةِ وقطبها الأول في الجزائر، " وتشهد له كتاباته بأنه ضليع في التراث اللساني العربي، وبأنه أعاد قراءته بأدوات إجرائية مغايرة تمامًا لما هو سائد، وبذلك استطاع أن يقدِّم صورة جديدة إيجابية عن تراثنا العربي، أدَّت به إلى بعث العناصر الفاعلة في هذا التراث، وقام بتمحيصها"[2].

وتتجلى قيمة فكره اللغوي في ذلك الكم المعرفي الثر الذي خلَّفه رحمه الله، وإن الناظر إلى حجم الدراسات اللغوية الهائلة التي تناولت أعماله وأفكاره اللسانية العلمية لَيدرك بحقٍ أهمية منجزاته بالنسبة إلى اللسانيات الحديثة، فبالإضافة إلى أعماله وجهوده اللسانية العلمية الضخمة في حياته تنوعت أبحاث الدارسين لفكره وتنامت كثيرا بعد وفاته رحمه الله، فهي بين رسائل جامعية ومقالات وملتقيات علمية، وقد زادت هذه الدراسات اللسانية الساحة اللغوية العربية ثراء ووسعا.

ولم يكن ذلك القدر من التضلع والمكنة في علوم اللسان فحسب هو العجيب من أمر العلامة عبد الرحمان الحاج صالح، ولكنما أيضا" انفتاحه على كل ما جاءت به علوم اللسان بمختلف مدارسها، وعلوم النفس والتربية من خلال قراءة بنوية بسيطة للمصفوفة المفاهيمية والجهاز المصطلحي الموظَّفين من لديه، إذ حضرت السلوكيَّة (الحافز والتَّكرار...) والبنويَّة (التمارين، البنوية، البنية، الحذف، الاستبدال، الزيادة...) ونظرية التلفُّظ والكفاءة اللغوية

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 2، 192.

[2]– محمد خاين، إسهامات الحاج صالح في ترقية البحث في تعليمية اللغة العربية، مجلة: دراسات لسانية، العدد: 8، المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان، جمادى الثاني 1439هـ– مارس 2018م، المجلد: 2، 36.

بالمفهوم التشومسكي، (الملكة اللغويَّة...) والكفاءة التواصلية بمفهوم ديل هيمز ملكة التبليغ، النجاعة التبليغية وغيرها، وغيرها"[1].

وقد أعطى عبد الرحمان الحاج صالح الدارسين العرب علماء ومتعلمين مفاتيح أبواب البحث في التراث العربي، والبحثِ في علاقة الفكر العربي الأول بالدراسات اللسانية الحديثة، ليكسب أبحاث الدارسين صفة العلمية، ويكسبهم دراية ومكنة في مجال الدراسات التراثية وفي مجال المقاربة اللسانية بين التراث اللغوي القديم وبين الفكر اللساني الحديث، وتلك أهم الغايات العلمية التي قام لأجلها تفكير الحاج صالح، وهي غاية ما تصبوا إليه اللسانيات العربية الحديثة.

قيمة أعمال عبد الرحمان الحاج صالح العلمية:

يعدُّ عبد الرحمان الحاج صالح من العلماء اللسانيين المعاصرين المشهود لهم بالفضل في علم اللسانيات الحديثة، بما قدمه من أبحاث وتأملات ونظرات لسانية صائبة ووازنة، وكتبُه اللِّسانيَّةُ الخمسة التي ألَّفها من أعظم الآثار العلمية التي خلفها، وتتجلى قيمتها العلمية في تأصيلها للتراث اللغوي العربي وفي توفيقها بينه وبين اللسانيات الحديثة، وهي جهود قل نظيرها، ويتحدث العلامة نفسه عن جانب من تلك القيمة العلمية الكبيرة لهذه الآثار العلمية في كتابه" منطق العرب في علوم اللسان" فيقول:" إن هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة الكتب التي تتطرق إلى علوم اللسان عند المبدعين من اللغويين العرب وخاصة النحويين منهم، وأوَّلُها هو كتاب السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، وهي موجَّهة إلى أهل الاختصاص في علوم اللسان وتاريخ العلوم إلى جمهور المثقَّفين العرب الذين لهم اهتمام بالتراث اللغوي العلمي وبعلوم اللسان القديمة والحديثة"[2].

[1]– محمد خاين، المرجع السابق، المجلد: 2، 47.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 7.

وتتجلى أهمية تلك المنجزات في حسن مقاربتها وربطها مع اللسانيات الحديثة، بالإضافة إلى كثير من المشاريع والإنجازات العلمية الهامة في مجال اللسانيات كمشروع الذخيرة العربية، وحوسبة اللغة العربية وغيرها، فمن" المميزات التي انفرد بها الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح هو إدخال ما يسمى بتكنولوجيا اللغة في البحث اللساني بمختلف تطبيقاته منذ سبعينيات القرن الماضي، وإن كان هذا النوع من البحوث الذي يعتمد التقنية، فيستعين بالأجهزة الإلكترونية، كالتي تحلل الكلام وترسم الذبذبات وتركب الكلام الاصطناعي قد عرف تطورا كبيرا عند الغربيين فإنه لم يجد طريقه بعد إلى البلدان العربية"[1].

والنظرية الخليلية التي أقام عبد الرحمان الحاج صالح دعائمها من أنبل ما قدَّمه التفكير اللساني العربي الحديث في باب الأعمال اللسانية العلمية المتعلقة بالتراث، فقد أحيا بها علم الخليل، وصوَّر فيها الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي في صورة الأب الروحي للتراث وللسانيات العربية الحديثة معا، فاستطاع أن يبوئه مقامه الحقيقيَّ مقامَ السبق والفضل فيها، فأعادت هذه المدرسة أو النظرية العربية للفكر اللغوي العربي برمته مجده وسؤدده، وأثبتت له تميزه وسبقه في علم اللغة، والاستفادة من النظرية الخليلية " أو بالأصح إمكانية استغلالها الآن فحاصل بالفعل، وذلك لعدم وجود نظرية لغوية موازية مستخرجة من النظر في التراث اللغوي العربي إلا ما كان من النظرية التوليدية التحويلية إلا أنها غير وافية بالغرض رغم تجاوزها النزعة التقطيعية والتصنيف الساذج"[2].

[1]– الشريف بوشحدان، مرجع سابق، 107.

[2]– التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، 89.

المطلب الثاني: المرجعية اللغوية عند سيبويه ومصادر استدلاله في نظر عبد الرحمان الحاج صالح

تعدُّ المرجعية اللغوية العربية أصلا ثابتا لا يمكن أن يحدَه زمان، ولا أن يحيد عنه إنسان، لذلك كان الالتزام بها مسألة حتميَّة لتعلُّقها بأمة بأكملها من العلماء والمتخاطبين، فهي لا تقتصر على إمام واحد كسيبويه أو الخليل أو غيرهما، ولو كانت كذلك لتغيّرت بتغيُّرهم ولزالت وانتهى وجودها، ولانفصل حاضرها عن ماضيها، ومن هنا كان التزام سيبويه بها مرجعية واحدة ثابتة وراسخة واجبًا علميًّا واجتماعيًّا وأمرا طبيعيا لا مناص منه، ويتحدث عبد الرحمان الحاج صالح عن المرجع المعرفي اللغوي الثالث لدى سيبويه في وضعه لدرس العربية وهو كلام العرب فيقول:" ففي كل الأحوال المرجع الوحيد عند سيبويه، في السماع هم فصحاء العرب الموثوق بهم مباشرة أو عن طريق شيوخه، وكذلك في حالة التحقيق إذا شك في صحة المسموع أو في حالة التثبت من كثرة من يروي شيئا معيَّنا، أو في مجرَّد الاستزادة للمعلومات"[1]، وهو بالطبع لا يستثني القرآن والحديث النبوي، كما سيأتي، بل إن المقام مقامُ الحديث عن مفاضلات سيبويه في مسموعاته عن فصحاء العرب.

إنَّ الحديث عن المرجعية اللغوية وعن الالتزام عند سيبويه يجعلنا حذرين جدًّا حتى من مجرَّد إطلاق عبارة التفكير اللغوي عند سيبويه، أو فكر سيبويه أو أفكار سيبويه، فلا نقولها إلَّا على وجل، لما قد تعنيه من أنها مجرَّد اجتهادات فردية وجهود بشريَّة محضة قد تبنى على مجرد التخمين والافتراض لا على المرجعيات المعرفية الصحيحة الثابتة التي لا يمكن أن تتغيَّر بمجرَّد تفكير أيِّ إنسان مع مر الأزمان، ونحن لا نقصد بها غير التفكير اللغوي الصحيح الذي تُحدِّده المرجعية العربية وتضبطه، وإن فكر سيبويه اللغوي جميعا نابع من مروياته ونقوله وسماعاته للغات العرب الفصيحة، يُصدِّق ذلك جميعا ويقَوِّيه قولُه:" فهذا أقوى من أن أُحْدِث شيئاً لم تكلَّم به العَرب"[2]، وقولُه:" فليس لك في هذه الأشياء إلا أن

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، 100.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 3، 379.

تُجريَها على ما أجرَوها، ولا يجوز لك أن تريدَ بالحرف غير ما أرادوا"[1]، وقولُه:" فقف على هذه الأشياء حيث وقَفوا ثم قس"[2].

وقد أسلفنا قبل ونعيد هاهنا لنلح على أنَّ اللغة العربية قد حُبيت بميزات علميَّة جليلة جدًّا تحفظ لها مرجعيَّتها، يعزُّ أن تتوافر في أيَّة لغة عالمية أخرى غيرِها، كان أعظمها القرآن الكريم، ذلك الكتاب السماوي المقدَّس الذي جاء ليُثبت للغة العربية عِزّها ومجدها الفريد، وهو ما تتغافل عنه اللسانيات الحديثة اليوم لا لشيء إلَّا لتنزله على نبي من هذه الأمة العربية بهذا اللسان العربيّ المبين، ولو قُدِّر أن خُصَّت به إحدى اللغات اللاتينيَّة مثلا لرأينا من اللسانيين الغربيين تعظيما وتمجيدا يفوق تمجيد اللغة السنسكريتية والصينية وبعض اللغات الحديثة كاللغة الإنجليزية، وذلك ظاهر في تعاميهم عن فضل اللغة العربية ومنزلتها التاريخية العظيمة بين اللغات العالمية، عدا قلَّة من المنصفين من المستشرقين.

يُضاف إلى هذه المنحة والميزة الربانية الجليلة في الحفاظ على المرجعية العربية مزية الإسناد التي تعدُّ شرفا للعربية ما بعده شرف، وما من شيء يمكنه أن يُثبت المرجعيَّة العربيَّة ويُحافظ عليها كالإسناد، حتى قال عبد الله بن المبارك:" الإسنادُ من الدينِ ولولا الإسنادُ لقال من شاء ما شاء"[3]، فبالإسناد تحفظ المرجعية؛ لأنه حفظ لمصادرها المعرفية الهامة، وبالإسناد تحفظ متون اللغة من السقط والتحريف، وبه يعرف العالم أو القائل أو الناظم ويعرف زمنه ومكانه، وقد كان العلماء من بعد سيبويه يتناقلون كتابه رواية قرونا طويلة حتى عهد الأندلس.

ولم تكن مرجعية علماء العربية الأوائل آخذة في الحسبان والاعتبار أيَّ مصدر آخر غيرِ مصادرِ الاستدلال اللغوي الثلاثة المتمثّلة في القرآن الكريم بجميع قراءاته القرآنية، وفي الحديث النبويّ لا سيما الصحيح منه، وفي كلام العرب شعره ونثره خصوصا ما كان منه

[1]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 218.

[2] سيبويه، الكتاب، ج: 1، 266.

[3]– مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ج: 1، 15.

معلوم القائل صحيح النَّسب على وفق هذا التَّرتيب، فكذلك كان موقف سيبويه من نصوص الاحتجاج اللغوي في العربية، فقد كان من أشدِّ علماء العربية استمساكًا بالمرجعية المعرفية في اللغة العربية على نهج سابقيه من علمائها، لم تخالط فكره اللغوي معارف الأمم السابقة ومنجزاتهم اللغوية، ولمَّا تدركه أو تداخله مناهج المحدثين اللِّسانية، فكان كتابه لذلك كتابا تراثيا عربيًّا خالصا، فلا يجد القارئ فيه أيَّ أثر للمصادر المعرفية الأخرى غيرِ المصادر العربية.

إن الناظر في كتاب سيبويه ليجده من أعظم الكتب حفاظا على المرجعية اللغوية العربية، قد التزم فيه صاحبه بنصوص العربية الثلاث المعتمدة في الاحتجاج اللغوي مكثرا من الاستدلال بها، قد استلهم قواعده منها، إذ كيف وقد علم أن فيها كفاءً له وغُنية، وأيقن منزلة اللغة العربية وعلم أنها مكتفية بنفسها غير محتاجة لغيرها، ولقد أشاد الحاج صالح بثبات سيبويه على مرجعيته المعرفية العربية والإسلامية فقال:" فما أكثر ما يُحَذِّرُ سيبويه من التعسف وتجاوز ما هو من كلام العرب"[1].

وعلى النقيض من ذلك فإنَّ تاريخ اللغات والأبحاث الدقيقة الحاضرة لَيثبت إسراف كثير من اللغات العالمية في اقتباس العديد من المصطلحات العربية وفي تقليد ومحاكاة المناهج والنظريات العربية، وهي علة قادحة فيها إذ هي بعد عن الأصل وعن الثوابت والمرجعيات، ومن اللغات التي اعتمدت ذلك اللغةُ العبريَّةُ في بداية جمعها وتكوينها، اعتمدته بشكل واسع جدا، ولا يخفى اعتماد اللسانيات الغربية في العصر الحديث زمنِ نهضتها وتطورها على مناهج علماء العربيَّةِ المتقدمين ونظرياتِهم التي وجدوها مبطَّنةً مضمَّنة في كتبهم ومخطوطاتهم، وليس هذا وحده ما يعاب عليها لكنما التنكر والنكران لها، وبخلاف ذلك تعد العربية لغة نقية متعالية عن الذوبان وعن التقليد الأعمى، عزيزة بعزة تاريخها وأهلها وبعزة أصلها وطبيعتها، وبعزة كتابها السماوي، وما طالها من انتقال لبعض المصطلحات فهو قليل

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 59.

لا ينقص من قيمتها ولا يقدح في مرجعيتها، قد أُدخل على العربية وفق شروط وقواعد رصينة جدًّا لم تُخلَّ بالعربية، ويستحيل وجودها في غيرها من اللغات.

وإنَّ ممَّا ابتليت به اللغة العربية منذ العصر الحديث فئاما من الناس لا يرون في البحث التراثي اللغوي كِفاية ولا كَفافا حتى يكون تبعا لما جاءت به اللسانيات الحديثة، فوقفوها منظرة للعربية وجعلوها ميزانا لها، وكأن الأمر قد التبس عليهم حتى جعلوا السابق تبعا للاحق والأصل تبعا للفرع، وسبب هذا التهميش والجور في الحكم على مرجعيتنا وتراثنا اللغوي العربي هو الانبهار بالمنجز اللغوي الغربي والانتقاص من قيمة المنجزات اللغوية العربية، وهو ما حذَّر منه الحاج صالح مستاء مغتاظا فقال:" وهذا التجاهل ناتج بالطبع عن جهل أوَّلا لجوهر المفاهيم والتصورات العربية، وثانيا للاعتقاد الراسخ عند أكثر المحدثين أن ما ظهر عند العرب من أفكار ولم يُثْبته اللغويون الغربيون فلا قيمة علمية له، ويعتمدون في ذلك على ما يقوله بعض فلاسفة العلوم مثل أوغست كونت الفرنسي الذي ادَّعى في القرن الماضي أنَّ الفكر الإنساني يتطور على خط مستقيم؛ من الفكر الدينيّ إلى الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر الإيجابي؛ أي العلمي في نظره"[1].

ومع التزام سيبويه بالمرجعية اللغوية العربية مرجعا أوَّلًا في كل ما أُثِر عنه في فكره اللغوي، فقد كان شديدَ التحرِّي، عظيم التدقيق والتثبت في السماع والنقل وفي الاستشهاد اللغوي عن العرب، مع فصاحة جميع من نقل عنهم، ولو كان الأمر متعلقا بحديث نبوي صحيح، أو حتى بآية من كتاب الله يقينية الثبوت متواترة السند معجزة البيان يَستدل بها في كتابه، – وكتاب ربنا معجز جميعه–، فيستلهم منها قاعدةً لغويَّةً، أو يأخذ منها شاهدًا لغويًّا مناسبا، ولم يكن حينًا من الزمن في كتابه من أولئك الذين يسعون إلى لَيِّ أعناق نصوصهم الشرعية التي تمثل بالنسبة إليهم المثل العليا في الاستدلال والتقعيد والمعرفة، فلم نره يتعسف في تطويعها لتوافق قانونه النحوي، وقولُه:" إلَّا أنّ القراءة لا تُخالَفُ؛ لأنّ القراءة السُّنَّةُ"[2] يُؤكِّد

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع السابق، ج: 1، 14.

[2]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 148.

مدى استمساكه واعتصامه بالمرجعية المعرفية العربية، وهو دليل على تعظيمه لهذا المصدر المعرفي السماوي المنزَّه والمقدَّس.

وأمَّا اعتماد القرءان الكريم مصدرا أوَّلا في الاستدلال اللغوي في العربية فقد كان حكما عامًّا وثابتا عند علماء العربية، وعقيدة راسخة عندهم جميعا لا يُدافعها ريب، فمرتبته عند أهل العربية تعلو مرتبة الحديث النبوي وكلام العرب وتسبقهما، فهذا الإمام الرازي عالم التفسير والعربية يقرِّر بحسن بيان وبديع تأمل وسديد رأي ومنطق بـ" أنَّا إذا جوَّزْنا إثباتَ اللُّغةِ بشِعْر مجهولٍ منقولٍ عن قائلٍ مجهولٍ، فلَأنْ يَجوزَ إثباتُها بالقرآن العظيمِ، كان ذلك أَولى"[1]، ويضيف في هذا السياق مؤكّدا موقفه:" وكثيرًا أَرى النَّحويّين يتحيَّرون في تقريرِ الألفاظ الواردةِ في القرآنِ، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهولٍ فرحوا به، وأنا شديدُ التَّعجُّب منهم، فإنَّهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وِفقه دليلًا على صحَّته، فلَأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحَّته كان أولى"[2]، وفي مثل هذا الموقف تتجلَّى قيمة النَّصِّ القرآنيّ عند علماء العربيَّة، وتتضح مزيَّته وفضله على علم العربيَّة، فهو بالنسبة إليها المعين الصافي والبحر الواسع الذي لا ينضب، واستدلالات سيبويه في كتابه من القرءان الكريم كثيرة لا وُسع لإيرادها كلِّها، ومن أمثلتها دليلا على استماتته في الأخذ عن القرءان الكريم لكونه مرجعًا ومَصدرًا سماويًّا مقدَّسًا قوله:" ولكنَّ العبادَ إنَّما كُلِّموا بكلامهم، وجاء القرآنُ على لغتهم وعلى ما يَعنون"[3]، وفي هذا الكلام بيانٌ لمسألةٍ غايةٍ في الأهميَّة وهي أنَّ القرآن الكريم إنما نزل رحمة بالعباد موافقا للهجاتهم تيسيرا عليهم.

ولا ريب أن للحديث النبوي كما تقدم منزلته المرموقة في التَّقعيد والاستدلال اللغويّ عند سيبويه لولا غلبة الظن على روايته بالمعنى، ولعل ذلك السبب في عدم استكثار سيبويه من الاحتجاج به، وهو يأتي في المقام الثاني بعد القرآن الكريم، والناظر في العلوم الدينية

[1]– فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط 3، بيروت، 1430هـ، ج: 9، 401.

[2]– محمد بن عمر فخر الدين الرازي، المرجع نفسه، ج: 9، 401.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج: 1، 331.

الأخرى غيرِ علم العربية يجد أنَّ قدرا كبيرا جدًّا من مُهمَّات الأمور والمسائل الدينية قد انبنت على السُّنَّة النبوية، واتِّخاذُ الحديث النَّبويّ مرجعًا ثانيا لعلوم الدين المختلفة خصوصا العقيدة واعتمادها عليه في الاستدلال أجلُّ وأخطر من الاستدلال به في علم اللغة.

أمَّا كلام العرب شعره ونثره فيأتي في المقام الثالث في مصادر المعرفة اللغوية العربية عند علماء العربية، أي إنه يأتي بعد الوحيين الكريمين، وقد كان حضوره في الكتاب أكثر ممَّا سواه، وإن كانت قيمته بالنسبة إلى الوحيين نازلة عن مستوَيهما وقيمتيهما، وتلك هي منزلته الفعلية عند جماهير اللغويين قديمًا وحديثًا، ولا تعارض في ذلك مع ما تدعو إليه اللسانيات الحديثة وما تؤمن به، وقد استكثر منه سيبويه في كتابه وفقًا لشروط الاستدلال العلمية المعروفة التي تضْمن سلامة النقل والتقعيد والقياس، وهو ما أكَّده الحاج صالح، حين بيَّن التزام سيبويه السماع العربي العلمي كمرجعية عظيمة القدر والأهمِّيَّة في كتابه فقال:" هذا وأحصينا عدد المرات التي سمع سيبويه فيها هو بنفسه من العرب مباشرة فبلغ خمسة وثمانين مرة، وينبغي أن تضرب في عشرة وأكثر؛ لأن الذين تناولهم بالسماع كثيرون جدا"[1].

ولئن كان الاستدلال بكلام العرب الغالب على منهج سيبويه في كتابه وهو يأسِّس للدرس اللغوي العربي، فإنَّه بالمقابل لذلك قد ردَّ لهجات بأكملها لضَعفها ونزولها عن مستوى الفصاحة الذي حدَّده علماء اللغة البصريين، فلم يعتمدها سيبويه مرجعا في بناء قواعده وأفكاره، ولم يستأنس بها في كتابه، وهو إذ يردُّ بعضًا من تلك اللهجات البعيدة عن مستوى الفصاحة لا يردُّ كل واحدة منها في عمومها، بل إنه كثيرا ما يستأنس بل ويركن في مفاضلاته اللغوية العلمية إلى خصوص لهجة من اللهجات إذا رأى بأنَّ فيها من النماذج أو الظواهر اللغوية ما لا يوجد في جميع ما عداها من اللهجات بفصيحها وضعيفها، يدلنا على ذلك مفاضلته بينها وفق منهج وصفي علمي رصين، قد عُدَّ أشدّ صرامة ودقة من مناهج الغربيين الحديثة، وإنما من مدرسته نهلوا، ومن حياضه اغترفوا وما اعترفوا.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، 321.

المطلب الثالث: الانتماء المرجعي لأعمال عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية

يعد عبد الرحمان الحاج صالح من أبرز المدافعين عن المرجعية العربية في العصر الحديث، ولقد أجمل خلاصة أبحاثه اللغوية في الدعوة إلى إعادة بعث التراث اللغوي العربي، وإحياء نظرياته اللسانية لتواكب ما استجد في هذا العصر من أبحاث لسانية علمية، وهو يَعُدّ منجزات علماء العربية ريادة وسبقا علميا عالميا بعيدا موجبا للاهتمام من الدارسين، ويراها تفرُّدًا بالإبداع في علوم اللغة، فمن هنا كانت أصول أبحاثه اللغوية مستمدة من مصادر الاستدلال اللغوي الثلاثة المعروفة في العربية.

وكثيرا كان عبد الرحمان الحاج صالح ينوِّه بدور التراث اللغوي العربي في بناء الفكر اللغوي العربي الحديث والحاضر، ويعدُّ تلك المنجزات اللغوية مكسبا حضاريا عظيما، يقول عبد الرحمان الحاج صالح:" فالرجوع إلى التراث هو شيء طبيعي تفعله جميع الشعوب وخاصة شعوب أوروبا، فللعربية تراث حضاري ربما لا تضاهيه في ذلك أية لغة في الدنيا، ومعاجم العربية وحدها تزخر بالآلاف من الألفاظ الحضارية يمكن استرجاعها وإدخالها في الاستعمال من جديد، وقد حصل ذلك بالفعل حتى دخلت بعض الكلمات التراثية في لغة التخاطب"[1]، ومما يُحدِّثنا به عبد الرحمان الحاج صالح معاشر الباحثين أن كتابَ سيبويه وعلمَ أستاذه الخليل وآثاره في الفكر اللغوي هي أول وأولى مصادر الاستمداد في المعرفة اللسانية فيقول:" ... ونعتقد أن مثل هذه النظرية بالنسبة للعربية يمكن أن نجدها عند النحاة الأولين ممن أبدعوا كل المفاهيم والمناهج التحليلية العربية الأصيلة التي تنتمي إلى مدرسة الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه ومن تلاهما قبل نهاية القرن الرابع الهجري"[2]، وقد أخذ الأستاذ اللساني هذا التقسيم الثلاثي لمصادر المعرفة اللغوية في علم العربية عمن سبقه من علمائها كسيبويه والخليل ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر وغيرهم.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، 109+ 10.

[2]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، ج: 1، 317.

وللقارئ أن يقف على تصريحات كثيرة للأستاذ – فضلا عما يلمحه من الإشارات العديدة في أعماله العلمية– بخصوص مرجعيته المعرفية الإسلامية والعربية، وقد تحدث عن الأسباب العلمية التي دفعته إلى اختيار مصطلح اللسان كمقابل للفظ الأجنبي الوافد (la linguistique)، وأبان بـ:" أن الأصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآنُ الكريم (لا توجد فيه كلمة أخرى لهذا المدلول غيرُ اللسان) والشعرُ الجاهليُّ والإسلاميُّ، وما نُقل من كلام النحويين قبل وفاة سيبويه، وكلُّ ما أُلف في ذلك العهد في العربية والفقه والحديث، وغيرِ ذلك من العلوم الإسلامية، فلا يوجد فيها إلا لفظُ اللسان"[1]، ففي هذا القول يتجلى التزام عبد الرحمان الحاج صالح وتمسكه بالهوية الثقافية العربية الإسلامية في اصطلاحاته اللغوية، ولنا أن نقيس التزامه بهذه الأصول المرجعية في جميع ما توصل إليه من معارف وعلوم، ولْننظرْ إلى تعظيمه قدر سيبويه لفضله على لغة العرب إذ جعل العلامة اللساني تاريخ وفاة سيبويه نهاية زمن الاحتجاج اللغوي على ما ورد في هذا الكلام.

كما أبان أيضا بأن شرط الاستعمال اللغوي عند اللسانيين العرب المحدثين هو موافقة العرب الماضين في تعابيرهم القديمة، وأكد أيضا بأن دليل صحة وسلامة الاستعمالات والاصطلاحات اللغوية عند اللسانيين العرب المحدثين هو كثرة استعمالها عند العرب الأولين، فلذلك كان حتما على المحدثين انتحاء طريقة القدامى في الاصطلاح وفي الاستعمال، والتزام ما كان كثيرا شائعا عندهم[2].

نعم لقد تتلمذ العلامة الجزائري على أياد كثيرة غيرِ عربية، لكنه لم يكد يستسغ أبدا جل ما أخذه من أولئك المدرِّسين الغربيين والمستشرقين الحانقين على المرجعية المعرفية العربية، فلما غلب في نفسه ما تشرَّبه من علوم المسلمين اللغوية وجَّه دعوته إلى التزام نصوص العربية ومصادرها المعرفية المرجعية كما مر في هذا البحث غير مرة عند حديثه عن عدد من المصطلحات اللسانية في أسلوب موضوعي رصين رزين.

[1]– عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع السابق، 82.

[2]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، ج: 2، 109.

كما وضع العلامة للباحثين في التراث اللغوي شروطا رصينة للاستدلال اللغوي تتعلق بالراوي والمروي" وألحَّ على ضرورةِ الرجوع إلى الأقوال المنقولة عن أصحابها وتجنُّب ما رواه المتأخِّرون عنهم، وتخيُّرِ المصادر التي أجمع العلماء على صحتها، واللجوءِ إلى النصوص الأصلية لفهم قصديَّة أصحابها فإن تعذَّر الأمر يتم الرجوعُ إلى تلاميذهم الذين تتلمذوا عليهم وتصفُّحُها باعتماد المنهج التحليلي الاستنباطيّ"[1].

فلم تكن أبحاث العلامة اللساني الجليل ضربا من الترف الفكري، وإنما كانت دراساتٍ علميةً دقيقة معمقة فاحصة وازنة، اتسم فيها عمله اللساني" بالتفكير النقدي الرصين الذي مكنه من التمييز بين البحوث الأصيلة في التراث اللغوي العربي وبين ما اعتوره وخالطه لوثة الفكر اليوناني، وبخاصّة المنطق الأرسطوطاليسي، ولهذا نجده يخصص جزءا كبيرا من مؤلَّفاته لإثبات خلوِّ النَّواة الأولى التي بني عليها الدرس اللغوي العربي والدرس النحوي على وجه الخصوص من أي تأثير أجنبيٍّ، سريانيًّا كان أو يونانيًّا"[2]، وقد اصطبغت أبحاثه اللسانية بصبغة تراثية حداثية قَلَّ أن توجد عند مؤلِّفٍ من المحدثين، استمات فيها في الدفاع عن المرجعية العربية فأبدى فيها استمساكا شديدًا بهويَّته العربية الإسلامية وقيمه المعرفية وثوابته الفكرية المقدَّسة، وبرهن فيها على نقاء الدرس العربي من المنطق اليوناني.

وبالمقابل لذلك فقد كان الحاج صالح عظيم الاجتهاد في تطويع بعض النظريات الغربية وتطبيقها على النحو العربي، سعيا منه للتقريب بين التراث اللغوي العربي وبين البحث اللساني الغربي الحديث بما يخدم اللغة العربية، وليُعرِّف القارئ العربي بهذا العلم الحديث

[1]– زمولي سعاد وموشعال فاطمة، مرجعية البحث اللساني عند عبد الرحمان الحاج صالح بين إشكالية التراث والإبداع، مجلة الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، العدد: 7، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، جانفي 2021م، المجلد: 4، 834.

[2]– آمال بوزنادة، رزيق بوزغاية، مرجعيات التفكير اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح من خلال كتاب" منطق العرب في علوم اللسان، سؤال المعرفة في تجربة عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات مخبر الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية والمقاربات البينية، كلية الآداب واللغات، نوران للنشر والتوزيع، ط 1، جامعة العربي التبسي – تبسة، 2022م، 94.

الذي قلب موازين الفكر اللغوي العالمي[1]، وذلك لعلمه بأن التطوير سنة واجبة الحدوث في أي لغة مهما علا شأنها وطال زمنها، ولعلمه بأن نفس ذلك التطوير مهما بلغ لا يضر أبدا باللغة العربية؛ لأن زوال أية لغة أو ذوبانها في غيرها لا يطال غير اللغات الضعيفة، وقد تعالت العربية عما في جميع اللغات من هنات بما في ذلك طائفة اللغات الصاعدة.

ولم يكن العلامة اللساني ليخفي اهتمامه وإعجابه البالغين بنجاحات اللسانيات الحديثة ونتائجها العلمية المبهرة، لذلك حرص على إسقاط بعض ما في تلك النظريات والمناهج مما يناسب اللغة العربية على لغة القرءان المشرَّفة ولم يأل في ذلك جهدا، غير أنه كان شديد الحذر من التعسف في إسقاطها بما أوتيَه من ناصية النقد، وبما امتلكه من المقدرة الجيدة على التمييز بين غثها وسمينها، ولكَم حذَّر الباحثين العرب من الوقوع في مثل هذه السقطات المشينة المعيبة، لذلك كان" الجمع بين الأصول العلمية التي امتازت بها علوم اللسان عند العرب والنظريات اللسانية الحديثة مبدأ عامًّا عند الدكتور صالح يجب الأخذ به، لكن شريطة تمحيص هذه النظريات وتبني ما صح منها دون ما عداه، ودون اعتساف، وفي سبيل بيان ذلك اكتفى هنا بذكر مثال خاص يتعلق بحقيقة المعيار اللغوي وماهيته من الناحية العلمية"[2].

وتظهر عناية العلامة اللساني بالمرجعية اللغوية العربية جليا في أعماله العلمية، وليس شيء أدل على ذلك من مجرد عناوين كتبه الخمسة التي ألفها إحياء وخدمة للتراث اللغوي العربي واللسانيات العربية، وقد أجاد فيها من حيث استمات في الدفاع عن المرجعية اللغوية العربية، في مساع منه نبيلة لإثبات علميتها وسبقها المعرفي للسانيات الغربية الحديثة.

ودليل واضح على أصالة المعرفة اللغوية عند الأستاذ الحاج صالح أن نشْأه وغرسه الطيب الذي أعدَّه للعربية كان على شاكلته في توجهه العلمي، إذ إننا نجد أنَّ ذلك الأثر الطيب والسمت العلمي والأخلاقي الحسن قد غلب على تلامذته من بعده وأصبح طبعا

[1]– ينظر: رشيد وقاص، منهج عبد الرحمان الحاج صالح في البحث اللساني، المرجع السابق، 153.

[2]– عبد السلام السيد حامد، مرجع سابق، 143.

وصفة راسخة ومبدأ ثابتا عندهم جميعا، حتى إنا قرأنا لواحدة من أولئك الأعلام النبلاء من تلامذته النجباء قولها:" إلَّا أنَّ هناك بعض من يميل إلى تقليد الغربيين، وهم قليلون جدًّا والحمد لله... فإذا لم يجدوا عند العرب ما يوافق هذا الأصل رفضوا أقوالهم رفضًا واستهزأوا بهم، ونعتقد أن من حق الباحث أن ينتمي إلى أي مدرسة شاء مما يراه صوابا، ولكن ليس من حق الباحث أن يتجاهل المدارس الأخرى وخاصة مدرسة المبدعين من علمائنا القدامى"[1].

ووظف العلامة قلمه في منجزاته اللسانية عامَّة من أجل الدفاع عن المرجعية اللغوية العربية، وفي كتابه:" السماع اللغوي" بين بأن السماع العربي الفصيح هو أول أصل بني عليه صرح العربية، ونوه كثيرا بجهود سيبويه واللغويين العرب في التزام النقول الصحيحة الفصيحة عن العرب، وعد تلك الجهود التزامًا ظاهرا راسخًا بالمرجعية العربية ومحافظة عليها.

المطلب الرابع: أثر التفكير اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح على منحى الدراسات اللسانية العربية الحاضرة

لم تكن أعمال الحاج صالح اللسانية تفكيرا فلسفيا محضا على شاكلة الكثير من النظريات اللسانية الغربية فتطوى أو تموت كما طويت وماتت أغلب تلك النظريات، ولكنها كانت أعمالا علمية مؤسَّسة ومؤصلة غاية التأصيل، تستمد قوتها وعلميتها من التراث اللغوي العربي نفسِه، ولعل أهم سمة أو ثمرة من ثمرات تفكيره اللغوي تتمثل في تأثر الساحة العلمية من بعده بآرائه اللغوية العلمية، حتى ظهر في العصر الحاضر من يستضيء بأنوار أفكاره اللغوية الساطعة، وقد تحمَّل فكره جماعة من المخلصين له ولعلمه الجم الغزير، ومن أهم ما أخذوه عنه مرجعيته المعرفية العربية في علم اللغة، فكانوا على خطاه يجمعون بين الحداثة والتراث.

[1]– خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، ط 2، الجزائر، 2006م، 143.

وكان من أفضاله على الدراسات اللغوية الحاضرة أن أفادت اللسانيات التعليمية من أبحاثه اللسانية، لذلك يمكننا القول بأنَّ:" ما قدَّمه الحاج صالح من إضافات نوعية في حقل تعليمية اللغة العربية يرقى إلى مستوى الإسهام الإجرائي الناجع، ويتجاوز درجة الجهد، والذي لا يختلف عن غيره من الجهود، والتي قد تذهب سدى ولا يُلتفت إليها، ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى منطلقاته البحثية التي أسَّس عليها مقدماته، ومن ثمَّة كانت النَّتائج في مستوى التَّحدِّيات"[1].

ولعل من أهم ما امتاز به عبد الرحمان الحاج صالح عن سائر اللسانيين العرب في العصر الحديث، أنَّه لم ينطلق في بحثه اللغوي من مشروع التهديم بدعوى إعادة البناء للتراث العربي، كالذي سماه بعض الباحثين العرب في زمنه زورًا إصلاح النحو، ولكنه جاء بمشروع إصلاحي حقيقي يظهر فيه الاعتزاز بأبحاث اللغويين العرب المتقدمين ومنجزاتهم اللغوية الهامة، يقوم أساسًا على دعوة الباحثين للاستمساك بالتراث والعناية به ومقاربته مع اللسانيات الحديثة، وبمعنى آخر فإنه قاد حملته على دعاة الحداثة، ودعى الباحثين والمتعلمين ليتزوَّدوا من التراث اللغوي العربي وليتعرَّفوا على ما جاء به علم اللغة الحديث ليأخذوا بأجاويد ما فيهما بحسن مقاربة.

وتعد النظرية الخليلية إحدى أعظم تجليات التفكير اللساني لعبد الرحمان الحاج صالح، وهو ما مكَّنها من إحراز استحسان وقبول كبيرين من طرف اللسانيين العرب، وكان لها الأثر البارز في تصحيح مسار الكثيرين منهم، وفي حل ما استغلق عليهم وما أشكل فهمه من القضايا اللغوية التراثية والمعاصرة حتى وجدنا من تلاميذ الحاج صالح المخلصين له العارفين لقيمة علمه وأثره من يشيد بدور هذه النظرية اللسانية في خدمة اللسانيات العربية، من قائل:" عمدت في عرضي إلى التعريف بأهمِّ المذاهب اللسانية الغربية (وأهلُ الغرب هم السبَّاقون اليوم في التجديد والإبداع) ولكن وهذا هو فضل أستاذي علي، حرصت على

[1]– محمد خاين، مرجع سابق، المجلد: 2، 37.

الوقوف (كلما كان ذلك ممكنا) عند وجهة نظر المدرسة الخليلية الحديثة في الموضوع؛ تلك المدرسة التي تطمح ربط الماضي بالحاضر، وتقترح قراءة جديدة تجديدية لتراثنا اللغوي العربي في ضوء النظريات والمبادئ العلمية الحديثة"[1]، إلى قائل:" هي مدرسة أصيلة تعتمد على الفكر اللغوي العربي بدون تعصب ولا تبعية، ويتزعَّمُها عالم اللسانيات العربية العلامة عبد الرحمان الحاج صالح"[2].

وكثيرا كان عبد الرحمان الحاج صالح يستدل في بناء نظريته الخليلية من الكتاب بكلام سيبويه ومواقفه في العديد من مسائلها، في دليل على وجاهة الكتاب في هذا الباب (النظرية الخليلية) عند الأستاذ وعلى منزلته في نفسه، وفي ذلك دليل أيضا على سبق سيبويه لمفاهيم هذه النظرية التي لا بد قد أثرها عن أستاذه الخليل، وعلى عنايته البالغة بها قبل أن يتناولها عبد الرحمان الحاج صالح بعد قرون.

وما أكثر ما كان عبد الرحمان الحاج صالح يحض الباحثين اللسانيين العرب على تعلم اللغات الأجنبية؛ من أجل حسن الاطلاع على أبحاث غيرهم من اللسانيين من الأمم الأخرى، وليتمكنوا من معرفة أسرار لغاتهم ونفائسها، وقد بات معلوما بأن اللسانيين الغربيين الأولين كانوا على معرفة واطلاع على أكثر اللغات العالمية، وإنما تمكنوا من إرساء علم اللسانيات الحديثة بفضل إتقانهم لكثير من اللغات العالمية واللاتينية كالصينية والهندو أوروبية، ولغات الأمم البائدة، ولا ريب أن اللغة السنسكريتية كانت المصدر الأول لإلهامهم، وأن اللغة العربية كانت أعظمَ مصادر إبداعهم في علم اللسنيات الحديث، وسبيلَهم لترجمة نفائس علماء المسلمين المختلفة التي كانت كذلك مصدر نهضتهم في عصر النهضة الحديث، لذلك عد الأستاذ الحاج صالح – وهو اللساني المتقن لعدد من اللغات العالمية– الجهل باللغات الأجنبية فقرًا لغويًّا وعائقا معرفيًّا عويصا أمام الباحثين اللسانيين العرب اليوم،

[1]– خولة طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، 6.

[2]– التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، 85.

فمن هنا تأكَّدت لدى باحثينا ضرورةُ اكتساب لغات أخرى غيرِ لغتهم العربية، واتَّضحت أهمِّيَّة ازدواجيَّة اللغة عندهم أكثر من أي وقت آخر.

ولعلَّ أبرز ملمح من ملامح الفكر اللساني الحديث عند الباحثين العرب نجده متمثلا في استقرارهم على كثير من اختيارات الأستاذ الحاج صالح اللسانية، كاتفاقهم على أهم مصطلح لساني وهو مصطلح اللسانيات، وقد كانوا من قبل مختلفين متضاربين في أي المقابِلات اللسانية أنسب للمصطلح الغربي: Linguistics، فاختلفوا بين قائل بأنَّ: المقابل العربي الأنسب هو مصطلح اللسنيات، وهو اختيار إخواننا المغاربة، وبين قائل بأنَّ: المقابل العربي الأنسب لهذا الوافد اللساني الذي استجدَّ في العربية هو مصطلح: الألسنية، وذاك اختيار إخواننا في تونس، وعلى الرغم من ذلك الخلاف الاصطلاحي الواسع ظل الإمام اللغوي الجزائري عبد الرحمان الحاج صالح ثابتا متزنا في موقفه من أن مصطلح اللسانيات هو أولى مقابل لساني عربي وأقربه لهذا الوافد اللغوي الأجنبي، حتى أن جاء قرار المجمع اللغوي العربي فأقرَّه على ذلك، فكان ظهور" مصطلح اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ابتداء من 1966م على يد عالم اللسانيات الجزائري عبد الرحمان الحاج صالح الذي اقترح صيغة " لسانيات" قياسا على صيغة رياضيات التي تفيد العلمية، ويصلح هذا المصطلح أن يكون مقابلا دقيقا للمصطلح الأجنبي Linguistique/ Linguistics؛ لأنه مشتق من موضوعه وهو اللسان؛ إذ يتضمن مصطلَح اللسانيات العلم وموضوعه(علم+ لسان) علم موضوعه اللسان البشري"[1].

وفي هذا الخصوص يؤكد عبد الرحمان الحاج صالح بأن اختياره ها هنا كان اختيارا علميا مؤسسا استند فيه إلى عاملَين اثنين، فأما الأول فهو التأمل والنظر العلمي الفاحص في القرءان الكريم وفي الحديث النبوي الشريف وفي كلام العرب، وكذلك في كل ما ألفه علماء

[1]– أحمد حساني، مرجع سابق، 23.

المسلمين في شتى علوم الدين ومباحثه قبل وفاة سيبويه، ثم استند فيه ثانيا إلى كلام علماء المسلمين في الفترات المتلاحقة كالفارابي وغيره[1].

[1]– ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، 81– 82– 83.

الخاتمة

الخاتمة:

ما من بدّ من أنَّ العلّامة اللّسانيَّ عبد الرّحمان الحاج صالح – كما أثبتنا ذلك مرارا– إذ يفتش في جهود العرب اللّغويّة، وإذ يطلق التسميات والأحكام اللسانية في كتبه ينوي بها ابتداء أو أساسا البحث في علم شيخ العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي، وذلك ظاهر في تأسيسه لمشروعيه اللسانيين الكبيرين:" الذخيرة العربية، والنظرية الخليلية"، لكنه مع ذلك لم يكن ليغمط غيره من أهل اللغة أيضا حقَّهم ولا لينكر جهودهم في خدمة العربية، فكيف بسيبويه أعظمِ تلاميذ الخليل وأبقاهم علما وأثرا طيبا، ولم يكن خافيا عليه أيضا التفريق بين جهود ذا وذاك وقد خبُر بعلميهما كخير ما تكون الخبرة والدراية، وما كان الحاج صالح ليهنأ ويسعد بنتائج أبحاثه اللغوية عند علماء العربية سعادته بأبحاثه فيها عند هذين العلمين اللغويين الجليلين الخليل وسيبويه على ما يظهر في مؤلَّفاته اللسانيية جليًّا، لقد كان يصدِّر بها في الغالب الكثير نتائج دراساته، وكان يقرها إجمالا وتفصيلا ويدافع عنها ويؤصِّل لها جميعا؛ ليقينه الجازم بأنها الأصل الأصيل في الدرس اللغوي العربي الأول، والنموذج الفكري اللساني المتكامل بالنسبة إليه.

ومن خلال بحثنا في هذا الموضوع خلصنا إلى جملة من النتائج والتوصيات يمكننا أن نجملها في بضع نقاط، لعل أهمها:

أن مصطلح النحو لم يرد في الكتاب، وإن أتت عباراته فيه لتدل عليه بمفهومه الحاضر، كما أن مصطلح الجملة بدوره لم يَرد في الكتاب، إلا أنه قد فُهم ضمنا من خلال حديث سيبويه عن الكلام؛ إذ إنه عنى بالكلام النحوي نفسِه الجملة بالمعنى الحديث، وأن جذور مصطلح الجملة مأخوذة من حديث سيبويه المستفيض عن الكلام، مثلما أن مصطلح النحو على حداثته مأخوذ من قصة أبي الأسود الدؤلي.

أن تقسيم الجملة العربية إلى ثلاثة أقسام هي الاسم والفعل والحرف هو تقسيم عربي أصيل قد أُثر عن المؤسسين اللغويين العرب الأولين، فلا يد لليونان وغيرهم فيه.

أن الكتاب هو البادرة اللسانية الفعلية لكثير من النظريات اللسانية الحديثة كالتداولية وتحليل الخطاب، وذلك بإقرار كثير من الدارسين اللغويين المحدثين.

أن ما جاء في الكتاب من منجزات لسانية علمية هو صناعة عربية خالصة من أي تأثر، وأن استمداده ومرجعيته المعرفية اللغوية عربية إسلامية صرفة.

أن احتجاج سيبويه في كتابه بالحديث النبوي كان أقل مراتب الاحتجاج اللغوي قياسا بكلام العرب على وجه أخصَّ، وكذلك بالقراءات القرءانية الصحيحة منها والشاذة أيضا.

أنَّ كتاب سيبويه تصدق فيه بالفعل مزاعم كثير من اللسانيين بأنه أول وأكمل بحث لغوي في علم اللغة العام.

أنَّ قليل الجميل من العارفين لقدْر سيبويه والمتضلعين في كتابه أن يعدُّوا عبقرية سيبويه وألمعيته في علوم اللغة العربية تفكيرا لغويا علميا متينا بزنة التفكير اللساني الحديث، وهو وصف صاحب هذه المدونة عبد الرحمان الحاج صالح نفسه، عميدِ اللسانيات الحديثة في الجزائر، إن لم نجزم: في الوطن العربي بأسره.

أنَّ الوجل الزائد الزائف من إطلاق مصطلح العلم اللساني أو التفكير اللساني على جهود سيبويه واللغويين العرب الأولين ومنجزاتهم اللسانية العظيمة تنزيل وحطٌّ وانتقاص من أقدارهم، وغمط لحقهم ونكران لأفضالهم، وقد رأينا كيف أنَّ مصطلحات أو ألقابًا علمية من مثل علماء أو مفكرين أو منظرين أو رواد أو مؤسِّسين تهدى لملء الأرض ممن هم بوزن باب لغوي واحد من الكتاب يسير.

أن منجزات عبد الرحمان الحاج صالح هي أوفى الأبحاث اللسانية الحديثة دراسة لفكر سيبويه اللساني وأقربها إلى فهمه، وأن الحاج صالح هو خير وأصدق من درس البحث اللغوي عند الخليل وسيبويه.

وأن عناية العلامة بسيبويه لا تقل أهمية وقدْرًا عن عنايته بالخليل، وأن ما خصَّ به سيبويهِ من الدراسات اللسانية قد يفوق ما تناوله مخصَّصًا لدراسة فكر الخليل نفسه.

أنَّ الكتاب هو البوصلة الحقيقية والمنهاج العلمي المتعالي للعمل العلمي والتعليمي المتكامل في الدراسات اللسانية العربية الحديثة وكذا الحاضر، وإن بدا لكثير من الباحثين المستغربين خلاف ذلك أو الخطأ في اعتقاد مثله.

وأنَّ المنهج النحوي السائد عند الباحثين العرب وفي المنظومة التعليمية العربية الحديثة وكذا المعاصرة في عمومها هو صورة فعلية لما جاء في الفكر اللغوي عند سيبويه.

أنَّ الهدف الأهم والغاية الأقصى من المقاربة اللسانية بين التفكير اللغوي عند سيبويه وبين اللسانيات الحديثة هو تأكيد سبق سيبويه لها وإثبات علمية كتابه، وليس الهدف إضفاء صفة العلمية من اللسانيات ولا التماس الحكم منها.

وأنَّ مسألة إثبات السبق والعلمية ومساعي المقاربة والانفتاح على اللسانيات الحديثة، جميع ذلك في تصوُّرنا أولى الجوانب بالتمحيص وبالمزيد من العناية والدراسة، وهو حقًّا من أقلها بذلا من طرف الباحثين مع كونه من أهمها وأعظمها نفعًا لهم.

أنَّ جوانب وقضايا لسانية عظيمة القدر في الكتاب ما أجدرها أن تقرأ فيه ما زالت لمَّا تُطرق بعد.

قائمة المصادر والمراجع

*** القرءان الكريم برواية حفص (مصحف الشاملة الإلكتروني)**

أولا- المصادر:

- سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1402هـ-1982م، ج: 3.
- عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2007م.
- عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - وحدة الرغاية- الجزائر، د ط، 2012م.
- عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2007، ج: 2.
- عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2012.
- عبد الرحمان الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 2007م.
- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط 3، دمشق، 1429هـ- 2008م.
- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتاب، ط 8، د ب، 2003م.
- أنيس فريحة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، ط 2، بيروت- لبنان، 1981م.
- التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، د ط، الجزائر، 1436هـ- 2015م.
- تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، ط 4، القاهرة، 1421هـ-2001م.
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1417هـ- 1997م.

- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، د ب، 1986م.
- عبد العزيز حليلي، اللسانيات العامة واللسانيات العربية، دار النجاح الجديدة، ط 1، الدار البيضاء، 1991م.
- عثمان بن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، تح: محمد علي النجار، ط 2، مصر، 1952م، ج: 1.
- علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامَّة، ط 1، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986م.
- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، إيتراك للنشر والتوزيع، ط 1، مصر، 2004م.
- كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، ط 9، القاهرة- مصر، 1986م.
- نوزاد حسن، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، دار الكتب الوطنية، ط 1، قان يونس، 1996م.

ثانيا- المراجع:

- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الإنجلو المصرية، ط 6، القاهرة، 1978م.
- إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر، ط 1، الإسكندرية، 1987م.
- إبراهيم الشاطبي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، ط 1، د ب، 1417هـ- 1997م، ج: 5.
- أبو أحمد بن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، تح: عادل أحمد عبد الموجودعلي محمد معوض، عبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت- لبنان، 1418هـ- 1997م، ج: 3.
- أبو المحاسن التنوخي المعري، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والإعلان، ط 2، القاهرة، 1412هـ- 1992م.

- أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، د ط، بيروت- لبنان، د ت، ج: 3.
- أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تح: حسن هنداوي، دار القلم، ط 4، دمشق، 1418هـ- 1997م، ج: 4.
- أبو علي الحسن الفارسي، التعليقة على كتاب سيبويه، تح: عوض بن حمد القوزي، د د، ط 1، السعودية، 1410هـ- 1990م، ج: 1.
- أبو علي النحوي الفارسي، المسائل العسكريات في النحو العربي، تح: علي جابر المنصوري، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، د ط، عمان، 2002م.
- أحمد أحمد بدوي، سيبويه حياته وكتابه، هنداوي، د ط، القاهرة- مصر، 2017م.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تح: علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان محمد، دار العاصمة، ط 2، السعودية، 1419هـ- 1999م، ج: 2.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تح: دائرة المعرف النظامية- الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 2، بيروت- لبنان، 1390هـ- 1971م، ج: 4.
- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، د ت، ج: 8.
- أحمد بن محمد أبو جعفر النَّحَّاس، إعراب القرآن، الحواشي والتعليق: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1421هـ، ج: 5.
- أحمد بن محمد أبو جعفر النَّحَّاس، عمدة الكتاب، تح: بسام عبد الوهاب الجابي، دار بن حزم، (الجفان والجابي للطباعة والنشر)، ط 1، د ب، 1425هـ- 2004م، 36.
- أحمد بن محمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، تح: نصر الله عبد الرحمان نصر الله، مكتبة الرشد، د ط، الرياض، د ت.
- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط 1، القاهرة، 1429هـ- 2008م، ج: 1،
- أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، السبعة في القراءات، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط 2، مصر 1400هـ.

- أحمد بن يحيى شهاب الدين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، ط 1، أبو ظبي، 1423هـ، ج: 7.
- أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ط 2، الإمارات العربية المتحدة، 1434هـ- 2013.
- أحمد شوقي عبد السلام ضيف (الشهير بشوقي ضيف)، المدارس النحوية، دار المعارف، ط 7، القاهرة، 1968م.
- إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تح: محمد حسين شمس، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1419هـ، ج: 4.
- التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، دار الوعي، د ط، الجزائر، 2008م.
- الحسن السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مصطفى البابي الحلبي، د ط، مصر، 1373هـ- 1866م.
- الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تح: مروان قباني، المكتب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1406هـ- 1986م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط 2، بيروت- لبنان، د ت، ج: 8.
- بدر الدين المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1413هـ- 1992م.
- بكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النسابين، دار الرشد، ط 1، الرياض، 1407هـ- 1987م.
- بهاء الدين بن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد، تح: محمد كامل بركات، دار الفكر، ط 1، دمشق، 1400هـ، ج: 1.
- جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو وجدله، تح: محمود فجال، وسمى شرحه (الإصباح في شرح الاقتراح)، دار القلم، ط 1، دمشق، 1409هـ- 1989م.
- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت- لبنان، 1418هـ- 1998م، ج: 2.

- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، د ط، صيدا – لبنان، د ت، ج: 1.
- جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1408هـ- 1988م، ج: 1.
- جمال الدين عبد الرحمان الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت- لبنان، 1412هـ- 1992م.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط 4، د ب، 1422هـ- 2001م.
- حافظ إسماعيل علوي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، لبنان، 2007م.
- حسام البهنساوي، التراث اللغوي العربي وعلم اللغة الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، د ب، 1425هـ- 2004م.
- حمد بن محمد الخطابي، غريب الحديث، تح: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، تخريج: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر ، د ط، دمشق، 1402هـ- 1982م، ج: 1.
- خديجة عبد الرزاق الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، مكتبة النهضة، د ط، بغداد، 1385هـ- 1965م.
- خليفة بوجادي، اللسانيات النظرية دروس وتطبيقات، بيت الحكمة، ط 1، العلمة- الجزائر، 2012م.
- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، ط 2، الجزائر، 2006م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، د ب، 2002م، ج: 5.
- ربيعة برباق، صناعة المعجمات العربية " تاريخها أسسها ومناهجها"، دار نوران، ط 1، الجزائر، 2018م.
- رشيد حليم، المنهج اللغوي العربي والبحث اللساني – دراسة مقاربتية في اللسانيات وأصول النحو، دار قرطبة، ط 1، الجزائر، 1453هـ- 2011م.

- رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1415هـ- 1995م.
- سراج الدين عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت- لبنان، 1419هـ- 1998م، ج: 3.
- سعد الملك علي بن ماكولا، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت- لبنان، 1411هـ- 1990م، ج: 4.
- سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح، د ط، الكويت، 1978م.
- سعيد حسن بحيري، عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، القاهرة، 1410هـ- 1989م.
- سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تح: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، ط 1، د ب، 1439هـ- 2009م، ج: 5.
- سليمان بن خلف الأندلسي، المنتقى: (شرح الموطأ)، مطبعة السعادة، ط 1، مصر، 1332هـ، ج: 4.

- شريف شوباشي، لتحيا العربية يسقط سيبويه، مؤسسة هنداوي سي آي سي، ط 3، المملكة المتحدة، 2019م.
- شعبان محمد إسماعيل، رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، دار السلام للطباعة والنشر، ط 2، د ب، د ت.
- شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، ط 1، بيروت، 1994م، ج: 3.
- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، د ب، 1405هـ- 1985م، ج: 1.
- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، تح: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، ط 1، الرياض، 1416هـ- 1995م.

- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط 1، د ب، 2003م، ج: 4.
- شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم الأدباء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب-، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت- لبنان، 1414هـ- 1993م، ج: 5.
- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومه، د ط، بوزريعة- الجزائر، 2000م.
- صبحي إبراهيم الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط 1، د ب، 1379هـ- 1960م.
- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، د ط، بيروت، 1420هـ- 2000م، ج: 5.
- صلاح الدين صالح حسنين، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن، دار العلوم، ط 1، الرياض- المملكة العربية السعودية، 1405هـ- 1984م.
- عبد الجليل مرتاض، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، دار هومة، ط 2، الجزائر، 2009م.
- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة: (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط 2، بيروت، 1408هـ- 1988م.
- عبد الرحمان بن محمد أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط 3، الزرقاء- الأردن، 1405هـ- 1985م.
- عبد الرحمان بن معاضة الشهري، الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم - أهميته، وأثره، ومناهج المفسرين في الاستشهاد به، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط 1، الرياض- المملكة العربية السعودية، 1431هـ.
- عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، مكتبة وهبة، ط 2، د ب، 1414هـ- 1993م.
- عبد الفتاح المرصفي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، ط 2، المدينة المنورة، ج: 2.

- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: محمد نبيل طريفي وإيميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت، 1998م، ج: 4.
- عبد القاهر الجرجاني، المفتاح في الصرف، تح: علي توفيق الحَمَد، مؤسسة الرسالة، د ط، بيروت، 1407هـ- 1987م.
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، القاهرة، 1992م.
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مختلف الحديث، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراق، ط 2، د ب، 1419هـ- 1999م.
- عثمان بن جني، المنصف لابن جني، شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، دار إحياء التراث القديم، ط 1، د ب، 1373هـ- 1954م.
- عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، دار الفكر، ط 2، دمشق، 1407هـ.
- عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، مكتبة لبنان ناشرون، ط 2، لبنان، 1414هـ- 1994م.
- علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب، د ط، مصر، 2007.
- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط 1، د ب، 1412هـ- 1991م.
- علي بن عيسى الرماني، رسالة منازل الحروف، تح: إبراهيم السامرائي، دار الفكر، د ط، عمان، د ت.
- علي بن محمد أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، ط 1، بيروت، 1424هـ.
- علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط 1، القاهرة، 1406هـ- 1982م، ج: 2.
- عماد السيد محمد بن إسماعيل الشربيني، كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، ط 1، دار الكتب المصرية، 1422هـ- 2002م.

- عمرو بن بحر" الجاحظ"، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط 7، القاهرة- مصر، 1418هـ- 1998م، ج: 2.
- عوض بن حمد القوزي، المصطلح النحوي، (نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري)، عمادة شؤون المكتبات، د ط، جامعة الرياض، الرياض، 1401هـ- 1981م.
- غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المكتبة العصرية الذهبية، ط 1، جدة، 1427هـ- 2006م ج: 2.
- فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط 3، بيروت، 1430هـ، ج: 9.
- مجد الدين بن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تح: بشير عيون، دار الفكر، ط 1، د ب، 1392هـ- 1972م، ج: 12.
- محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، ط 1، سوريا، 1431هـ- 2010م، ج: 6.
- محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج: 3.
- محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تح: عبد الرحمان بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط 1، 1426هـ- 2005م.
- محمد بن أحمد بن الأزهري، معاني القراءات للأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب، ط 1، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1412هـ- 1991م، ج: 1.
- محمد بن إسحاق بن النديم، الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط 2، بيروت- لبنان، 1417هـ- 1997م.
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار بن كثير، ط 3، اليمامة- بيروت، 1407هـ- 1987م، ج: 3.
- محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 2، د ب، د ت.

- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري(جامع البيان في تأويل القرءان)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، د ب، 1422هـ- 2001م، ج: 13.
- محمد بن حبان الدارمي، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، تح: مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، المنصورة، 1411هـ- 1991م.
- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، د ط، جدة، د ت، ج: 1.
- محمد بن عبد الله الإمام، المؤامرة الغربية على اللغة العربية، مكتبة الإمام الألباني، ط 1، صنعاء- اليمن، 1430هـ- 2009م.
- محمد بن علي الواحدي، التَّفْسِيرُ البسيط، تح: رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي، ط 1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1430هـ، ج: 1.
- محمد بن عمران المرزباني، نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، اختصار: يوسف بن أحمد اليغموري، تح: رودلف زلهايم، دار: فرانتس شتاينر بغيسبادن، د ط، ألمانيا، 1384هـ- 1964م، ج: 1.
- محمد بن عيسى الترمذي، العلل الصغير، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، د ط، بيروت، د ت.
- محمد بن محمد بن الجزري، منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (متن الجزرية)، دار المغني للنشر والتوزيع، ط 1، د ب، 1428هـ- 2001م.
- محمد بن مكرم بن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تح: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ط 1، دمشق- سوريا، 1402هـ- 1984م، ج: 29.
- محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3، 1417هـ- 1997م، ج: 1.
- محمد حماسة عبد اللطيف، من الأنماط التحويلية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، ط 1، القاهرة، 1990م.

- محمد صديق الحسيني البخاري، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعه وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصريَّة للطباعة والنّشر، د ط، صيداَ- بيروت، 1412هـ- 1992م، ج: 7.
- محمد عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط 2، بيروت، د ت، ج: 1.
- محمد صديق خان، أبجد العلوم، دار بن حزم، ط 1، د ب، 1423هـ- 2002م.
- محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، د ط، القاهرة، د ت، ج: 1.
- محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، القاهرة، 1427هـ- 2006م.
- محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، دار الهدى، د ط، الجزائر، 2009م.
- محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التأويل وغوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط 3، بيروت، 1407هـ، ج: 2.
- محمود السعران، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط 2، القاهرة، 1997م.
- محمود بسة المصري، العميد في علم التجويد، تح: محمد الصادق قمحاوى، دار العقيدة، ط 1، الإسكندرية، 1425هـ- 2004م.
- محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة- مصر، د ت.
- محمود مصطفى، أهدى سبيل إلى علمي الخليل، مكتبة المعارف، ط 1، د ب، 1423هـ- 2002م.
- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط 1، بيروت- لبنان، 2005م.

- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ط، القاهرة، د ت، ج: 1.
- مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، ط 6، بيروت- لبنان، 1991م.
- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، ط 28، صيدا- بيروت، 1414هـ- 1993م، ج: 2.
- مصطفى الغلاييني، رجال المعلقات العشر - كتاب أدب وتاريخ ولغة-، المكتبة العصرية، د ط، صيدا - بيروت، 1418هـ- 1998م.
- نبيل علي، اللغة العربية والحاسوب - دراسة بحثية-، دار تعريب، د ط، القاهرة، 1988م.
- نصر الله بن الأثير الكاتب، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، 1420هـ، ج: 2.
- ياسين جاسم المحيميد، تلحين النحويين للقراء، مؤسسة الريان للطبعة والنشر والتوزيع، ط 1، د ب، 1426هـ.
- يحيى بن زياد الفراء، معاني القرءان، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط 1، مصر، د ت، ج: 2.
- يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت - لبنان، 1407هـ- 1987م.
- يوسف جمال الدين بن الزكي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1400هـ- 1980م، ج: 8.

ثالثا- المراجع الأجنبية مترجمة:

- جرهارد هلبش، تاريخ علم اللغة الحديث، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، مصر، 2003م.
- جوزيف فندريس: Joseph Vendryes، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلى، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، د ب، 1950م.

- جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، ط 1، القاهرة، 1987م، ج: 1.

- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، الجزائر العاصمة- الجزائر، 1428هـ- 2008م، 7.

- غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، د ط، القاهرة- مصر، 2012م.

- فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة: أنيس فريحة، دار الثقافة، د ط، بيروت- لبنان، 1961م.

- فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، العدد: 3، بغداد، 1985م.

- ماريو باي، أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط 8، القاهرة، 1419هـ- 1998م.

رابعا- المعاجم والقواميس والموسوعات:

- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، تح: إبراهيم مصطفى وآخرين، دار الدعوة، د ط، القاهرة، د ت، ج: 2.

- محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط 1، بيروت، 2001م، ج: 8.

- محمد بن عُزير السجستاني، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، تح: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، ط 1، سوريا، 1416هـ
- 1995م.

- محمد بن محمد (مرتضى الزبيدي)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د ط، الكويت، 1970م، ج: 13.

- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط 3، بيروت، 1414هـ، ج: 15.

- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د ط، القاهرة، 1412هـ- 1992م، ج: 4.

خامسا- المجلات والدوريات:

- آمال بوزنادة، رزيق بوزغاية، مرجعيات التفكير اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح من خلال كتاب" منطق العرب في علوم اللسان، سؤال المعرفة في تجربة عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات مخبر الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية والمقاربات البينية، كلية الآداب واللغات، نوران للنشر والتوزيع، ط 1، جامعة العربي التبسي - تبسة، 2022م.
- الشريف بوشحدان، الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح وجهوده العلمية في ترقية استعمال اللغة العربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: 7، جامعة بسكرة، جوان 2010م.
- المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال الملتقى الوطني: اللغة العربية والذكاء الاصطناعي -الواقع والرهانات-، جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر، الجزائر، 18 ديسمبر 2019م.
- بشير إبرير، بنية الخطاب العلمي في كتاب" سيبويه" مخارج الحروف - عينة-، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: 7، جامعة محمد خيضر- بسكرة-، جوان 2010م.
- جون جي كارلسون، (مقال بعنوان: نظرية جثري في التعلم)، مجلة عالم المعرفة، تر: علي حسين حجاج، المجلس الوطني للثقافة والفنون، العدد: 108، الكويت، د ت، ج: 2.
- رشيد عبد الرحمان العبيدي، البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات، مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب، العدد: 12، جامعة بغداد، العراق، 1985م، ج: 1.
- رشيد وقاص، منهج عبد الرحمان الحاج صالح في البحث اللساني، سؤال المعرفة في تجربة عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات مخبر الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية والمقاربات البينية، كلية الآداب واللغات، نوران للنشر والتوزيع، ط 1، جامعة العربي التبسي - تبسة، 2022م.
- زمولي سعاد وموشعال فاطمة، مرجعية البحث اللساني عند عبد الرحمان الحاج صالح بين إشكالية التراث والإبداع، مجلة الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، العدد: 7، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، جانفي 2021م، المجلد: 4.

- سناء علي حسين، مظاهر التعليل في كتاب سيبويه، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، العدد: 18، جامعة كربلاء، السنة الخامسة، صفر 1440هـ- تشرين الثاني 2018م، العراق، المجلد: 5.

- عبد الرزاق بن فراج الصاعدي، موت الألفاظ في العربية، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد: 107، السنة التاسعة والعشرون، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1419هـ، المجلد: 1.

- عبد السلام السيد حامد، النظرية النحوية عند عبد الرحمان الحاج (10) Volume 5 Route Educational & Social Science Journal ،Agust 2018

- عبد الله أحمد جاد الكريم، سيبويه والمدرسة التوليدية التحويلية، المؤتمر الدولي السادس (سيبويه إمام العربية)، كلية دار العلوم، القاهرة، 8- 9 مارس 2010م.

- عبد الله ربيع، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، مجلة كلية اللغة العربية، العدد: 9، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، د ت، المجلد: 1.

- علي بن موسى شبير، الدلالة المنطقية وأثرها في كتاب سيبويه، مجلة العلوم الإنسانية، العدد: 31، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 2018م، المجلد: 1.

- عمارية حاكم، اللسانيات العربية من خلال كتاب سيبويه في ضوء اللسانيات الغربية الحديثة- دراسة مقارنة-، مجلة أنساق، كلية الآداب والعلوم، دارُ نشرِ جامعةِ قطر، العدد: 1 و2، قطر، 2018م- 2019م، المجلد: 3.

- محمد خاين، إسهامات الحاج صالح في ترقية البحث في تعليمية اللغة العربية، مجلة: دراسات لسانية، العدد: 8، المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان، جمادى الثاني 1439هـ- مارس 2018م، المجلد: 2.

- هاينس فروتسفلد، خواطر هيكلية، تعريب: عبد الجبار بن غريبة، حوليات الجامعة التونسية، العدد: 18، تونس، 1980م.

سادسا- المواقع الإلكترونية:

- زين سليم، التفكير اللغوي - العقل والكلام- القراءة، https://www .arb6 .com موقع الشبكة العنكبوتية، 13- 01- 2025م.

- عدنان با حارث، التفكير اللغوي - المقالات التربوية، الموقع: arb6 .com. https://www الشبكة العنكبوتية، 26- 12- 2024م.

فهــرس المحتويات

عنوان الأطروحة: التفكير اللغوي عند سيبويه من منظور اللسانيات الحديثة – قراءة في أعمال عبد الرحمان الحاج صالح–

الشكر والتقدير	–
الإهداء	–
مقدمة:	أ–ح
الفصل الأول: تأسيس الدرس اللغوي عند العرب	
المبحث الأول: التعريف بالمصطلحات اللسانية، وتراجم الأعلام اللغويين	14
المطلب الأول: التفكير اللغوي	15
المطلب الثاني: اللسانيات	20
المطلب الثالث: ترجمة سيبويه	24
المطلب الرابع: ترجمة عبد الرحمان الحاج صالح	35
المبحث الثاني: الدرس اللساني في القرن الأول الهجري (قبل سيبويه)	38
المطلب الأول: نشأة علم اللغة العربية (إرهاصات الظهور وبداية التأسيس)	39
المطلب الثاني: جمع وتدوين علوم اللغة العربية	47
المطلب الثالث: دور الخليل في وضع علوم اللغة العربية	50
المطلب الرابع: جهود مدرستي البصرة والكوفة في دراسة اللغة	55
المبحث الثالث: الدراسات اللغوية في القرن الثاني الهجري (زمن سيبويه)	62
المطلب الأول: الخلاف النحوي بين الخليل وسيبويه	63
المطلب الثاني: حجّيَّةُ أحرفِ القرآن وأوجهِ السُّنَّةِ في الكتاب، وأثرها اللساني في علم اللغة الحديث.	67
المطلب الثالث: دعاوى التأثر في كتاب سيبويه وفي النحو العربي	83
المطلب الرابع: تعدد المدارس اللغوية بعد كتاب سيبويه	87
الفصل الثاني: منجزات سيبويه اللغوية في مقابل علم اللسانيات الحديث	

المبحث الأول: المناهج اللسانية الحديثة في كتاب سيبويه	100
المطلب الأول: سيبويه والبنيوية الوصفية لدي سوسير	101
المطلب الثاني: سيبويه والسلوكية لثورنديك وواطسون	105
المطلب الثالث: سيبويه والتوليدية التحويلية لتشومسكي	110
المطلب الرابع: تصاقب الوصفية والمعيارية في الكتاب	120
المبحث الثاني: إضاءات سيبويه ونظراته النحوية وأثرها في علم اللسانيات	132
المطلب الأول: منهج السماع والقياس اللغويين في كتاب سيبويه	133
المطلب الثاني: تصوُّر الحاج صالح لنظرية الوضع والاستعمال عند سيبويه	140
المطلب الثالث: الاطراد والشذوذ في الكتاب في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية	147
المطلب الرابع: صيحات تيسير نحو سيبويه	155
المبحث الثالث: مستويات التحليل اللغوي في الكتاب في ضوء اللسانيات الحديث	164
المطلب الأول: المستوى الصوتي في الكتاب	165
المطلب الثاني: المستوى الصرفي في الكتاب	172
المطلب الثالث: المستوى النحوي في الكتاب	179
المطلب الرابع: المستوى الدلالي في الكتاب	184
الفصل الثالث: القيمة العلمية للفكر اللغوي عند سيبويه في رؤية عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية	
المبحث الأول: القضايا اللسانية الراهنة الجديرة بالتأمل في الكتاب في نظر عبد الرحمان الحاج صالح	194
المطلب الأول: جهود سيبويه في خدمة اللسانيات التداولية	195
المطلب الثاني: تجليات لسانيات الخطاب في الكتاب من منظور عبد الرحمان الحاج صالح	199

المطلب الثالث: إسهامات سيبويه في بناء المنظومة المصطلحية اللسانية (علم المصطلح)	205
المطلب الرابع: إشكالية الاختيارات التعبيرية بين الفصحى وبين لهجاتها المختلفة في الكتاب وفي اللسانيات الحديثة	216
المبحث الثاني: تأملات سيبويه اللغوية في كتابه في ضوء أعمال عبد الرحمان الحاج صالح	226
المطلب الأول: التعليل النحوي عند سيبويه من وجهة عبد الرحمان الحاج صالح	227
المطلب الثاني: الأصل في الكلام والتوسع في الاستعمال عند سيبويه	233
المطلب الثالث: الأصالة والحداثة من منظور عبد الرحمان الحاج صالح ومقام كل منهما في ميزان اللسانيات والعلمية	238
المطلب الرابع: شهادات ومواقف اللغويين من كتاب سيبويه	242
المبحث الثالث: أهمية منجزات سيبويه والحاج صالح اللغوية ومصادر استمدادها المعرفي	249
المطلب الأول: آثار سيبويه والحاج صالح اللسانية وقيمتها العلمية	250
المطلب الثاني: المرجعية اللغوية عند سيبويه ومصادر استدلاله في نظر عبد الرحمان الحاج صالح	258
المطلب الثالث: الانتماء المرجعي لأعمال عبد الرحمان الحاج صالح اللسانية	264
المطلب الرابع: أثر التفكير اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح على منحى الدراسات اللسانية العربية الحاضرة	268
الخاتمة:	274
قائمة المصادر والمراجع	277